المسلمون في الأندلس

الجزء الثالث

رينهرت دوزي

ترجمة و تعليق و تقديم
د. حسن حبشي



المسلمون في الأندلس

الجزء الثالث

تأليف

رينهرت دوزي

ترجمة وتعليق وتقديم

د. حسن حبشي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٥

المقدمة

هذا الجزء هو ختام ترجمة ما وضعه رينهرت دوزى بالفرنسية عن تاريخ المسلمين فى الأندلس منذ دخولهم اياها حتى مجىء المرابطين لانقاذها من براثن أعدائها ٠

ونحمد الله ان وفقنا الى اتمام ترجمة هذا السفر التى كانت أملا طال عمره أجيالا ثم صار حقيقة ٠

وقد أضفنا الى الترجمة بعض الملاحق التى رأيناها ضرورية ، وكشافا كان لابد منه ليسهل على القارىء العثور على ما ينشده من الأماكن والأعلام والوقائع الى غير ذلك ، وقد ساعدنا فى اتمام هذا الكشاف المهندس مروان حسن حبشى الذى رتبه على الكمبيوتر فله الشكر على ما بذل من جهد ٠

كما تداركنا النقص الذى يلحظه قارىء الأصل الفرنسى من اقتصاره على ذكر السنوات الميلادية فوضعنا ما يقابلها فى التاريخ الهجرى ٠

ونسأل القارىء الكريم أن يبصرنا بالنقص ـ حين يرى نقصا ـ فى الترجمة أو التعليق لتقويم ما اعوج ٠

والله من وراء القصد والسبيل ٠ انه نعم المولى ونعم النصير ٠

القـاهرة فى ٣ سبتمبر ١٩٩٤ — حسن حبشى

الفصل الأول

الصراعات المحلية وظهور هشام الثاني

دعوى بني حماد في حقهم في السيطرة • سرقسطة وطليطلة ودولة بني ذي النون • ابن جهور وقرطبة • الثورات المحلية • القاضي أبو القاسم على في أشبيلية • خلف الحصري يدعي أنه هشام الثاني وتأييد أهل قلعة رباح له • استغلال ابن عباد هذا الادعاء لصالحه وسبب مسايرة ابن جهور لهذا الادعاء الكاذب • الزحف على قرمونة ومصرع صاحبها يحيى الطاغية • النزاع بين ابن عباد وابن جهور حول حقيقة أمر المسمى بهشام•

اضطراب أمور حكام الأندلس

ظلت ولايات اسبانيا الاسلامية ـ منذ زمن بعيد ـ وهى تسير أمورها بنفسها ولم يكن ذلك عن قصد وتدبير منها ، وكان الشعب كلما فكر فى المستقبل استولى عليه الفزع ، واذا تذكر الماضى استبد به الأسى ، وعم شبه الجزيرة انحلال شامل لم يستفد منه الا أصحاب السلطة من البربر والصقالبة ، فتقاسم قادة البربر الجنوب فيما بينهم ، وآلت مقاليد الأمور فى الشرق الى الصقالبة ، أما بقية النواحى الأخرى فقد ناصبها جماعة من الطارئين الجدد وشرذمة قليلون من الأسر الارستقراطية التى أتيح لها من الفرصة ما مكنها من مقاومة الضربات التى أنزلها عبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبى عامر بالأشراف ٠

كان بنو حماد ـ فى الظاهر ـ زعماء رهط البربر فادعوا ان لهم حقوقا على جميع رحاب الاقليم العربى من شبه الجزيرة ، أما حقيقة الواقع فتتمثل فى انه لم يكن سوى مدينة مالقة وما حولها ، وكان لهم أتباع كان أقواهم ساعدا أميرا غرناطة : « زاوى » الذى رفع غرناطة الى منزلة العاصمة (١) ، وابن أخيه « حبوس » الذى خلفه ٠

زد على ذلك أنه كان هناك بعض الأمراء من البربر فى « قرمونة » و « مورة » و « رندة » ، كما كان بنو الأفطس ـ أصحاب بطليوس ـ ينتمون الى ذلك الجنس ذاته لكنهم استعربوا تماما ، حتى لقد ادعوا أنهم من أصل عربى ، ومن ثم شغلوا منزلة لم يشغلها أحد سواهم ٠

أما الفريق المعارض فكان من رجاله « خيران » أمير المرية ، و « زهير » الذى خلفه سنة ١٠٢٨ م [= ٤١١ هـ] ، و « مجاهد » أمير جزائر البليار ودانية ، وهو الذى فاق رجال زمنه فى غاراته البحرية ، وقد أكسبته حملاته على سردينية وسواحل ايطاليا شهرة فائقة ، كما نبه اسمه وذاع صيته لعطفه على الأدباء ورعايته اياهم ٠

كان الحكم فى بداية الأمر واقعا فى يد جماعة من الصقالبة ، حتى اذا كانت سنة ١٠٢١ م نودى بعبد العزيز حفيد المنصور ابن أبى عامر ـ ملكا عليها ، كما وفدت على سرقسطة أسرة عربية النبعة نبيلة المحتد هى أسرة بنى « هود » التى صار لها السلطان وآل اليها الحكم بعد موت المنذر [بن يحيى] سنة ١٠٣٩ م ٠ [٤٣١ هـ] ٠

ولن نمضى هنا فى تعداد العدد الوفير من الولايات الصغيرة ، ولكننا نكتفى بالاشارة الى مملكة طليطلة التى ظلت تحت حكم أحد الولاة واسمه « يعيش بن محمد بن يعيش » حتى سنة ١٠٣٦ [= ٤٢٨ هـ] ومنذ ذلك الحين انتقل الأمر الى يد بنى ذى النون ، وهم أسرة بربرية قديمة ساهمت فى فتح اسبانيا ابان القرن الثامن الميلادى .

ولقد اجتمع وجوه أهل قرطبة ـ بعد زوال الخلافة عن بلدهم ـ واجمعوا امرهم على أن يسوقوا الأمر الى « ابن جهور » الذى طبق خبر كفايته الآفاق ، لكنه رفض فى بادىء الأمر قبول هذا المنصب ثم عاد فقبله ازاء الحاح القوم الشديد عليه مشترطا عليهم أن يشاركه فيه رجلان من أهل المجلس تربطهما بأسرته وشائج القربى ، وهما « محمد بن عباس » و « عبد العزيز بن حسن » ، فاستجاب المجتمعون الى ما طلب وان اتفقوا معه على الا يكون لهذين الرجلين من الأمر سوى المشورة .

سار أول هؤلاء الثلاثة فى حكمه لهذه « الجمهورية » سيرة العقل والسداد ، ويرجع اليه الفضل فى انقطاع شكوى أهل قرطبة من وحشية البربر ، اذ استهل أعماله بصرف البربر عما بيدهم مستعيضـــا عنهم بحرس وطني ، ولم يستبق سوى بنى « يفرن » ثقة منه لطاعتهم له . وكان ظاهر ابن جهور يسير الى أخذه بنظام الشورى أخذا مطلقا ، فاذا طلب أحد منه فضلا زعم أن ليس الأمر بيده بل من اختصاص مجلس المشورة ، وقال انه هو ذاته ليس أكثر من منفذ لما يوصى به هذا المجلس ، وكان اذا جاءته رسالة موجهة اليه هو نفسه أبى أن يتسلمها وأصر على وجوب بعثها الى المشيرين ، ولم يكن يقدم قط على أمر ما الا بعد أخذ رأى المجلس ، ولم يؤخذ عليه أبدا أنه ظهر بمظهر الحاكم فلم يعمد للسكن فى القصر الخليفى بل ظل مقيما فى بيته العادى الذى كان يقيم به من قبل ، لكن الواقع أنه كان مطلق السلطان فلم يحدث قط ان جرؤ المجلس على معارضته .

كذلك كان شديد الصلاح بالغ الدقة ، فلم يشأ أن تكون الخزينة العامة فى داره بل عهد بحراستها الى فريق من أعظم رجال البلد احتراما .

أجل ... لقد كان شديد الحب للمال شرها فى جمعه ، لكن رعايته للصالح العام حالت بينه دائما وبين القيام بأى عمل قد يحط من كرامته ، وكان مقتصدا الى درجة التقصير ان لم نقل الشح ، فتضاعفت أمواله ، وغدى أثرى أهل قرطبة على الاطلاق ، لكنه عمد فى الوقت ذاته الى القيام بمحاولات محمودة الأثر لاستعادة الرضاء العام ، فوثق علاقاته الودية مع جميع الولايات المجاورة ، ونجح فى هذا السبيل الى أقصى غاياته ، فوجدت التجارة والصناعة ـ بعد فترة وجيزة ـ من الطمأنينة ما كانا

فى مسيس الحاجة اليه ، كما انخفضت أسعار السلع ، ووفد على قرطبة جمع كنيف من السكان الجدد أعادوا بناء بعض الأحياء التى دمرها البربر والتى كانوا قد حرقوها حين تخريبهم المدينة (٢) ، ومع ذلك كله فانه لم تتح الفرصة لعاصمة الخلافة القديمة أن تسترد عظمتها السياسية السالفة ، بل الظاهر أن دور الصدارة آل منذ ذلك الحين الى اشبيلية التى سنعنى بتفصيل تاريخها .

لقد ارتبط مصير اشبيلية منذ زمن بعيد بمصير قرطبة ، ومن ثم مرت بنفس الدور الذى مر بالعاصمة فخضعت لحكام من البيت الأموى ، ثم لحكام من بنى حمود ، غير أنه كان لثورة قرطبة سنة ١٠٢٣ م [= ٤١٤ هـ] رد فعل فى اشبيلية ، فقد تمرد سكان العاصمة على القاسم الحمودى وأخرجوه من بلدهم فالتمس له ملجأ باشبيلية التى كان بها ولداه مع حامية من البربر بقيادة « محمد بن زيرى » من قبيلة « ايفرن » ، ثم عمد بعدئذ الى اصدار أمره الى الاشبيليين باخلاء ألف بيت لتنزل فواته بها ، فاشتد استياء أهل اشبيلية وعظم تذمرهم منه ، لا سيما وأن جند القاسم الحمودى ــ وهم أفقر أبناء جنسهم ــ كانوا معروفين بين الناس بالسمعة الشائنة وانهم من كبار اللصوص ، ولما أدرك الاشبيليون ــ من موقف قرطبة العاصمة ــ انهم قادرون على التخلص من النير الذى يرسفون فيه فقد حاولوا أن ينهجوا نهجا جديدا ، لكن لم يصدهم عن السير فى هذا الطريق الا خوفهم من الحامية البربرية ، غير أن قاضى المدينة ــ وهو أبو القاسم محمد ــ وكان من أسرة بنى عباد ــ وفق الى استمالة قائد تلك الحامية مهونا عليه الاستيلاء على اشبيلية فبادر « محمد بن زيرى » بالمجاهرة بالعصيان والوقوف الى جانب « أبى القاسم » ، ومن ثم تم التحالف بين القاضى وبين قيادة قرمونة البربرية ، واذ ذاك نهض الاشبيليون وامتشقوا السلاح وانضمت اليهم حامية المدينة ، وحملوا على أولاد القاسم وأحدقوا بالقصر .

ولما وصل « القاسم » الى اشبيلية وجدها قد أغلقت أبوابها فى وجهه ، فحاول استمالة أهلها اليه ومناهم بالوعود الجمة الخلابة ، لكن ذهبت محاولاته هذه كلها أدراج الرياح ، وأدرك الخطر العظيم المحدق بولديه ، فاضطر للاتفاق مع الاشبيليين فيخلى لهم بلدهم لقاء أن يردوا عليه ولديه فاستجابوا لعرضه حتى اذا اطمأنوا الى انسحابه اغتنموا أول بادرة سنحت لهم فطردوا الحامية البربرية (٣) .

حين استردت المدينة حريتها التام شمل أربابها للنظر فى اقامة حكومة لهم الا أنهم لم يكونوا مطمئنين للخاتمة التى انتهت اليها ثورتهم ، فاستبد بهم الخوف من عودة « بنى حمود » الغاضبين وحينذاك لن يقصروا

عن انزال العقاب الشديد بالمنتزين ، ولم يجرؤ أحد من أهل البلد على تحمل مسئولية ما جرى ، فأجمعوا أن يلقوا التبعة على كاهل القاضي الذي كانوا يحسدونه على ثرائه الطائل ، وخامرتهم الفرحة وان أخفوها وتطلعوا الى اللحظة التي تتم فيها مصادرة الأموال الكبيرة التي عنده (٤) ٠

حينذاك عرضوا الحكم على القاضي الذي كان أحكم من أن يقبل عروضهم في تلك اللحظة بالذات رغم ما جبل عليه من الطمع الشديد ٠

لم يكن القاضي أنيل المنبت رغم ثروته الطائلة التي بلغت ثلث أراضي اشبيليه ، الى جانب ما كان يتمتع به من احترام عظيم بفضل مواهبه وعلمه ، غير أن أسرته لم تكن قد بلغت ذؤابة الشرف الا منذ حين قريب ، وقد أدرك هو أنه لابد من أن يكون تحت امرته فريق كبير من الجند والا قام الأشراف الموتورون في اشبيلية بالتمرد عليه وهو الدخيل عليهم ، المحدث بينهم مما لا يمكن انكاره ، والواقع أنه قد حدث فيما بعد ان قام بنو عباد ـ حين أوشكوا على التربع على عرش الحكم ـ فأرجعوا نسبهم الى ملوك لخم القدماء الذين تولوا الحكم بالحيرة قبل ظهور الاسلام ، واذ ذاك أخذ شعراء بلاطهم في اهتبال كل فرصة للاشادة بهذا الأصل الزكي وان لم يكن هناك ما يؤيده على الاطلاق ، ولم يستطع بنو عباد ـ ولا متملقوهم ـ أن يقيموا البرهان على صحة ما يزعمون ، بل كان كل ما يربط الأسرة بملوك الحيرة القدماء هو انتماء الجماعتين الى قبيلة لخم اليمنية ، غير أن فرع تلك القبيلة ـ الذي زعموا انه قد خرج منه بنو عباد ـ لم ينزل الحيرة أبدا ، بل سكن العريش من تخوم مصر ، كما استقر بعضه في كورة « حمص » من بلاد الشام (٥) ، ولم يستطع بنو عباد أن يرقوا بنسبهم حتى يلتقي بملوك الحيرة بل كل ما في الأمر أنهم وصلوا به الى « أبي العطاف نعيم » الذي كان قد وفد الى الأندلس برفقة « بلج » قائد جند حمص الذين نزلوا قرب اشبيلية ، ثم استقر أبو العطاف في قرية « يومين » من أعمال « طشانة » على شواطىء الوادي الكبير ، وقد ظهر من هذه الأسرة سبعة أجيال من الرجال الفضلاء المقتصدين المجدين الذين عملوا في هدوء وأناة على اخراج الأسرة من ماضيها المظلم ، وكان اسماعيل ـ أبو قاضينا هذا ـ أول من رفع مكان أسرته ، وهو الذي خط لاسم بني عباد سطرا في صفحة أشراف اشبيلية الذهبية (٦) ٠

ولقد جمع اسماعيل في آن واحد بين الفقه والقضاء والسيف ، فقاد كتيبة من حرس هشام الثاني ، ثم صار امام مسجد قرطبة الجامع ، ثم تولى قضاء أشبيلية ، وعرف بألمعيته وحكمته وصواب رأيه وصرامته ، وقرن ذلك كله بالصلاح والتقوى ، فلم يحدث قط أن قبل هدية من

السلطان أو أحد من الوزراء رغم اضطراب البلد اذ ذاك بالفساد الشامل .

كذلك كان كريما الى حد الاسراف ، فوجد القرطبيون المنفيون عنده كرم الضيافة ، فلا جرم ان هو استحق لكل تلك الخلال أن يلقب بأنبل رجال المغرب ، ثم مات سنة ١٠١٩ م [= ٤١١ هـ] أى قبيل الحقبة التى نتكلم عنها بقليل (٧) .

ولعل ابنه القاسم كان ضريبه في العلم وان لم يماثله فى المروءة ، بل كانت تغلب عليه الأنانية ويتملكه الطمع ، ودل أول عمل له على الجحود اذ ما كاد أبوه يموت حتى تطلع لولاية القضاء من بعده في الوقت الذى كان فيه هناك من يبزه ويفضله ، وقد نجح فى تولى هذا المنصب الذى كان يتطلع اليه بفضل تدخل الأمير قاسم (٨) بن حمود اذ كان كاتبه ، وسنرى كيف كان تقديره لهذه المنة عليه وكيف كانت مجازاته اياها .

لقد عرض أولو الحل والعقد حكومة اشبيلية على « أبى القاسم » الذى أدرك الدوافع التى حركتهم للاقدام على ذلك العمل ، فأبدى تمنعا فى قبول هذا الشرف العظيم الا بعد أن يضموا اليه جماعة يختارهم هو بنفسه ليكونوا وزراءه ومشيريه حرصـــا على ألا يستبد بأى أمر وحده وألا يقطع أمرا دون رأيهم ، فقبل الأشبيليون طلبه ازاء اصراره هذا ، ثم سألوه أن يسمى لهم أولئك الزملاء الذين يريدهم فسمى لهم طائفة من أبرز الأسر أمثال « الهوزنى » و « ابن حجاج » وغيرهما ممن يعدون فى الواقع صنائعه ، أو ممن يميلون اليه أشباه « محمد بن يريم » من قبيلة « ألهان » ، و « أبى بكر الزبيدى » اللغوى النابه الذكر مؤدب هشام (٩) الثانى .

ولما فرغ أبو القاسم من ذلك أخذ نفسه بتكوين جيش له انخرط تحت لوائه فيه كثير من الجند العرب والبربر الذين تسارعوا الى صفه بفضل أعطياته ، كما اشترى عددا وفيرا من العبيد ودربهم على فنون الحرب (١٠) .

كذلك جرد حملة الى الشمال قادها بنفسه ، ومن المحتمل أن يكون قد ساهم معه فيها بعض الأمراء ، وتمخضت هذه الحملة عن زيادة جيشه ، اذ حاصر فى هذه المرة حصنين يقعان الى الشمال من « بازو » يواجه أحدهما الآخر ويقومان على يفاع من الأرض ويفصلهما عن بعضهما أحد الأغوار ، ويعرفان بحصنى « الأخوين » ، وهو اسم لا يزال باقيا الى اليوم فى التسمية المعروفة باسم « الأفوين » (١١) وكان ينزلهما جماعة من النصارى الاسبان ممن عقد أسلافهم معاهدة مع القائد موسى بن نصير حينما فتح « بازو » . أما فى الوقت الذى نتكلم عنه فالظاهر أنهم لم يكونوا يتبعون ملك ليون ولا أى أمير مسلم .

استولى القاضى [أبو القاسم] على هذين الحصنين وأرغم ثلاثمائة من المدافعين عنهما على العمل فى خدمته(١٣) ، فأصبح منذ ذلك الحين تحت امرته خمسمائة فارس ، وتوفر لديه عدد من الجند كان كافيا لشن الغارات على أراضى جيرانه (١٤) ، ومع ذلك كله لم يكن القاضى قد بلغ من القوة الدرجة التى تمكنه من الدفاع عن اشبيلية ضد أى هجوم جدى ٠

ولقد ثبت هذا للعيان سـنة ١٠٢٧ م [= ٤١٨ هـ] حين قام الخليفة « يحيى بن على الحمودى » ـ أمير بربر قرمونة ـ ومحمد بن عبد الله بمحاصرة أشبيلية (١٥) التى كان أهلها أضعف من أن يقاوموا يحيى طويلا ، وما لبثوا أن شرعوا فى مفاوضته وأعلنوا استعدادهم للدخول فى طاعته على ألا يدخل البربر المدينة ، فقبل يحيى شروطهم ، لكنه طلب منهم أن يسلموه بعض أبنائهم رهينة عنده دليلا على اخلاصهم فى صدق دعواهم ، فدب الذعر فى المدينة من جراء هذا الطلب ، وأنكر كل أشبيلى على نفسه أن يسلم ابنه للبربر الذين قد يقتلونه لأدنى شبهة تحتك فى صدورهم ، أما القاضى فكان هو وحده الذى لم يتردد فى الاستجابة فأسـلم ولده « عبـادا » الى يحيى [بن على] الخليفة الذى كان يعرف ما يتمتع به ذلك القاضى من سعة النفوذ ، فلا عجب ان قنع يحيى [بن على] بهذه الرهينة المفردة ٠

أدى هذا العمل المنطوى على الاخلاص الى زيادة محبة القوم للقاضى الذى أمن منذ ذلك الحين جانب الأشراف والخليفة على السواء ، وكان القاضى قد اعترف فى الظاهر بسلطان يحيى ، وتراءى له أن الفرصة قد واتته للانفراد بالحكم ٠

كان القاضى قد صرف من مجلس المشورة بعض أنصاره كالحجاج والهوزنى ، ولم يبق معه سوى الزبيدى « وابن يريم » ، لكنه ما لبث أن صرفهما هما أيضا فنفى الزبيدى (١٦) ، وساق الحجابة الى رجل من أوشاب ضواحى اشبيلية اسمه « حبيب » ، وهو رجل متقلب وان كان ذكيا نشيطا شديد التفانى لما فيه خير مولاه (١٧) ٠

وطمع القاضى بعدئذ فى بسط رقعة أملاكه بالاستيلاء على « باجة » التى قاست العذاب فى القرن التاسع من جراء الفتنة بين العرب والعلوج ، والتى أصابها النهب والدمار فى الأيام الأخيرة على أيدى البربر الذين انسابوا فيها يسلبون ويحرقون كل ما يصـادفهم ، فعزم القاضى على تجديدها ، غير أن خبر ذلك المشروع تراءى الى سمع « عبد الله بن الأفطس » أمير بطليوس ، فأنفذ اليها الجند بقيادة ابنه محمد الذى خلفه وسمى « بالمظفر » ٠

لم يكد اسماعيل بن القاضي يقف أمام أسوار « باجة » على رأس جيشي أشبيلية وجيش « قرمونة » الذى كان حليف أبيه حتى كان جند « المظفر » قد تم لهم الاستيلاء عليها ، فبادر اسماعيل فى لحظته بمحاصرتها وشرع هو وفرسانه فى نهب القرى الواقعة بين « يابرة » والساحل ، وعلى الرغم من النجدة التى تسلمها محمد بن الأفطس من « ابن طيفور » أمير « مرتلة » الا أنه كان عاثر الجد فقد فقد أحسن محاربيه ووقع هو ذاته فى أيدى أعدائه الذين بعثوا به الى « قرمونة » .

قوى ساعد القاضي وحليفه بما أحرزا من الانتصارات ، فلم يعد الأمر قاصرا على شن الغارات على نواحى « بطليوس » بل تجاوزتها الى أرباض قرطبة التى اضطرت حكومتها الى اصطناع بربر شذونة ، لكن لم تنقض فترة وجيزة حتى عقد الصلح ـ أو الهدنة ـ مع بنى الأفطس ، وحينذاك أطلق سراح محمد من أسره برضاء القاضي وتم ذلك فى مارس ١٠٣٠ م [= ٤٢٢ هـ] .

مضى أمير قرمونة وأفضى الى محمد [بن عبد الله بن الأفطس] بأنه قد أصبح حرا ، وأشار عليه بالانطلاق الى أشبيلية ليشكر القاضي الذى كان محمد شديد المقت له ، فأبى ، ورد على البربرى أنه يؤثر البقاء فى الأسر على الذهاب الى هذا الرجل وشكره ، فلم يشأ أمير قرمونة أن يجرحه فى شعوره ولم يلح عليه فيما طلبه منه ، بل بعث به الى بطليوس معظما التعظيم اللائق به .

وبعد ذلك بأربع سنوات ، أعنى سنة ١٠٣٤ م [= ٤٢٦ هـ] انتقم عبد الله من الأفطس لتلك الاهانات التى لحقته انتقاما بعيدا عن الشرف ، اذ أذن للقاضي أن تسير جيوشه بقيادة ولده اسماعيل عبر بلاده وهى ماضية فى اغارتها على مملكة ليون ، بيد أن اسماعيل لم يكد يصل الى ممر غير بعيد عن الحدود الليونية حتى فاجأه ابن الأفطس فهلك كثير من جند أشبيلية ، وقتل البعض منهم أثناء الفرار على يد الفرسان الليونيين ، ونجى اسماعيل فى طائفة ضئيلة من رجاله من تلك المذبحة ، كما صادفوا أشد أنواع الحرمان وهم ماضون شطر مدينة « لشبونة » الواقعة على الحدود الشمالية من ممتلكات أبيه .

أصبح القاضي منذ ذلك الحين ألد عدو لأمير بطليوس (١٨) ، لكن ليس بين أيدينا تفاصيل الوقائع التى جرت بينهما بعدئذ ، ولا شك أنه لم يكن لهذه الوقعة من نتائج هامة فى تاريخ اسبانيا الاسلامية أكثر مما كان لحادثة أخرى ذات وجه آخر سنتكلم عنها حالا .

لقد قلنا ان القاضي اعترف بسلطان « يحيى بن على » الخليفة

الحمودى ، الا أنه كان اعترافا اسميا فقد استبد القاضى بالحكم فى اشبيلية دون أية رقابة عليه ، وكان يحيى أضعف من أن يحمله على مراعاة ما له من الحقوق عليه ، ثم أخذ هذا الوضع فى التغير بالتدريج ، اذ عمل يحيى على اجتذاب جميع زعماء البربر الى صفه ، وأصبح فى الواقع ضد ما كان عليه أولا ، اذ صار زعيم الحزب الافريقى بعد أن كان له من ذلك الاسم فقط ، ولما كان قد نصب معسكره العام فى « قرمونة » التى استنزل منها محمد بن عبد الله (١٩) فقد أخذ يهدد كلا من قرطبة وأشبيلية على السواء (٢٠) ٠

أوحت شدة الخطر اذ ذاك الى القاضى بفكرة وطنية خطيرة لم يكن الطمع هو الباعث عليها ، ذلك أنه رأى ضرورة اتحاد العرب والصقالبة تحت قيادة زعيم واحد للحيلولة بين البربر ـ الذين توحدت صفوفهم ـ وبين معاودة فتح البلاد التى فقدوها ، وكانت هذه هى الطريقة الوحيدة المثلى للحفاظ على البلد وتجنب الأخطار التى قاساها من قبل ٠

كان القاضى يحس بضرورة تلك الوحدة فرغب فى تأليف عصبة كبرى تضم جميع خصوم الافريقيين ، وطمع فى الوقت ذاته أن يكون هو رئيسها ، وان كان يدرك أن هناك عقبات جمة تعترضه لابد له من تخطيها ، ذلك أنه كان يعرف أن كبار الصقالبة ووجوه العرب وأشراف قرطبة يرون فى توليته عليهم امتهانا لكرامتهم ومساسا بهم ، لكنه لم يدع أمثال هذه الاعتبارات تتغلب عليه مخافة أن يتسرب اليأس الى همته ، وكان يدرك أن الظروف أكبر معين له ، لذلك صمم أن يمضى قدما فى تحقيق مشروعه ٠ وسنرى كيف تم له ذلك ٠

***

قلنا آنفا ان الخليفة المنكود ـ هشاما الثانى ـ كان قد هرب من قصره زمن حكومة سليمان ، وقلنا ان الدلائل تجمع على أنه مات فى آسيا مجهولا من الناس غير معروف لأحد ، الا أن الشعب كان شديد التعلق بالأسرة الأموية التى أتاحت له الرخاء والمجد ، فرفض أن يذهب مذهب القائلين بموت هذا الخليفة أو يصدق ما يسمعون ، بل أخذ يتلقف فى شره وشوق الاشاعات العجيبة المتعلقة بمصيره ، فظهر فريق من الناس حذقوا رواية التفاصيل الدقيقة عن رحلة هشام فى آسيا ، وزعموا فى بادىء الأمر انه سافر الى مكة حاملا معه كيسا من النقود والأحجار الكريمة ، غير أن حرسه السود اغتصبوه منه ، فقضى يومين وليلتين سويا لم تذق عيناه فيهما النوم ولا دخل طعام جوفه حتى قيض الله له أن يصادف خزافا رآه فأشفق عليه وسأله : « أتحسن عمل الطين يا فتى ؟ » فقال :

« نعم ! » ، فقال الخزاف « ان تعجنه وافقتك على درهم وقرصة » ، فقال له هشام : « عجل القرصة فانى جائع !! » .

وظل هشـــام مدة من الزمن يعمل عند الخزاف رغم عـدم اتقانه الصنعة ، ثم ما لبث القلق أن تسرب الى نفسه ، وكان فى غاية الفقر والاملاق ، فترك المكان وخرج حيث صادف قافلة كانت فى طريقها الى فلسطين ، فانضم اليها ورافقها حتى بلغت بيت المقدس فأقام به ما شاء الله له أن يقيم هناك ، حتى جاء يوم كان يتجول فيه فى طرقاتها فتوقف أمام دكان حصرى منهمك فى عمله فسأله الحصرى : « كأنك تحسن هذه الصناعة » فقال : « لا » فقال الحصرى : « هل لك أن تقيم عندى تناولنى الحلفاء وأجعل لك أجرة على ذلك ؟ » فقبل هشام عرضه مسرورا ، وعمل حتى أتقن صناعة الحصر ، وانقضت عليه بضع سنوات وهو مقيم حيث هو ثم عاد بعدها الى اسبانيا (٢١) فى مايو ١٠٣٣ م [= ٤٢٥ هـ] فذهب الى « مالقة » (٢٢) ثم مضى الى « المرية » عام ١٠٣٥ [٤٢٧ هـ] ، غير أن الأمير زهيرا ما لبث أن أخرجه من بلاده فمضى الى قلعة رباح وأقام فيهـــا (٢٣) .

وعندنا أن هذه القصة التى آمن الشعب بها كل الايمان وصدقتها العامة كل التصديق لا تصح فى الأذهان مطلقا ، وأن حقيقة الأمر تتلخص فى أنه فى الوقت الذى كان يحيى يهدد فيه أشبيلية وقرطبة كان يوجد بقعلة رباح حصرى اسمه « خلف » ، شديد الشبه بهشام ، وان لم يكن ثم ما يؤكد أنه هو الخليفة ذاته ، حتى ان الموالى الأمويين وفيهم المؤرخان ابن حزم وابن حيان ممن يهمهم الاعتراف بهشام المزعوم أنكروا أشد الانكار ما يقوله القوم وسموه بالخديعة الكبرى .

على أية حال اشتدت المطامع بخلف [الحصرى] حين أكثر الناس فى أحاديثهم عن شدة شبهه بهشام الثانى ، كثرة أدت به الى أن يدعى أنه هو السلطان ، وصدقه أهل « قلعة رباح » لجهلهم جميعا أصله ، والأعجب من ذلك أنهم ولوه عليهم وثاروا على أميرهـم « اســـماعيل ابن ذى النون » أمير طليطلة الذى نهض اذ ذاك لحصـارهم فلم يقاوموه طويلا ، واضطروا الى اخراج « هشام » المزعوم من بلدهم والعودة الى طاعة مولاهم القديم (٢٤) .

الا أن دور خلف لم ينته بل بدأ من جـــديد ، اذ ما كاد قاضى أشبيلية يسمع بخبر عودة هشام حتى شرع يفكر فيما قد يستطيع الانتفاع به من هذا الرجل لو أنه استقدمه الى أشبيلية ، ولم يكن يعنيه قيد شعرة أن يكون « خلف » هذا هو هشام الثانى نفسه أم غيره ، بل كان كل ما يرجوه أن يكون الشبه بينهما قويا جدا حتى لا يلقى هو عنـــاء فى

الزعم بأنه الخليفة الراحل ، واذ ذاك يسهل عليه تأليف عصبة باسمه لمقاومة البربر ، وهي العصبة التى يصبح القاضى عصبها ومحركها باعتباره وزير الخليفة ، ومن ثم استدعى الدعى للاقامة فى أشبيلية ووعده بمساعدته ان ثبت ما يقوله من أنه هو هشام الثانى •

لم يتوان الحصرى عن المبادرة بالذهاب الى أشبيلية حيث عرضه القاضى على حريم هشـــام ، ولما كن قد لقن ما سوف يقلنه فقد انعقد اجماعهن على أن هذا الرجل هو الخليفة السابق نفسه ، وحينذاك ركن القاضى الى شهادتهن وكتب الى مجلس المشورة بقرطبة والى شيوخ العرب وزعماء الصقالبة يعلن اليهم وجود هشام عنده ويدعوهم لامتشاق السيف تأييدا لحقه (٢٥) •

وآتت هذه الخطة خير النتائج فقد اعترف بهشام وسلطانه كل من محمد بن عبد الله أمـير قرمونة المخلوع الذى ألقى عصـــــا التســيار باشبيلية (٢٦) وعبد العزيز أمير بلنسية و « مجاهد » أمير « دانية » والجزائر الشرقية وأمير طروشة (٢٧) •

واشتدت حماسة أهل قرطبة حين علموا بان هشاما لا يزال حيا يرزق ، غير أن أميرهم أبا الحزم [جهور بن محمد] بن جهور لم يصدق ما زعمه القوم ، وكان حريصا على ألا يفلت الأمر من يديه فلم يخدع بما أرجف به الناس ، لكنه أدرك ألا قبل له بمقاومة ارادة الشعب ، ورأى ضرورة اتحاد العرب والصقالبة تحت رياسة أمير واحد ، لكنه خاف أن يعاود البربر مهاجمة قرطبة ، ومن ثم لم يعارض رغائب مواطنيه وسمح للقوم فى نوفمبر ١٠٣٥ م [= ٤٢٧ هـ] بتجديد البيعة لهشام (٢٨) •

فى هذه الأثناء كان الحزب العربى الصقلبى يدعــو فى كل مكان الى حمل السلاح ضـــد يحيى الذى كان يحاصر اذ ذاك أشبيلية مخربا ما حولها ، والذى أجمع عزمه على انزال أشد الانتقام بهذا القاضى الداهية ، وكان يحيى فى محيط من الخونة اذ كان بربر قرمونة الذين حملهم على الانخراط تحت لوائه شديدى التعلق بأميرهم السابق فكاتبوه ، ثم عمد بعض أولئك البربر فى شهر أكتوبر ١٠٣٥ م [= ٤٢٧ هـ] الى التسلل خفية الى أشبيلية فلما بلغوها أفضوا الى القاضى والى الأمير محمد بن عبد الله أنه من اليسير عليهما مباغتة الأمير يحيى لأنه لا يفيق من سكره ، وفى الحال عزم القاضى وحليفه على اغتنام هذه الفرصة حيث خرج اسماعيل ابن القاضى على رأس الجيش الاشبيلى وفى صحبته محمد بن عبد الله ، ولما أرخى الظلام سدوله بقى هو ومعظم جنده فى مخبأ بعيدين عن الأعين ، وأنفذ كتيبة للزحف على « قرمونة » مؤملا اخراج يحيى من القصر •

ونجحت خطة اسماعيل فقد كان يحيى منصرفا الى الشراب حين أخبروه بقدوم الأشبيليين ، وسرعان ما غادر مجلسه قائلا : « وابياض بختي ... الليلة ابن عباد زائري » . ثم دعى رجاله لحمل السلاح فاستجاب القوم لأمره وما لبث أن خرج من المدينة مستصحبا ثلاثمائة فارس ، واشتدت به الحميا فكر بغتة على الأعداء دون أن يرتب صفوفه للقتال ، فلم يستبين الأشباح فى الظلمة .

أدى هذا الهجوم الفجائى الى شىء من الاضطراب فى صفوف الأشبيليين ، الا أنهم استبسلوا فى صده ، حتى اذا اضطروا الى الارتداد تقهقروا شطر الناحية الموجود بها اسماعيل ، واذ ذاك غطى الحين على بصر يحيى فقد انقض عليه اسماعيل بمن معه من نصارى « الأخوين » وقضوا على أعدائهم ، وكان يحيى نفسه بين القتلى ، وما كان لمعظم رجاله الا أن يشاطروه مصيره لو لم يحل محمد بن عبد الله دون ذلك فقد التمس من اسماعيل الابقاء على أولئك التعساء قائلا له ان أغلبهم من بربر قرمونة الذين أكرهوا على العمل فى خدمة ذلك الطاغية .

نزل اسماعيل على رجائه وأمر رجاله بالكف عن تتبعهم ، ولم يكد هذا الأمر يصدر حتى اعتلى محمد بن عبد الله صهوة جواده وخب به قاصدا قرمونة لاسترداد امارته ، فأراد سودان يحيى الذين استولوا على أبواب المدينة منعه من دخولها الا أنه استطاع بمعونة الأهالى من اقتحامها من عورة فى السور ودخل قصر الأمير يحيى ، وأباح نساءه لأبنائه ، واستحوذ هو على جميع ما بالقصر من مال ومتاع ، وقد تم ذلك كله فى نوفمبر ١٠٣٥ م . [٤٢٧هـ] .

طغت على قرطبة موجة من الفرح حين ذاع خبر هلاك يحيى ، كما سجد القاضى لله شكرا حين تناهى اليه هذا النبأ ، وفعل فعله جميع من كانوا حوله اذ ذاك ، اذ لم يعد ثم شىء يخشساه الناس من جانب بنى حمود (٢٩) .

غير أن أهل مالقة استخلفوا عليهم ادريس أخا يحيى ، لكن الوقت كان أقصر من أن يمكنه من استمالة زعماء البربر اليه بالعطايا والعهود ، وعجز عن أن يخضع الجزيرة الخضراء التى بايع العبيد السود فيها أخاه محمدا بالخلافة (٣٠) ، فلما رأى القاضى أن الظروف مواتية له أراد أن يقيم هو وهشام الثانى المزعوم فى القصر الخليفى بقرطبة لولا اصرار ابن جهور على ألا يدع الحكم له اذ نجح فى اقناع مواطنيه بأن الخليفة المنصوب ليس الا دعيا أفاقا ، كما أبطل ذكر اسم الخليفة هشام الثانى من الصلاة العامة ، ومن ثم وجد القاضى أبواب المدينة مغلقة فى وجهه حين بلغها ، واضطر للرجوع من حيث جاء لقلة من تحت يده من الجند اللازم لاخضاع مثل هذه المدينة العظيمة (٣١) .

صمم القاضى اذ ذاك على قتال الأمير الصقلبى الوحيد الذى أبى الاعتراف بهشام الثانى وهو « زهير » أمير المرية الذى كان أميل بطبيعة الحال الى ابن حمود ، وذلك بفضل الخليفة القاسم الذى أراد استمالة العامريين اليه فأقطعهم الاقطاعات الجمة ، فلما نودى بادريس خليفة بادر الى الاعتراف (٣٢) به زهير الذى لما رأى أنه مهدد بالخطر من ناحية القاضى حالف « حبوسا » الغرناطى ثم خف على رأس رجاله ورجال حليفه لصد الجيش الأشبيلى الزاحف عليه ، وأرغمه على الارتداد (٣٣) ٠

ومن الجلى أن القاضى قد أفرط فى الثقة بقواته ، وكان يخشى اللحظة التى تقوم فيها جيوش المرية وغرناطة هى الأخرى بدورها فتغزو مقاطعة اشبيلية ٠

ويشاء حسن طالعه ويمن نجمه أن تساعده المقادير التى كانت فى خدمته على الدوام فخلصته من عدويه واحدا أثر الآخر ٠

الفصل الثانى

الصراع بين صمويل اليهودى وابن عباس

الكلام عن صمويل بن لبفى اليهودى وكفاءته • استقدامه للكتابة بديوان حبوس فى غرناطة بعد موت الوزير أبى القاسم • ارتقاؤه الى مرتبة الحجابة وثناء الناس عليه • صفات صمويل وخدماته لليهود • ابن عباس وزير أمير المرية يغار منه ويحقد عليه • كراهية ابن عباس للبربر • باديس بن حبوس يخلف أباه • ابن عباس يفسد ما بين غرناطة والمرية ويرفض نصيحة بلجين البربرى فى اصلاح ذات البين • الحرب بين غرناطة والمرية ووقوع ابن عباس فى أسر حبوس وسجنه ثم مقتله • فرحة صمويل بزوال ابن عباس •

الصراع بين صمويل اليهودى وابن عباس

كانت مقاليد الأمور فى غرناطة والمرية أثناء الحقبة التى نتكلم عنها فى يد رجلين يتنازعان الشهرة ،، وان انطوى صدر كل منهما على المقت الشديد للآخر ، وأعنى بهما ابن عباس العربى وصمويل اليهودى ·

فأما « صمويل هاليفى » الربانى المعروف « بابن نغديلة » فقد ولد بقرطبة ودرس بها التلمود على يد الربانى « هنخ » حاخام الطائفة اليهودية بها ، كما اهتم بدراسة الأدب العربى وألم بمعظم علوم الوقت اذ ذاك ، وأصاب حظا عظيما من كل ذلك ، ولم يكن ثم ما يشغله بعد هذا سوى حانوت عطارة صغير افتتحه أولا فى قرطبة ثم انتقل الى « مالقة » التى نزح اليها بعد استيلاء بربر سليمان على العاصمة · وظل مقيما بها حتى واتته الفرصة السعيدة فانتشلته من هذا العمل التافه ·

كان حانوت هاليفى على كثب من حصن تابع لأبى القاسم بن العريف وزير حبوس ملك غرناطة ، وكثيرا ما كان أهل تلك الناحية ـ وهم أميون ـ يكتبون الى مولاهم فكان لابد لهم من التردد على صمويل لكتابة رسائلهم التى كانت تنال اعجاب الوزير لما هى عليه من روعة البلاغة والاناقة اللفظية ، تعطرها زهرات البيان العربى ·

وحدث أن قدم الوزير الى مالقة واغتنم الفرصة واستفسر من أهلها عمن يكون محرر هذه الرسائل فلما عرف أنه ذلك اليهودى استقدمه اليه وقال له :

« ما يليق بك المقام بالحانوت ، انما مقامك ومكانك عند أقدام سرير الملك ، أستكتبك فتكتب !! » ·

واستجاب له صمويل ، واصطحبه الوزير معه الى غرناطة حين رجع اليها ، وازداد تقدير ابن العريف له ، وما تباحث معه فى شأن من شئون الدولة الا تكشفت له فيه نواح من الذكاء النادر فى الحكم الصحيح على الرجال والأعمال ، كما تبدى له صدق نظرته ، حتى ليقول أحد المؤرخين اليهود « ان جميع ما يصدر عن صمويل من الآراء يبدو وكأنه الهام » ، ومن ثم كان الوزير دائم الأخذ بآرائه والثناء عليها ، فلما أقعده المرض وشعر بدنو أجله قال لمولاه الذى خف لزيارته وقد أوقع فى يده اذ لم يدر

الى من يعهد بالوزارة ان وافت ابن العريف المنية وهو الوزير المخلص فقال له :

« ليس ما عهدت عندى من الرأى برأيى يا مولاى ، انما أنا فيه تبع لكاتبي صمويل اليهودى ، فاجعله قبلتك يكن لك وزيرا وأبا حنونا ، وليساعدك الله » .

ونزل الملك حبوس على مشورة وزيره واستقدم صمويل الى القصر واتخذه كاتبا ومشيرا (١) .

ربما لم يحدث فى أية امارة أخرى ما حدث فى هذه الامارة من أن يباشر الوزارة رجل من اليهود ، وأن يلقب بالوزير والمشير ، على الرغم من أنه طالما حظى اليهود بالقرب من بعض الحكام المسلمين الذين كانوا يؤثرون أن يكلوا اليهم ادارة الشئون المالية على وجه الخصوص ، لكن لم يحدث قط أن بلغ التسامح الى الدرجة التى يوكل فيها منصب الحجابة الى أحد اليهود ، فان صح ذلك فلا يصح الا فى غرناطة التى كانت زاخرة باليهود حتى لقد تآلف الناس على تسميتها « بمدينة اليهود » (٢) الذين طالما تدخلوا فى شئون الدولة ، يساعدهم على ذلك ما هم عليه من الثراء والقوة البالغة ، ومجمل القول انهم وجدوا فى غرناطة أرض المعاد أو على الأقل « من الصحراء والسلوى وصخرة حوريب » .

كذلك يمكن تفسير ارتقاء صمويل بطريقة أخرى تلك هى أنه لم يكن من اليسير على ملك غرناطـة أن يجد له حاجبا ، فالواقع أنه كان لا يستطيع أن يكل هذا المنصب الخطير الى أحد من البربر أو العرب لأن القوم فى تلك الأيام كانوا يميلون لأن يكون الوزير أديبا كبيرا حتى يضع الرسائل التى يبعث بها الأمير الى غيره من الأمراء ، وكانت تكتب فى نثر مسجوع وبأسلوب بالغ الروعة ، وكان ملك غرناطة أشد القوم اهتماما بالكفاءات التى من هذا القبيل ، وهو فى ذلك يشبه رجلا قد واتته النعمة على كبر وعلى غير انتظار فحاول أن يظهر بمظهر العظيم . ولما كان حبوس نصف بربرى فقد عمل كل جهده على اخفاء تلك الناحيـة فيه ، فراح يشجع الأدب ، ويظهر الميل اليه والى الأدباء ، ثم ادعى بأن الأمة التى خرج منها ــ وهى صنهاجة ــ ليست بربرية بل هى عربية (٣) النبعة ، ومن ثم بذل غاية وسعه للبحث عن وزير لا يقل عن وزراء جيرانه .

لكن أنى له به ؟ وكيف يجده ؟ .

ان قومه من البربر يحسنون القتال ويجيدون الاستيلاء على المدن ولا يجارون فى تخريبها وتدميرها ، لكنهم عاجزون عن كتابة سطر واحد

صحيح بلغة القرآن ، كما أنه هو نفسه لا يستطيع أن يعهد بالوزارة الى العرب الذين كانوا لا يرون عارا أن يخونوه ويسقطوه ٠

اذن يحق لحبوس ــ فى هذه الظروف ــ أن يعد نفسه قد حصل على كنز ثمين اذ أتيح له أن يجد رجلا ــ وان يكن يهوديا مثل صمويل ــ يشهد له علماء العرب أنفسهم بتمكنه غاية التمكن من لغتهم الرائعة ، ثم انه ــ مع عطفه الشديد على أبناء ملته ــ لم يخطيء القصد مطلقا وهو يكتب الى المسلمين اذ كان يكثر من اقتباس العبارات الدينية التى ألفوا استعمالها (٤) ، لذلك لم يجد حبوس غضاضة فى رفعه الى مرتبة الحجابة ، بل ان العرب أنفسهم زكوا هذا الاختيار واعترفوا ــ على الرغم منهم ــ بأنه من ذخائر العبقريات ٠

والحق أنه كان غزير العلم ، واسع المعرفة ، ملما بالرياضة والمنطق والفلك (٥) ، متقنا لما لا يقل عن سبع (٦) لغات ، أضف الى هذا مبالغته فى العطف على الشعراء وأهل الأدب عامة ولم يقصر عن مدحهم بعطاياه جزاء مدحهم اياه والاشادة به ، حتى لقد قال فيه الشاعر المنفتل الأبيات التالية التى لا يذكرها المسلمون الا متبرئين منه ومستعيذين بالله ، ومنها قوله :

أجامع شمل المجد وهو مشتت
ومطلق شخص الجود وهو من الأسرى

فضلت كرام الناس شرقا ومغربا
كما فضل العقيان بالخطر القطرا

وان فرقوا بين الضلالة والهدى
لما قبلوا الا أناملك العشرا (٧)

أما الأمر الذى عجز العرب عن ايفاء صمويل حقه فيه فهو خدماته التى أداها للأدب العبرى ، وهى خدمات جليلة ، فقد وضع مقدمة للتلمود وألف اثنين وعشرين كتابا فى النحو ، كان من أوسعها انتشارا وأبرزها كتاب « الكنز » الذى عده أحد من لهم القول الفصل فى هذا الموضوع وكان على دين صمويل وعاش فى القرن الثانى عشر ــ أقول انه اعتبر كتاب « الكنز » هذا فوق جميع الكتب التى تبحث فى النحو ٠

كذلك كان صمويل شاعرا حاكى المزامير وأمثال سليمان وسفر الجامعة وبعض أسفار التوراة ، ولما كانت تلك الأشعار تزخر بالكنايات والأمثال الغريبة والاصطلاحات والتعابير النادرة المقتبسة من الشعراء القدامى فقد كانت صعبة الفهم حتى ان كثيرا من أعظم علماء اليهود كانوا

لا يســـتطيعون ادراك مراميها دون الاستعانة بالشروح (٧) ، لكن كان التخصص والبحث اذ ذاك شائعين فى الأدب العبرى كما هو الحال فى الأدب العربى الذى اتخذه صمويل مثالا يحتذيه وكان الغموض يعد اذ ذاك حسنة أكثر مما يعد عيبا ٠

كذلك كان صمويل يعطف عطفا أبويا على شباب اليهود الباحثين فبسـط يده للمملقين منهم بما يكفيهم ، واسـتخدم جماعة من الكتـاب ينسخون له « المشنا » و « التلمود » وراح يهب هذه المخطوطات الى الطلاب العاجزين عن شرائها ، ولم تقتصر أفضاله على أبنـاء دينه من الاسبان وحدهم بل شملت أيضا من كان فى افريقية وصقلية وبيت المقدس وبغداد وغيرها من اليهود الذين عاشوا على رفده وعطاياه (٨) ، وأراد يهود ولاية غرناطة تقديم الدليل على تقديرهم اياه واعترافهم بفضله فخلعوا عليه سنة ١٠٢٧ م [٤١٨ هـ] لقب « نغيد » أى زعيم أو أمير يهود غرناطة ٠

ولما كان صمويل رجل دولة فقد جمع الى رجاحة العقل وجلائه : الحزم والبصيرة النافذة ، وكان من عادته ـ شأن السياسى ـ أن يتكلم قليلا ويفكر طويلا ، واستفاد من جميع الظروف اسفادة عجيبة ، فكان ملما بطبائع الناس وميولهم وبالطرق التي يسلكها للتغلب عليهم وعلى شرورهم ، وكان الى جانب هذا أيضا رجل دنيا ، فاذا كان في أبهاء قصر الحمراء الرائعة بدى في غاية الرقة حتى ليحسبه الناظر اليه أنه ولد فى مطارف النعيم ، فلم يكن ثم من يجاريه ذلاقة لسان فى ادارة دفة الحديث ، أو بشأوه فى اللطف ، أو يبلغ مبلغه فى الرقة وحلاوة الكلام ، أو يجاريه فى اجتذاب محدثه اليه بفضل قريحته الوقادة وحججه القوية الناصعة ٠

ثم ان هناك أمرا نادرا عند من دفعهم الحظ الى ذروة الرفاهية والمرتبة السامية ، ذلك أنه لم يكن عند صمويل ما قد يكون عند أرباب النعمة الجديدة من التعاظم والغطرسة والزهو الأحمق ، وقد بلغ صمويل ما بلغ من المكانة عن استحقاق وذلك نتيجة حتمية للطف معشره وقربه من نفوس الجميع وبعده التام عن التعالى ٠

أضف الى ذلك أنه لم يخجل من وضعه الأول ، ولم يعمد الى اخفائه ، بل كان يشير اليه فى اعتزاز ويعلنه فى بساطة الى من يعيبه (٩) ٠

وأما ابن عبـاس ـ وزير زهير أمير المرية ـ فكان هو الآخر رجلا بارزا ، ويقال انه امتاز بأمور أربعة لم يبزه فيها أحد ما ، تلك هى : الكتابة والمال الوفير والبخل المتناهى والعجب الشديد ٠

والثابت أن ثروته بلغت من الضخامة مبلغ الخيال ، اذ أربت على ثلاثة آلاف ألف دينار ، وقد أسرف فى تأثيث قصره تأثيثا هو بالأمراء

أليق ، فكان غاصا بالخدم ، تضم حجراته خمسمائة جارية كلهن من ذوات الجمال النادر ، لكن أعظم ما يعجب به المرء هو أنه كان عند ابن عباس مكتبة ضخمة تضم رفوفها أربعمائة ألف كتاب ، هذا الى جانب عدد جم من الدفاتر والكراسات .

ولم يكن ينقص ابن عباس شيء من السعادة فكان جميلا ، في ميعة الشباب لايجاوز الثلاثين ربيعا ، وكان شريف المولد اذ هو أنصاري الأصل ، وكان يتقلب في مطارف النعمة ، ويترجم عما يريد في لفظ يسيل رقة وبلاغة ، فذاعت بين الناس شهرته الأدبية الا أنه لسوء طالعه لازمه الغرور الذي لم يكن له حد ولا نهاية مما أدى الى كثرة أعدائه ، وكان القرطبيون على الأخص ألد الكارهين له ، اذ حدث في ذات مرة أن قدم مع زهير الى بلدهم فعامل أبرز رجالهم وأشرفهم أرومة وأرفعهم مكانة معاملة تنطوي على الزراية بهم والتحقير ، فلما حان وقت رحيله قال لهم : « ما رأيت بقرطبة الا سائلا أو جاهلا » .

ومن المحقق أن غروره قارب الجنون حتى لقد قال في بعض قصائده ما معناه انه لو كان جميع الأنام عبيدا له لتمنى ما فوق الجوزاء فان بلغها استقلها .

كما نظم البيت التالي الذي كان دائم الترديد له كلما جلس يلعب الشطرنج :

عيون الحوادث عني نيام وهضمي على الدهر شيء حرام

غير أن هذا التحدي المعيب للقدر أثار غضب أهل المرية على بكرة أبيهم فقام أحد الشعراء الجريئين وترجم عن رأي الناس فقلب الشطر الثاني من البيت وقال : « سيوقظنا قدر لا ينام » .

ولما كان ابن عباس عربيا خالصا فقد كان شديد الكراهية للبربر عظيم الازدراء لليهود ، ولعله كان لا يود عن صدق أن ينضم مولاه الى العصبة العربية الصقلبية لأن ذلك سوف يؤدي الى أن يصبح زهير في المرتبة الثانية بعد قاضي أشبيلية رئيس تلك العصبة ، وكان أشد ما يثير ضيق ابن عباس أن يرى مولاه يحالف بربريا استوزر له رجلا من اليهود يكرهه ، لذلك اتفق مع ابن بقنة (١٠) ــ وزير آل حمود ــ بمالقة على القضاء على صمويل ، فافترى عليه كثيرا من الوشايات لكنها لم تبلغه غايته ولم تحقق له اربته ، واذ ذاك حاول التضريب بين مولاه وبين ملك غرناطة بأن سأله النهوض لمعونة محمد أمير قرمونة عدو حبوس ، وجازت عليه الحيلة .

لكن لم يلبث حبوس أن قضى نحبه في شـهر يونيـو ١٠٣٨ م [= ٤٣٠ هـ] تاركا وراءه ولدين أكبرهما « باديس » وثانيهما « بلجين » ، فمال البربر وفريق من اليهود لاستخلاف الأخير مكان أبيه ، على حين رغب العرب وبقية اليهود ـ ومنهم صمويل ـ في أن يؤول الحـكم الى باديس بن حبوس ، وكادت الفتنة أن تشب بين الجانبين لو لم يبادر بلجين بالتنازل لأخيه عن العرش من تلقـاء ذاته ، واقتدى به أتبـاعه فبايعوا مثله أخاه (١١) مثلما بايعه هو .

وبذل الأمير الجديد قصارى جهده في اعادة التحالف مع صـاحب المرية الذى أعلن في النهاية أن سيتم الاتفاق على كل شيء عند اللقاء .

وخرج زهير في موكب ضخم رائع ووصل فجأة أمام أبواب غرناطة دون أن يستأذن صـاحبها في عبور بلاده ، فكان عملا كريهـا أسخط « باديس » لكنه كظم سخطه وبالغ في الترحيب بأمير المرية وأوسع على من معه في القرى والضيافة وخلع عليهم الخلع الجمة ، الا أن المفاوضة لم تفض الى شيء ما ، اذ لم يصل الأميران ولا وزراؤهما (وكان صمويل لا يزال في الوزارة) الى اتفاق ما ، أضف الى ذلك أن زهيرا كان تحت تأثير ابن عباس ومن ثم تعالى « باديس » تعاليا جرح كبرياءه ، لذلك فكر ملك غرناطة في القصاص من أمير المرية جزاء سفهه لولا أن قام أحد ضباطه واسمه بلجين أيضا وحاول المحاولة الأخيرة في تهدئة الأمـور واستقرارها واصلاح ذات البين فتسربل بالظلام ومضى الى ابن عباس وقال له :

« اتق الله وصاحبك منقاد اليك ، وقد تعرفنا في تألفنا البركة .

« وقدر بيننا مثل هذه النعمة التى كثر عليها حسادنا .

« ما الذى غركم من ابن عبد الله حتى تقاطعونا في رضاه ؟

« فاجيبوا أميرنا الى ما دعاكم اليه من الألفة » .

فرد عليه ابن عباس رد المستخف الهازىء بما يقوله .

ولما حاول البربرى اسـتمالته بتقبيله والبكاء بين يديه قال له ابن عباس :

« دع القعقعة فليست تهولنا ، وكلامي لك الليلة مثل كلامي لك بالأمس .... والله لا نزلتم الا على رضانا والا أعقبكم على ذلك ندامة » .

فتميز بلجين البربرى غيظا من قوله هذا وسأله : « يا هذا أو أرجع للجماعة فأحمل اليها ما تقول ؟ » .

فأجابه ابن عباس : « نعم ، وزد فيه ما شئت » .

وانصرف [الضابط البربرى] بلجين وقد استفزه الحنق وتملكه الغضب وانقلب الى باديس ومشيخته فأخبرهم بما كان بينه وبين الوزير وصاح : « يا صنهاجة ... والله هذه احدى الكبر ، قوموا لدفاعها بالقوة والا فليست داركم !! » .

وشاركه أهل غرناطة حنقه ، وكان أشدهم تسعرا فى الغيظ بلجين أخو باديس ، الذى راح يزيد ضرام الحقد فى نفس أخيه وألح عليه أن يبادر الى اتخاذ ما ينبغى اتخاذه من اجراءات عنيفة لتأديب أهل المرية ، فوعده أخوه باديس بتحقيق سؤاله .

واذ كان لابد لزهير ــ وهو منكفىء الى بلاده ــ من أن يمر على كثير من الأوعار ، كما لم يكن ثم محيص له من عبور قنطرة « البونت » المسماة باسم البلدة المجاورة لها فقد أمر « باديس » بقطعها وأرسل رجاله لاحتلال الاحراج ، لكنه لما كان لا يحقد على زهير حقد أخيه عليه فانه لم يقطع الأمل بعد فى عودة صــديق أبيه القديم الى ما كان بينهما من الحلف والمصافاة بدلا من الخلف والمعاداة ، وأجمع على أن ينفذ فى السر من يحذر زهيرا بالخطر الكامن له ، ومن ثم وسط ضابطا بربريا ممن يعمل فى جيش المرية ، فمضى ذلك الفارس ليلا الى زهير وقال له :

« اطعنى وقلدنى عارها وهون على نفسك هذا الحزن وخل عنها ، وتقدم الى قوادك الليلة فى الارتحال معك سرا ، واتخذ الليل جملا ، فلعلك تجاوز هذه الأوعار فتخرج من الورطة ، فان القوم متى تبعوك فيها دخلوا من التغرير فيما خرجت عنه ، وتهيأ لك العطف عليهم بمجال فسيح يمكنك القتال فيه والتعلق ببعض حصونك » .

والظاهر أن زهيرا لم يجد غضاضة فى الأخذ بهذا الرأى لولا أن صاح به ابن عباس وكان حاضرا المجلس قائلا « هذا وسواس أدخلك فيه الذعر ! » ، فأجابه الفارس : « ألمثلى تقول هذا وقد نيفت على عشرين وقعة ... وأنت ما قرعتك قط وعوعة ؟ .. ستعلم عاقبة أمرك !! » ، ثم خرج مغضبا حانقا .

علم المتربصون لابن عباس ــ وهم كثر ــ ما كان من نبذه مشورة الفارس البربرى ، ولم يكن نبذه اياها عن اعتقاد فى خطئها بل لطمعه فى أن يلقى زهير مصرعه اذا نشب القتال ، وقالوا ان ابن عباس كان يطمع فى حكم المرية ومن ثم رغب أن يلقى « زهير » حتفه فى محاربته الغرناطيين ، وحينذاك ينجو ابن عباس بنفسه وينفرد بامارة المرية .

وليس من المستبعد أن يكون لهذا الاتهام نصيب من الصحة وسنرى

فيما بعد ابن عبـاس يمن على باديس بأنه نصب الشرك لزهير وأوقعه فيه ٠

على أية حال أحدقت قوات غرناطة في صباح ٣ أغسطس ١٠٣٧ م [= ٤٢٩ هـ] بزهير فاستولى الذعر على جنده أما هو فلم تطر نفسه شعاعا بل راح يرتب من معه من السودان للقتال وكانوا زهاء خمسمائة رجل،وضم اليهم الأندلسيين ، ثم أمر قائده ، هذيلا [الصقلبي] بالنهوض مع الفرسان الصقالبة ومهاجمة العدو ، فاستجاب له هذيل ، لكنه لم يلبث أن سقط عن جواده وربما كان ذلك من طعنة أردته عن صـهوته ، أو من كبـوة كباها حصانه ، فابذعر أصحابه وانهزموا وهم في أشد حالات الفوضى ٠

في هذه اللحظة بالذات غدر « السودان » بمولاهم زهير الذي كان شديد الثقة بهم وانضموا الى العدو بعد أن نهبوا خزانة سلاح مولاهم الذي لم يبق الى جواره سوى الأندلسيين الذين كانوا على وجه العموم أسوأ الجند ، فما لبثوا أن فروا ، وفعل زهير فعلهم ان طوعا أو كرها ، ولما كانت قنطرة « البونت » مقطوعة وقد سد العدو الأوعار فقد انطلق الهاربون الى الجبال رجاء الاعتصام بها ، لكن تخطفت سيوف الغرناطيين معظمهم أنى تقفتهم ، ولقى غيرهم حتفهم في شعاب وعرة وكان ممن قتل « زهير » ذاته ٠

وسبق جميع الموظفين المدنيين الى الأسر ، فأمر « باديس » بالابقاء عليهم وكان من بينهم ابن عبـاس ، الذي لم يكن ثم ما يخشى عليـه ويضطرب من أجله سوى كتبه ، فدأب على الصياح استفسارا عما حل بها ، ثم التفت الى الجند الماضين به الى باديس وقال لهم :

« الله الله في حمولتي ٠٠٠ قولوا لمولاكم باديس يحتاط عليها حتى لا تنخرم فان فيها دفاتر لا كفاء لها » ٠

فلما مثل في حضرة باديس قال مبتسما « يا أبا مناد ، ، أرأيت أي كأس أدرتها لك على هؤلاء الكلاب ؟ » ، وأشار باصبعه الى الصقلب ، ثم تابع كلامه قائلا :

« أريد أن تتقدم الى في حفظ دفاترى فانها أهم ما على !! » ٠

كان الأسرى من أهل المرية في أثناء كلامه هذا ينفضونه بعيون ترميه بشرر الغيظ منه والسخط عليه ، فصاح أحدهم ــ وهو القاضي ابن شبيب ــ موجها الكلام الى باديس : « يا حاجب : بالذى نصرك لا يفوتك هذا الفاعل الزارى بالخليفة فما جر ما تراه سواه ، وليتني عاينت حتفه ولا أبالي الموت بعده » ٠

فتبسم باديس وأمر باطلاق سراح القائد فكان هو ـ بين الفرسان والقواد ـ الرجل الوحيد الذى أبقى الصنهاجي على حياته ، أما من سواه فقد قتلوا جميعا ٠

بيد أن ابن عباس كان الرجل الوحيد من بين حملة الأقلام (١٢) الذى لم تطلق له الحرية ، وأدرك هذا الوزير التياه المضرة التى ساقته اليها جرأته فى السفاهة ، ورأى أن نبوءة شاعر المرية توشك أن تتحقق ٠

وألقى بابن عباس فى سجن الحمراء وقيد بسلاسل ثقال لا تقل عن أربعين رطلا ، وعرف أن باديس متخشن الصدر عليه ، وأن صمويل يتمنى قتله ، لكنه مع ذلك كله كان لا يزال يؤمل بعض الأمل اذ عرض على باديس ثلاثين ألف مثقال من الذهب لقاء اطلاق سراحه ، فأجابه باديس بأنه سوف ينظر فى الأمر ، ثم تركه قرابة شهرين دون أن يبت فيه برأى قاطع ٠

فى خلال هذه الفترة كان هناك جماعة متضاربة الأفكار تتصارع فى بلاط غرناطة ، فقد بعثت قرطبة برسول من قبلها يستشفع فى اطلاق سراح بعض الأسرى لاسيما ابن عباس ، ومن ناحية أخرى كان أبو الأحوص معن بن صمادح رسول فتى بنى عامر عبد العزيز صاحب بلنسية وصهره يلح على « باديس » بقتل جميع الأسرى بدءا بابن عباس ٠

كان عبد العزيز [صاحب بلنسية] قد بادر الى امتلاك المرية مدعيا أنها تؤول اليه بحق الولاء لأن « زهيرا » كان من موالى أسرته ، وخاف أن يطلق « باديس » سراح ابن عباس ومن معه من الأسرى فيكون فى ذلك حرمانه من السلطان ٠

وتحير باديس لا يدرى أى الطرق يسلك ولمن ينصم ، فقد تنازعه الطمع فى المال والرغبة الملحة فى الثأر ، ثم كانت ليلة ركب فيها ومعه أخوه بلقين للنزهة ، وتحدث اليه فيما عرضه ابن عباس وسأله رأيه ، فذكر له بلقين أنه اذا قبل الفدية واسترد ابن عباس حريته أثار ضده حربا تكلفه أضعاف فديته ، وقال ان الرأى عنده هو أن يبادر الى قتله ٠ ولما فرغ باديس من جولته استقدم اليه أسيره وأقبل يسبه ويلومه على جميع ذنوبه ، وابن عباس قد لزم الصمت حتى يفرغ باديس من تقريعه وسبه ، فلما سكت قال له ابن عباس : « ناشدتك الله أن تريحنى من ألمى » فأجابه باديس « اليوم تستريح » ٠

ولما رأى باديس وجه أسيره الشاحب المقطب وقد أومض ببريق الأمل سكت ساعة من الزمان ثم قال فى ابتسامة صفراء : « أجل يا ابن عباس ، اليوم تستريح من هذا الألم وتنتقل الى ما هو أشد !! » ثم جعل

يراطن أخاه « بلقين » باللسان البربرى الذى يجهله ابن عباس وان أدرك من آخر كلمات باديس أن قد دنت منيته ، فركع على ركبتيه أمام الأمير وتوسل اليه الابقاء على حياته رحمة بنسائه وعياله ، على أن يضاعف له الفدية فيجعلها ستة آلاف مثقال من الذهب العين ٠

أنصت باديس الى ابن عباس وهو صامت لم تنفرج شفتاه عن كلمة ما ، ثم هز مزراقه وقذف به فاغمده في صدر ابن عباس ، وحذا حذوه أخوه بلقين وحاجبه على بن القروى ٠ أما ابن عباس الذى لم يكف عن استدرار رحمة قاتلة فلم يسقط على الأرض الا بعد أن أصـــابته ســـبع عشرة طعنة (١٣) ومات يوم ٢٤ سبتمبر ١٠٣٨ م [= ٢١ ذو الحجة سنة ٤٢٧ هـ] ٠

لم تلبث غرناطة أن علمت بموت ابن عباس الغنى التياه ، فاشتد سرور من بها من المغاربة ، وكان أسعدهم جميعا بالخبر صمويل الذى لم يكن له من عدو كاشح غير « ابن بقنـة » ، وقد هتف هاتف خفى بصمويل أن ابن « بقنة » لن يلبث أن يزول هو الآخر ، وكان اليهود اذ ذاك كالعرب يؤمنون بأن المرء تغشـاه فى نومه روح تكشف له عما سوف يلقاه ، وفى ذات ليلة بينما كان صمويل نائما اذا به يسمع صوتا ينشده ثلاثة أبيات عبرية هذه ترجمتها :

« لقد مات ابن عباس كما مات أصدقاؤه وحلفاؤه ٠

« فالشكر لله والحمد له ٠

أما الوزير الآخر الذى كان يتآمر معه فسوف يهلك عمما قـريب وتسحق دولته ٠

« فما الذى آل اليه جميع ما دبراه » ٠

« وكيف كانت نهاية سوء طويتهما وقوتهما » ٠

« فليتقدس اسم الرب » (١٤) ٠

الفصــل الثــالث

مؤامرة الجرجانى ونهايته

تبدل نظرة الناس الى حكم باديس • مؤامرة أبى الفتوح الجرجانى وكفاءته الفكرية ونشاطه الحربى • تدخله فى الشئون السياسية تدخلا ضارا • تحركه ضـــد ابن عمه باديس وأشبيلية • اضطراره للفرار الى باديس وطلبه العفو عنه • القبض عليه والتنكيل به واهانته الاهانة البالغة • مقتله وأسف الناس عليه •

مؤامرة الجرجانى ونهايته

لم يدر باديس أنه بمهاجمته زهيرا وقتله اياه قد أدى أجل خدمة للمتحالفين الذين اتفقوا على الاعتراف بخلافة المدعى هشام ، ذلك أن عبد العزيز ـ فتى بنى عامر أمير بلنسية الذى أشرنا الى استيلائه على امارته المرية ـ كان فى الواقع عاجزا عن مد يد المساعدة الى حليفه قاضى اشبيلية لاصراره على الانصراف حينذاك الى دفع مجاهد أمير دانية الذى نظر بعين الخوف الشديد الى اتساع أملاك جاره (١) ، أما القاضى فلا أقل من أنه لم يكن هناك ما يخيفه من وقوع الحرب بينه وبين « المرية » ، فاطمأن خاطره غاية الاطمئنان من هذه الناحية ولم يعد يشغل باله سوى التأهب فى الوقت ذاته لقتال البربر بطائفة من أهل غرناطة محاولا دفعهم الى الثورة ٠

كان أكثر أهل غرناطة كارهين لباديس الذى استهل حكمه بما أطمع الناس فى عهده وبث الأمل فى نفوسهم (٢) ، لكنهم ما لبثوا أن تبينوا ما طبع عليه من القسوة والشدة ، وما ركب فى طبعه من اللؤم والخسة ، وما جبل عليه من ميل لسفك الدماء واسرافه فى الشرب دون ما خجل ، فكربهم أمره كربا تحول الى تذمر منه فتآمروا عليه ٠

كان عصب هـذه المؤامرة رجلا مخاطرا اسمه « أبو الفتوح ثابت ابن محمد الجرجانى » الذى ولد فى بقعة نائية عن الأندلس ، وانحدر من أسرة عربية أقامت فى جرجان ، ودرس الأدب والفلسفة والفلك على يد أشهر أساتذة بغداد ، لكنه كان الى جانب علمه فارسا بارعا ومحاربا باسلا ، فكان يقدر الجواد الأصيل ويعجبه المهند البتار أكثر مما تهزه القصيدة الرائعة أو تستهويه المقالة العلمية الدقيقة ، والأرجح أنه قدم الأندلس سنة ١٠١٥ م [= ٤٠٥ هـ] ليجرب بها حظه ، وقضى فترة من الزمن فى بلاط مجاهد أمير دانية ، فكان يتناقش وهذا الأمير فى فنون الأدب ، وانكب على وضع شرحه للرسالة النحوية المعروفة بالجمل ، كما حارب الى جانب أمير « سردانية » وكثيرا ما شغل نفسه بالتفكير فى أعقد المسـائل الفلسفية وفى محاولة الكشف عما يخبئه الغد بين طيـاته بملاحظة النجوم ، ثم رحل بعد ذلك الى سرقسطة مستقر الأمير « منذر »

الذى أولاه فى بادىء الأمر صداقته وعهد اليه بتربية ولده ، الا أنه يتجلى لنا من شهادة صادقة كل الصدق ، ذكرها المؤرخ العربى الذى نعتمد عليه فى هذا البحث أن الزمن كان قد تغير وتغير معه أهلوه ، فقد جاء المنذر ذات يوم وأنبأه باستغنائه عنه وعدم حاجته الى خدماته ، ثم أذن له بمغادرة سرقسطة ، فيمم أبو الفتوح حينذاك وجهه شطر غرناطة واتخذها دار اقامة له ، وشرع يلقى سلسلة من المحاضرات عن الشعر القديم لاسيما المجموعة المعروفة بالحماسة (٣) ، غير أنه قام هنا بعمل آخر ذلك أنه عرف أن أعداء باديس كثيرون ، فعمد الى ابن عم الأمير واسمه « يدير » (*) فحرك مطامعه بأن أدخل فى روعه أن النجوم طالعته أن باديس سيفقد العرش ، وان ابن العم « يدير » سيلى الحكم بعده مدة ثلاثين سنة ، وصدق « يدير » ما زعمه أبو الفتوح فراح يعد لمؤامرة ما لبث مخفى أمرها أن ذاع وتناهى الى سمع باديس قبل تنفيذها ، فخاف أبو الفتوح و « يدير » وغيرهما من المتآمرين وبادروا الى طلب النجاة من ثأره وغضبه ، والتمسوا لهم ملجأ عند قاضى أشبيلية الذى لا يشك أحد فى أنه كان شريكهم فى تلك المؤامرة وان يكن من العسير علينا أن نعرف الى أى مدى كان ضالعا معهم ومحركهم عليها (٤) .

فى هذه الأثناء هاجم القاضى محمدا أمير قرمونة وكان جيشه ـ كما هى العادة ـ بقيادة ابنه اسماعيل الذى أحرز انتصارات باهرة ، فاستسلمت له « أشونة » و « استجة » ، بل لقد حاصر « قرمونة » ذاتها ، وضيق الخناق على محمد الذى التمس المعونة من ادريس أمير مالقة ومن باديس [ملك غرناطة] فاستجابا له .

أما ادريس الذى كانت العلة قد الحت عليه فقد أنفذ اليه جنده تحت امرة وزيره « ابن بقنة » ، على حين قدم باديس بنفسه اليه على رأس قواته ، وانضم هذان الجيشان بعضهما الى بعض ، وبادر اسماعيل الى النهوض للحرب اطمئنانا الى كثافة عسكره وشجاعتهم ، ولم يجرؤ باديس وابن بقنة على منازلة اسماعيل ادراكا منهما بتفوقه عليهما فى العدد ، فمالبثا أن غادرا « قرمونة » وتركا أميرها يواجه العدو وحده ويلاقى مصيره ، وسار أحدهما نحو غرناطة ويمم الآخر شطر مالقة .

ولكن اسماعيل أخذ السير فى آثار الغرناطيين ، ومن حسن طالع باديس أنه لم تكن قد انقضت ساعة على انفصاله عن « ابن بقنة » حين بعث اليه رسولا يسأله القدوم لنجدته والا تغلب عليه الأشبيليون فاسرع « ابن بقنة » للوقوف الى جانب باديس ، وانضم الجيشان بعضهما الى بعض قرب « استجة » متحفزين لقتال العدو .

أما الأشبيليون الذين حسبوا أنهم سيهاجمون جيشا ناكصا على

(*) بفتح الياء وتشديد الدال المكسورة بعدها ياء ساكنة ثم راء .

أعقابه فقد فوجئوا بما لم يجر لهم في حسبان ، حين وجدوا أنفسهم يواجهون عسكرين على تمام الأهبة لقتالهم ، فدب اليأس في قلوبهم من جراء تلك المفاجأة غير المتوقعة ، حتى ان الصدمة الأولى كانت كافية لبث الفوضى في صفوفهم ، وحاول إسماعيل أن يحملهم على الثبات في مكانهم وقتال عدوهم لكن ذهبت مساعيه أدراج الرياح ، بل لقد أدت به شجاعته الى أن يكون في طليعة القتلى ، واذ ذاك لم يعد الأشبيليون يرومون غير النجاة (٥) .

أصبح باديس سيد الموقف بعد نصر جد بسيط ، فأقام معسكره على كثب من أبواب « استجة » ، وما كان أعظم دهشته حين أبصر أبا الفتوح يركع عند قدميه وقد دفعه حبه لعائلته الى المخاطرة بنفسه والمجيء الى هنا ، فقد اضطر لمغادرة غرناطة على جناح السرعة تاركا زوجته وطفليه بين يدي القدر ، حين تناهى اليه الخبر بأن باديس قد أصدر أمره الى نائبه « قدام » (**) السوداني بالقبض عليهم ، فأنفذ « قدام » أمره وزج بهم في سجن المنكب ، وكان أبو الفتوح كبير الحب لزوجته الأندلسية الجميلة ، شديد الحنان على ولده وابنته ، ولم يكن يحتمل العيش دونهم ، وكان أشد ما أفزعه أن يصب باديس نقمته على هؤلاء الأعزاء فينتقم منهم لجرم أبي الفتوح ، ومن ثم جاء الى باديس يلتمس منه العفو ، وعلى الرغم مما يعرفه في هذا الطاغية من شراسة الطبع والاستبداد الا انه طمع أن يلين قلبه هذه المرة وأن يعفو عنه كما عفا عن ابن عمه « أبي ريش » الذي زل هو الآخر أيضا حين شارك في تدبير المؤامرة ، لذلك جثا أبو الفتوح أمام باديس وقال له : « اتق الله يا سيدي وارع ذمامي » فصاح به باديس وقد رماه بنظرة حقد قاتلة وقال : « ترى بأي وجه جئتني ؟ ما أجرأك على حتفك وأشد اغترارك بسحرك !! . فرقت بيني وبين بني ماكسن ، ثم جئت تخدعني كأنك لم تصنع شيئا !! » .

فأجابه : « ارحم غربتي وسوء مقامي ، ولا تلزمني ذنب ابن عمك فمالي سبب فيه ، وما حملني على الفرار الا الخوف على نفسي لسابق خلطته ، ولقد لفظتني البلاد اليك مقرا بما لم أجنه رغبة في صفحك ، فافعل فعل الملوك الذين يجلون عن الحقد على مثلي من الصعاليك » .

فقال باديس : « بل أفعل ما تستحقه ان شاء الله ، انطلق الى غرناطة قدم على حالك والق أهلك وأصلح من شأنك » .

اطمأن خاطر أبي الفتوح حين سمع هذا الكلام الذي لم يدرك في بادىء الأمر مغزاه وما ينطوي عليه من قصد سيء ، وشخص الى غرناطة

(**) بضم القاف وفتح الدال غير المشددة .

في حراسة فارسين ، فلما قاربوها أنفذ « قدام » الأسود الأوامر التى تلقاها من مولاه اذ بعث جماعة من شرطته ألقت القبض على أبى الفتوح وحلقوا له رأسه وأردفوه على بعير ، وجعلوا خلفه عبدا أسود جلدا مفتول الساعدين ظل يصفعه صفعا شديدا ، وطافوا به الطرقات على هذه الصورة ، ثم أودعوه سجنا شديد الضيق شاطره فيه أحد المتآمرين معه ، وهو جندى بربرى أسروه فى وقعة « استجة » ٠

انقضت عدة أيام عاد بعدها باديس الى غرناطة ولم يكن قد قرر شيئا ما حيال أبى الفتوح ، لكن جرى له عكس الذى جرى لابن عباس اذ حال أخوه « بلقين » بينه وبين الفقيه دون أن يعرف أحد سر ميله اليه ، فقد عمل جهده على تبرئة ساحته ، ودافع عنه دفاعا كبيرا حمل باديس على الأحجام فى البت فى أمره بشيء ما حتى لا يغضب أخاه ٠

ثم كان يوم أفرط « بلقين » فيه فى الشراب مثلما كان يحدث كثيرا منه ومن أخيه ، واذ ذاك بعث « باديس » فى طلب أبى الفتوح ورفيقه فلما رآه انهال عليه سبا واهانة ثم قال له :

« لم تغن عنك نجومك يا كذاب !! ٠ ألم تعد أميرك الجاهل بالظفر بى وتملك بلدى ثلاثين سنة ؟ ٠٠ لماذا لم تمعن النظر لنفسك وتحذر ورطتك ؟ ٠٠ قد أباح الله لى دمك !! » فلم يجبه أبو الفتوح بشيء بل اعتصم بالصمت ، لكنه حين رغب فى العودة الى زوجته وولديه الذين يهواهم عمد الى الاستعطاف والكذب ، فلما أيقن ان لا شفاعة ترتجى من هذا الطاغيـة الظالم الغضوب استرد حميته ، وعاودته شجاعته وقـوة شكيمته ، فراح ينظر الى الأرض وقد انفرجت شفتاه عن بسمة ساخرة ، وصمت ساعة من زمان استرد فيها كرامته فأثار هذا المنظر الهادىء الكريم ثائرة باديس ونزت فيه نزوة الغضب فانتصب واقفا واستل حسامة وأغمده فى قلب ضحيته فتلقى أبو الفتوح الضربة القاتلة وهو ثابت الجنان دون أن يئن ، حتى لقد أكبر باديس ذاته شجاعته ، فصاح ــ رغم أنفه ــ صيحة المعجب به ثم التفت الى عبده « برهون » وقال له : « خذ برأسه وارفعها على الخشبة ، أما الجسد فضعه الى جنب عدوى [ابن عباس] حتى تقوم الساعة » ثم التفت الى الجندى وقال له : « تقدم فقد جاءت نوبتك » ٠

اشتد الفزع بالبربرى الذى كلمه باديس وارتجفت أوصاله رعبا ، فجثا على ركبتيه عساه يحمل الأمير على الصفح عن جرمه والابقاء عليه ، الا أن باديس قال له : « أما تستحي يا ابن الفاعلة ٠٠٠ يصبر المعلم الضعيف القلب على الموت مثل هذا الصبر ويملك نفسـه عن كلامه لى

واستعطافى ، وأنت تجزع وطالما عددت نفسك فى أشـــداء الرجال ؟
لا أقال الله مقيلك ! » .

ثم قتله يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٠٣٩ م [٤٣٠ هـ] .

★★★

ودفن أبو الفتوح ــ كما أمر باديس ــ الى جانب ابن عباس ، وحزن الأدباء والحكماء من أهل غرناطة على موته ، أما العـــرب الذين أرغمتهم المقادير على الخضوع لبربرى غريب فكانوا كلما مروا بالناحية التى دفن فيها أبو الفتوح قالوا :

« يا له من قبر جمع أدبا لا كفاء له !! » .

« والبقاء لله سبحانه » (٦) .

الفصل الرابع

اضطراب الأحوال بين الأمراء مرة أخرى

ظهور قوة البربر فى بلاط مالقة • تفاقم شأن الصقالبة فى بلاط غرناطة • وفاة ادريس والنزاع بين ابن بقنة البربرى ونجاء الصقلبى حول من يخلف ادريس • ظهور الأسطول الأفريقى فجأة فى خليج مالقة • خلاص الحكم للحسن بن يحيى وقتله ابن بقنة • مقتل الحسن بن يحيى مسموما بيد زوجته • نجاء الصقلبى يأخذ الحكم فيسكت البربر على كره منهم له • استكناره من الصقالبة ومحاولته التفريق بين البربر ولكنهم يقتلونه ويولون مكانه ادريس بن يحيى الذى أبدى من الضعف ما أحنقهم منه • استخفاف السودان بادريس لطيبته وتمردهم عليه •

تولية محمد ابن عم ادريس وشجاعته • التجاء ادريس الى بربر رندة • الحرب بين باديس ومحمد • وجود أربعة خلفاء فى وقت واحد وكلهم ضعاف لا حول لهم ولا قوة • ملك غرناطة يطرد حمود من مالقة •

اضطراب العلاقات بين أمراء الأندلس

أخذ طاغية غرناطة السفاح في ارتقاء معارج القوة شيئا فشيئا حتى صار زعيم جماعته ، ومع أنه كان لا يزال يعترف بالولاء لبنى حمود الا أنه كان اعترافا اسميا وولاء صوريا وذلك لشدة ضعف أولئك الأمراء الذين كانوا آلة فى أيدى وزرائهم يسيرونهم وفق أهوائهم وحسبما شاءوا ، كما يعمد البعض منهم الى قتل البعض الآخر : بالسيف تارة وبالسم تارة أخرى ، وكانوا لا يفكرون فى مراقبة أتباعهم الأقوياء ، بل يرون أنفسهم سعداء ان أتيح لهم أن يحكموا مالقة وطنجة وسبتة فى شىء من الهدوء الظاهرى .

لكن كان هناك تباين كبير بين بلاطى مالقة وغرناطة ، فلم يكن فى بلاط الأولى سوى البربر أو من يعملون دائما لما فيه مصلحة البربر أمثال صمويل اليهودى ، ومن ثم كانت تسود هذا البلاط وحدة تامة فى الأفكار والأساليب .

أما بلاط غرناطة فكان على العكس من ذلك يزخر بالصقالبة الذين كان لابد من سقوطهم أن آجلا أو عاجلا لما كانوا عليه من التحاسد والتنافر والتنافس مما أدى الى سقوط الأمويين .

كان الخليفة ادريس الأول طريح الفراش حين بعث قواته لقتال الاشبيليين ، ثم أسلم الروح بعد يومين من تسلمه رأس اسماعيل المقتول فى وقعه « استجة » ، الا أن النضال ما لبث أن نشب بين ابن بقنة الوزير البربرى وبين نجاء الوزير الصقلبى ، اذ أراد الأول أن يسوف العرش الى يحيى بن ادريس البكر حتى يتمكن من أن ينفرد وحده بالسلطة والاستبداد بها دون شريك ، فعارضه الصقلبى الذى كان عامل الخليفة على بر العدوة بافريقية ونادى فيها بشعار الخليفة حسن بن يحيى ابن عم يحيى بن ادريس وتأهب لعبور المضيق .

كان ابن بقنة ضعيف الشخصية ، جبانا رعديدا ، ومن ثم أذعن لتهديد الصقلبى ، وكان تردده الدائم يجعله يميل تارة للاستمرار فى مشروعه ، وتارة أخرى للرجوع عنه ، وأدى ذلك الى اهماله الاستعدادات لأى طارىء ، لذلك فوجىء ذات يوم بالأسطول الافريقى يرسو فى خليج مالقة فبادر الى الهرب وشخص الى « كمارش » برفقة يحيى بن ادريس ، فلما آل الأمر فى العاصمة الى الحسن بعث الى ابن بقنة يؤمنه ويأذن له بالعودة ، فوثق البربرى بقوله فجاءه فقطع الحسن رأسه ، وهكذا تحققت نبوءة صمويل اليهودى التى رآها فى منامه .

لم يلبث منافس الحسن أن قتل هو الآخر ، وربما كان « نجاء » هو الوحيد المسئول عن هذه الجريمة كما يشهد بذلك جماعة من المؤرخين

(★) كمارش بضم الكاف وفتح الميم وكسر الراء ثم شين .

غير أن الحسن ما لبث أن نال جزاء ما جنت يداه ، اذ دست له السم زوجه وكانت أخت يحيى المقتول .

حينذاك ظن « نجاء » أنه قادر على تولية شخص لا يكون له من السلطان غير الاسم ، ولم يقنع بأن يكون له سلطة الحاكم بل تطلع لأن يتولى الحكم ذاته . ومن ثم عمد الى قتل ابن للحسن كان لا يزال طفلا ، وسجن أخاه ادريسا ، وفرض نفسه ملكا على البربر محاولا استمالتهم اليه بشتى الجهود وتطييبها .

وعلى الرغم من شدة حنق البربر عليه من جراء قحته المفرطة وطمعه الذى دنس توقيرهم العظيم الذى يكاد يبلغ حد الخرافة لمن هو من نسل الرسول [عليه الصلاة والسلام] الا أنهم رأوا أن يتريثوا ترقبا منهم لأول فرصة تسنح لهم للوثوب على « نجاء » ، ومن ثم استجابوا له مظهرين الطاعة والولاء .

حينذاك جاهر « نجاء » برغبته فى المضى الى « الجزيرة الخضراء » بغية انتزاعها من يد حاكمها الحمودى ، وزحف للقتال ، الا أنه لم يكد يلتحم مع الأعداء حتى أدرك أن البربر غير جادين فى القتال وشاهد فتورهم فعرف أنه لا يستطيع الاطمئنان اليهم ، ورأى السلامة فى الأمر بالعودة بعد أن أسر فى نفسه أن ينفى من يخاف غائلته من البربر حال عودته الى العاصمة ، كما عول على اكتساب الباقين منهم الى صفه باغداق المال عليهم ، ورأى أن يبذل غاية وسعه للاكثار من الصقالبة حوله ، الا أن أشد أعدائه كراهية له علموا بما يبيته لهم ، لذلك لم يكد الجيش يمر بأحد الأوعار الشديدة الضيق حتى وثبوا على المغتصب يوم ٥ فبراير ١٠٤٣ م [٤٣٤ هـ] وفتكوا به (١) .

سادت الفوضى صفوف الجيش وتعالت صيحات الفرح من جانب البربر ، بينما أخذ الصقالبة فى التسلل لواذا مخافة أن يلاقوا ما لقيه كبيرهم ، كما انطلق زعيمان من زعماء البربر الى مالقة على جناح السرعة فلما بلغاها صاحا بالناس « البشرى لكم أيها الناس !! البشرى لكم أيها الناس !! لقد قتل الطاغية !! » ووثب الناس على عامله بمالقة [واسمه السطيفى] وقتلوه وأخرجوا ادريس بن يحيى ـ أخا الحسن ـ من مطبقه واستخلفوه عليهم .

حينذاك انتهى دور الصقالبة بمالقة ، وعاد الهدوء الذى لم يقدر له البقاء طويلا .

لا جدال فى أن ادريس لم يكن رجلا عظيما وان كان خيرا جوادا يؤثر

حسن الصنيع ، ولو كان الأمر له وحده دون سواه لما بقي فى مملكته مملق بائس ، فلقد أعاد جميع المنفيين على اختلاف أحزابهم ورد عليهم أملاكهم ، أما عطفه على الشعب الذى كان يؤثر التحدث اليه فكان مما يتنافر تماما مع ما هو مألوف في البلاط من الأبهة والتعاظم والتقاليد ، وقد أدى انتساب الحموديين للرسول [عليه الصلاة والسلام] الى أن أصبحوا فى نظر رعاياهم أنصاف آلهة ، وأراد الحموديون المحافظة على هذا الوهم المتعلق بسلطانهم فلم يكونوا يظهرون للجمهور الا لماما ، وكانوا اذا طلعوا عليه طلعوا محاطين بالأسرار ، حتى ان ادريس نفسه — رغم بساطته — لم يتحرر من التقاليد التى جرى عليها أسلافه من وجود حجاب يحجبه عن عيون محدثيه ، غير أنه كان ينسى فى بعض الأحيان القيام بهذا الدور لما طبع عليه من الطيبة الشخصية ، من ذلك ما حدث ذات يوم من أن شاعرا من أهل لشبونة أنشده قصيدة أطرى فيها كرمه ومجد فيها شرف نبعته وقال فيهـــا :

فكـــأن الشمس لما أشرقت فانثنت عنها عيون الناظرين
وجـــه ادريس بن يحيى بن على بن حمـــود : أمـــير المؤمنـــين
يا بنى أحمد يا خير الـــورى لأبيكم كان وفد المســـلمين
أنظرونا نقتبس من نوركـــم انه من نور رب العالمـــين

فلما سمع الخليفة ذلك قال لحاجبه : « ارفع الستر » وذلك لانه لم يكن ليرد أبدا سؤال سائل ، ومن ثم كان هذا الشاعر أسعد من محبوبة « جوبيتر » الشقية التى راحت ضحية رغبتها الملحة القاتلة ٠

وقد استطاع الشاعر حينذاك أن يسرح طرفه مطمئنا فى وجه مولاه الذى وان لم يشع نورا باهرا الا أنه كان يحمل دليل اليمن والوداعة ، ولعل طلعة الأمير كانت أحسن عند الشاعر مما لو كانت محاطة بهذه الأضواء التى تعشى الأبصار والتى أشار اليها الشاعر فى أبياته ، والواقع أنه لابد وقد انقلب الى داره راضيا أكثر مما لو كان قد أصاب صلة سنية ٠

لكن الأمر الذى يؤسف له هو أن ما طبع عليه ادريس من التناهى فى طيبة القلب واللين أضرا بمكانة الدولة واطمئنانها ، ذلك لأنه كان لا يفكر — أو لا يجرؤ — على رفض طلب أحد ما ، فلو سأله « باديس » أو غيره أن يهبه حصنا من حصونه لاستجاب له فى الحال ، وقد حدث ذات مرة أن طلب منه باديس أن يسلمه وزيره (٢) لأنه كان يتلقف له على حنق ، واذ ذاك قال ادريس لوزيره « ان الصنهاجى يطلبك منى ، ولابد من تسليمك اليه » فأجابه الوزير الفاضل : « افعل ما تؤمر وستجدنى ان شاء الله من الصابرين » ثم رحل الى غرناطة بحيث قطعت رأسه ٠

احنق البربر ضعف ادريس وكرهوا فيه عطفه على الشعب ، ونقموا منه ما نسميه اليوم بميوله الشعبية ، غير أن أشد الناس حنقا عليه هم « السودان » الذين اعتادوا أن يضربوا بالسياط أو يقتلوا بالسيف أو يصلبوا على المشنقة ، لذلك استخفوا بمولاهم الذى لم يأمر قط بقتل أحد ما ، ثم عم الغضب منه حتى قام صاحب قلعة « ايرش » (٣) بالثورة عليه ، فأطلق من أسره سراح ابنى عم ادريس ونادى بأكبرهما محمد خليفة ، وحينذاك تمرد السودان الذين رتبهم لحماية حصن « مالقة » وراسلوا محمدا يطلبون منه أن يوافيهم هو ذاته ليكون بينهم .

* * *

أما أهل « مالقة » الذين كانوا شديدى التعلق بأميرهم المتحنن عليهم فلم يتركوه وحده فى ساعة الخطر بل جرت جموعهم اليه وطلبوا منه أن يمدهم بالسلاح ، مؤكدين له أنهم اذا تدرعوا وتسلحوا لم يبق السودان فى القلعة ساعة من نهار ، فشكرهم ادريس [ابن يحيى بن على بن حمود] على اخلاصهم ، لكنه رفض أن يجيبهم الى ما سألوه اياه قائلا لهم : «الزموا منازلكم ودعونى» ، واذ ذاك استطاع محمد دخول العاصمة وحل ادريس محله فى سجن « ايرش » ، وهكذا قام كل منهما مكان الآخر سنة ١٠٤٦ ـ ١٠٤٧ م [= ٤٣٩ هـ] .



لم يكن الحاكم الجديد على نمط سابقه ، بل شابه أمه وهى مقاتلة باسلة تميل لحياة المعسكرات ومشاهدة استعدادات الحرب وأعمال الحصار ، وكانت تثير حماسة الجند بكلماتها وبسط يدها لهم بالمال . أما محمد فقد بلغ من الشجاعة حدا كبيرا ، لكنه كان فى الوقت ذاته شديد القسوة ، واذا كانت الشجاعة تنقص ادريس [ابن يحيى] فهى أكثر مما يجب أن تكون عليه عند محمد ، وهذا على الأقل فى نظر مؤرخى الثورة ، مثلهم فى ذلك مثل أسطورة الضفادع التى طلبت من جوبيتر ملكا لها ، وشبيه بشعب المستنقع هذا ـ كما يقول لافونتين المبدع ـ جماعة البربر والزنوج الذين سرعان ما تذمروا من ثقل وطأة محمد [بن ادريس] عليهم وراحوا يبكون على سلفه الطيب الهادى .

استعد المتآمرون فيما بينهم للثورة وأخذوا فى مفاوضة حاكم « ايرش » الذى لم يجدوا صعوبة فى ضمه الى صفوفهم ، فرد على ادريس الثانى حريته بعد أن نادى بشعار الخلافة ، وفى هذه المرة لم يمتنع ادريس عن الأخذ بفكرة الحرب الأهلية ، وكان السبب فى ذلك أن اقامته المملة الرتيبة فى السجن لاشت تردده .

غير أن محمدا – وقد عاونته أمه – دافع أعداءه أشد مدافعة حتى أكرههم على القاء السلاح وان لم يسلموا ادريسا الذى عمدوا الى نقله الى افريقية قبل استسلامهم ، حيث دفعوه الى طلبفين بربريين همـــا (٤) « سقوط » حاكم سبتة ، و « رزق الله » حاكم طنجة . فاكرما وفادته وعظما قدره وخاطباه بالخلافة وان لم يسمحا له بشىء من السلطة الحقيقية . بل ان خوفهما على سلطانهما دفعهما للمبالغة فى مراقبته ومنعه من الظهور جهرة ، ولم يدعا أحدا من الناس يصل اليه ، ومع ذلك فقد استطاع جماعة من أعيان البربر – الذين ينقمون فى السر على هذين الحاكمين – أن يجدوا السبيل الى لقائه وقالوا له : « ان هذين العبدين غلبا عليك وحالا بينك وبين أمرك ، فأذن لنا نكفيكهما » ، فرفض طلبهما لما طبع عليه من الرحمة واللين الكبيرين،ودفعته سريرته الطيبة للافضاء بكل ما جرى للوالبين اللذين انزعجا وأمرا بنفي من أشار اليهم ، لكن الظاهر أنهما خافا أن يستجيب ادريس – فى مرة أخرى – الى دسائس الناقمين عليهما فبعثا به الى الأندلس وان لم يكفا عن الخطبة له فى الصلوات العامة ، فاتجه ادريس الى زعيم بربر « رندة » يطلب عنده ملجأ له (٥) ٠

فى هذه الأثناء قام المتذمرون بمالقة يلتمسون المساعدة من باديس الذى بادر الى اعلان الحرب على محمد ، الا أنه ما لبث أن اتفق معه وتمت الموادعة بينهما ، وحينذاك استغاثوا بأمير الجزيرة الخضراء واسمه هو الآخر أيضا محمد [ولكنه محمد بن القاسم بن حمود] ، وقد تسمـــى بالخليفة ٠

بهذا كان هناك فى تلك الحقبة أربعة من الخلفاء فيما بين اسبيلية وسبتة وهم :

هشام الثانى المزعوم باشبيلية ، ومحمد [بن ادريس] بمالقة ، ومحمد [بن القاسم بن حمود] بالجزيرة الخضراء ، ثم ادريس الثانى [وهو بن يحيى بن ادريس] ٠

كان اثنان منهم مجردين فى الواقع من السلطة ٠ أما الآخران فكانا من الأمراء التافهين أو الأقيال ، فكان سوء اصطناع لقب الخلافة أبلغ فى السخرية ، لما كان يدل عليه من أن صاحبه يحكم العالم الاسلامى كله وهو ليس فى شىء قط من ذلك أو بعضـه ٠

وفشـــل محمد [القاســـم بن حمود] أمير الجزيرة الخضراء فى محاولته وتخلى عنه من استغاثوا به ، فسارع بالعودة الى ولايته ، ولم تمض أيام قلائل حتى مات خجلان كسير القلب ، وذلك سنة ١٠٤٨م [٤٤٠ هـ] كذلك ما ان انقضت أربع أو خمس سنوات حتى لفظ محمد [بن ادريس] – أمير مالقة – نفسه الأخير ، فتطلع أحد أبناء عمه – واسمه ادريس الثالث – الى العرش ، لكنه لم يفلح فيما ارتجاه ، فقد أعاد القوم

هذه المرة ادريسا الثانى [بن يحيى بن ادريس] الذى آن للأقدار أن تكف عن اضطهاده ، فظل يحكم البلد فى هدوء حتى وافاه أجله سنة ١٠٥٥ م [= ٤٤٧ هـ] ٠

حينئذ طمع حمودى آخر فى أن يلى العرش مكانه ، لكن فجعه فى آماله باديس صاحب غرناطة ، ذلك لأنه لما كان الزعيم الحقيقى للحزب البربرى فانه كان لا يحب وجود خليفة ما ، ومن ثم عقد العزم على التخلص من بنى حمود وأن يضم مالقة الى أملاكه ٠ ونجح فى تحقيق مشروعه دون أن يجد مقاومة كبيرة ٠

حقيقة ان خضوع العرب له كان عن غير رضا منهم ، الا أنه استطاع أن يستميل اليه أقواهم نفوذا وأعظمهم شكيمة أمثال الوزير القاضى عبد الله (٦) الجذامى ، ومن ثم لم يعد يكترث بتذمر الآخرين ٠

أما البربر الذين تأكدوا من ضعف أمرائهم والذين أدركوا عن حق ضرورة اتحادهم مع اخوانهم بربر غرناطة اذا شاؤوا مقاومة الحزب العربى الذى كانت أملاكه تتسع فى الجنوب الغربى يوما بعد يوم فقد عطفوا على مشاريع باديس ولم يناهضوها ، وبذلك أصبح ملك غرناطة أميرا على مالقة أيضا ، وطرد منها جميع بنى حمود الذين أخذوا يمثلون دورهم بعد ذلك فى العدوة ٠ لكن دورهم فى أسبانيا كان قد انتهى وتلاشى (٧) ٠

الفصل الخامس

ارتقاء المعتضد معارج القوة

المعتضد عباد بن محمد يصبح حاجب هشام الثانى • صفات المعتضد وشمائله • الفرق بينه وبين باديس فى السلم والحرب • دهاء المعتضد ومكره وتدبيره المؤامرات • حيلته لمعرفة أحوال أهل قرمونة وما هم عليه • حقده الأعمى على من يخاصمه ولو كان معوقا حتى بعد موته • قصته مع الفقيه الأعمى حتى بعد هروبه من وجهه •

ارتقاء المعتضد معارج القوة

ألممنا بحوادث مالقة رغبة منا في متابعة تاريخها ، أما الآن فقد آن لنا أن نلقى نظرة عابرة على ما ناله الحزب (العربى) من التقدم فى تلك الفترة ، ومن ثم ينبغى علينا أن نرجع الى الوراء بعض السنوات ٠

مات أبو القاسم محمد [بن اسماعيل] قاضى اشبيلية فى ختام يناير ١٠٤٢ م [= ٤٣٤ هـ] فخلفه ابنه عباد [بن محمد] وكان فى السادسة والعشرين من عمره ولقب بحاجب هشام الثانى ، وعرف فى التاريخ باسم « المعتضد » ، وعلى الرغم من أنه لم يلقب بهذا اللقب الا بعد زمن طويل لكنا نسميه بهذا الاسم تجنبا لما يحدثه تغيير الاسم من الاضطراب ٠

لقد تمكن هذا الزعيم الجديد — الذى قيضه الله للحزب العربى فى الجنوب الغربى — أن يجمع فى ذاته السمات التى لا تكون لمجتمع أشرف على الشيخوخة ، وكان كل ما فى هذا الزعيم يؤهله لأن يكون منافسا خطيرا لباديس زعيم الحزب المعارض له ، وكان المعتضد عباد مثل باديس رجلا شديد الريبة ، ميالا للانتقام ، غدارا ، ظالما فظا ، سفاكا للدماء منكبا على الشراب ، لا يتورع عن الموبقات ، ولم يكن هناك أمير من أمراء ذلك العهد قد اجتمع له ما اجتمع لعباد [بن محمد] من الحريم ، ويؤكد البعض أنه وجد له منهن ثمانمائة جارية (١) ٠

وعلى الرغم مما بين هذين الأميرين من التشابه الا أن كلا منهما كان نقيض الآخر فى الشخصية ، قد تفاوتت أذواقهما ، وتباينت عاداتهما بعضها عن بعض فى كثير من النواحى ، ذلك أن باديس كان رجلا بربريا أو شبه بربرى لا يكترث بالتقاليد ولا يعبأ بالثقافة والحضارة ، ومن ثم خلت أبهاء قصر الحمراء من الشعراء الذين لم يكن من اليسير عليه فهم قصائدهم لتعوده الحديث بالبربرية ٠

أما المعتضد [عباد بن محمد] فكان على العكس من ذلك قد تلقى قسطا من الثقافة والتعليم الرفيع ، وان لم يرق الى مكانة العالم لعدم مداومته النظر فى الكتب ، الا أنه وهب ذوقا عظيما رائعا ، وذاكرة قوية مكناه من أن يتوفر عنده أكثر مما يتوفر للرجل العادى ، ولم تخل قصائده — دون نظر الى قيمتها الأدبية — من فائدة توقفنا على شخصيته ، وقد رفعته هذه القصائد بين معاصريه الى مرتبة الشاعر المبدع (٢) ، وكان محبا للآداب والفنون ، يصل الشعراء بالمطايا الجسام على مديحهم اياه

وان قل ، وكان الى جانب ذلك يتعشق اقامة القصور الفخمة (٣) ، كما كان مسرفا في طغيانه .

اتخذ [عباد بن محمد الملقب] بالمعتضد خليفة بغداد مثلا له يقتدى به ولقب نفسه بلقبه ، ومع انكباب كل من المعتضد وباديس على الشراب الا أن غلظة طبع الأخير كانت تؤدى به الى الاسراف فى الشراب مع الاسفاف شأنه فى ذلك شأن الرجل الجلف أو الجندى السوقى ، بينما يبدو المعتضد رجلا كيسا محافظا على كرامته فلم يؤخذ عليه شىء من هذا القبيل ، بل كان على جانب كبير من حسن الذوق ورقة الشعور حتى فى مجالس شرابه ، وكان هو وندماؤه يرتجلون الخمريات التى تمتاز بالرقة البالغة وطلاوة التعبير ، هذا الى أنه كان يقسم وقته قسمة عادلة بين اللهو والعمل، وقد ينتقل من الانكباب على اللهو الى الانكبـــاب على تصريف أمـــور الدولة (٤) ، ومن أعجب الأمور أن هذا الطاغية الذى كانت نساؤ حريمه الجميلات يضطربن من نظرته المروعة قد نظم فى بعضهن أشعارا تسيل رقة وعذوبة .

كان بين باديس والمعتضد ما بين العربيد البربرى والماجن المتحضر من الفارق ، لكن مهما يكن الأمر فقد كان باديس البربرى أقل من صاحبه دناءة طبع ، اذ لم يكن مسرفا فى جرائمه ، على حين أن المعتضد كان لغزا حتى على خلانه ، فتراه يحاول بنظرته الفاحصة أن يتعرف على دخائل الآخرين وطواياهم الخفية ويدركها ، لكن لم يحدث قط أن عرف أحد ما ينطوى عليه صدره وما يجول بخاطره لجمود وجهه وعدم تغير نبرات صوته (٥) .

ولقد لقى أمير غرناطة حتفه فى ميدان الوغى ، أما صاحب اشبيلية فعلى الرغم من دأبه على شن الحروب وعلى الرغم من أنه لم تكن تعوزه الشجاعة الا أنه لم يقد الجيوش بنفسه غير مرتين أو ثلاث مرات فقط فى حياته كلها ، فقد كان يدير أمـور الحرب وهو مترفه ، جالس فوق أريكته (٦) ، بعيد عن مكابدتها .

كان باديس مسرفا فى مكائده وان كان من اليســـير احباطها ، أما المعتضد فكان يحكم تدبيرها وتنظيمها حتى قل أن اخطأت هدفها ، وتلك ناحية من نواحى عبقريته ، ويروى المؤرخون بشأن هذا الموضوع قصة تستحق الايراد ، فقد حدث فى أثناء محاربته « قرمونة » أن اتصل سرا بأحد سكانها من العرب ، الذى أخذ يفضى اليه بحركات البربر وخططهم ، ومن الطبيعى أن يتخذ المعتضد الحيطة الشديدة حتى لا تقع الرسائل التى يتبادلها هو والعربى فى يد أحد ما وحتى لا يخامر الشك

احدا فيما يجرى ، واتفق المتضد مع جاسوسه العربى على الخطة التى تكون بينهما ، فاستقدم ذات يوم الى قصره رجلا ساذجا كبير الغفلة من فلاحي تلك الناحية وقال له : « خل عنك هذه الثياب واليك هذه الجبة على أن تفعل ما آمرك به » ، فسر الرجل غاية السرور ولبس الجبة دون أن يحدس أن فى جيبها رسالة أراد المعتضد أن يدفعه الى حملها الى رجله بقرمونة ، وتعهد الرجل أن يؤدى باخلاص ما يلقيه اليه الأمير من الأوامر ، واذ ذاك قال له المعتضد : « اخرج الى قرمونة فاذا وصلت بقربها فاجمع حزمة حطب وادخل بها البلد وقف حيث يقف أصحاب الحطب ولا تبعها الا لمن يشتريها منك بخمسة دراهم » ٠

وعلى الرغم من أن الفلاح لم يدرك مطلقا علة تلك الاوامر العجيبة الا أنه أطاعها ثم غادر أشبيلية ، حتى اذا قارب قرمونة أخذ يحتطب ولم يكن من عادته الاحتطاب ، ثم دخل المدينة متأبطا حزمة صغيرة من فروع الشجر ووقف بها على قارعة الطريق ، فمر به رجل ســـأله : « بكم نبيع يا رجل حزمتك هذه ؟ » فقال : « لا أبيعها الا بخمسة دراهم » ، فضحك الرجل منه وقال له : « ما أراك نبيع الأبنوس يا هذا » ، فقال آخر كان يسمع ما قيل ويرى ما جرى : « بل انه ليبيع العود الهندى » ، وراح الناس يسخرون منه ويتضاحكون عليه ، وكاد النهار أن ينقضى حين قدم عليه رجل لم يكن سوى جاسوس المعتضد وسأله عن الثمن الذى يطلبه فيها فاشتراها منه بما قال ، ثم قال له : « قد اشتريتها فاحملها الى البيت ، وسوف أدلك على الطريق » ٠ فلما بلغا الدار ألقى الفلاح بما يحمل وأخذ دراهمه الخمسة ، حتى اذا هم بالانصراف سأله رب البيت أين تريد الذهاب فى هذا الوقت من الليل ؟ ، فأجابه : « أرحل فاست من أهل هذا البلد » ، فقال صاحب الدار : « أما علمت خوف الطريق ؟ ٠٠٠ بت الليلة عندى وتناول عشاءك ، فاذا أصبحت رجعت الى منزلك !! » ٠٠

فاستجاب له الرجل شاكرا يده عليه ، وأنساه الطعام الجيد ما عاناه من سخرية القوم به ، حتى إذا شبع سأله رب البيت « من أين أنت ؟ » ، فقال له « أنا من بادية أشبيلية » ٠ فسأله : « يا أخى ما جاء بك الى هذا الموضع وقد علمت نكد البربر وشؤمهم وهوان الدماء عليهم ؟ » ٠

فقال : « حملتنى على ذلك الحاجة ، وماذا يدعوهم للتعرض بسوء لرجل تافه الشأن مثلى ؟ » وراحا يتحدثان حتى أحس الفلاح بالنوم يقهره ، واذ ذاك سار به مضيفه الى المكان الذى أعده له ، وأراد الضيف أن ينام دون أن يخلع ملابسه الا أن القرمونى قال له : « اخلع عنك فهذا أهنأ لنومك وأروح لجسمك » ٠

فخلع الرجل جبته وسرعان ما استغرق في النوم .

حينئذ أخذ الجاسوس الجبة ففتق بطانتها حيث وجد كتاب المعتضد اليه فقرأه وكتب رده في لحظته وجعله مكان كتاب الأمير ، ثم أعاد الجبة الى حيث وضعها الفلاح الذي بكر في الاستيقاظ ولبسها شاكرا للقرمونى حسن كرمه ، ثم انصرف عائدا الى اشبيلية ، فلما دخلها وقف أمام المعتضد وقص عليه خبره ، فقال له الأمير وقد تهدج صوته فرحا : « اخلع تلك الجبة واليك ثوبا جيدا » .

شعر الرجل بالفرح الشديد وأخذ ما خلعه عليه الأمير وراح يقص في ازدهاء على أصحابه وجيرانه ومن يعرفهم أن الأمير شرفه بما يشرف به ذوى المكانة وكبار عماله ، ولم يدر الرجل أن الأمير اتخذ منه ساعيا عجيبا يحمل الرسائل التي كانت لابد وأن تؤدى الى قتله لو أنه وقع في يد البربر ووقفوا على أمره (٧) .

★★★

كان أمير أشبيلية [المعتضد عباد بن محمد] واسع الحيلة ، ناجح الوسائل في فنون الحرب وشتى ضروب المكائد ، وكان جم التدابير ، مسرفا في التفنن في الكيد لمن يثير غضبه ، حتى لقد حدث ذات مرة أن هرب منه رجل الى قطر آخر وذهب الى أقصى الأرض فلم ينجه ذلك من انتقام الأمير المعتضد ، ويروون في ذلك أنه وضع يده على أموال رجل أعمى ثم ذهب بباقي ماله حتى افتقر ، فمضى الرجل الى مكة يلتمس فيها العيش بالتسول ، ودأب في الدعاء جهرا على هذا الطاغية الذى اضطره الى سؤال الناس ، فلما علم المعتضد بخبره استقدم اليه رجلا من مواليه كان ذاهبا الى الحج وناوله حقا فيه دنانير طلاها بالسم الناقع وقال له : « لا تفتح هذا الحق حتى تدفعه الى فلان الأعمى ، وسلم عليه عنا » ، فوعد الرجل بتنفيذ هذه الأوامر ومضى في سبيله ، فلما بلغ مكة لقي الكفيف وقال له : « هذا من عند المعتضد » .

فقـــال الرجل : « كيف يظلمني بأشـــبيلية ويتصـــدق على بالحجـــاز ؟ » .

فقال الحاج : « لعله أنكر ما فعله معك فخذ اليك ما بعثه » .

فقال له الأعمى : « جوزيت خيرا واشكر للأمير يده » .

ثم أخذ المال وأسرع الى كوخه الحقير ، ثم اغلق بابه عليه وشرع يعالج فتح الحق .

لم يكن من هناك هو أعظم نشوة وسرورا من هذا البائس الذى ظل

يصارع المتربة زمنا طويلا حين وجد نفسه فجأة وعلى غير انتظار رجلا موفور الثراء ، ولولا عمى عينيه لمتع ناظريه بهذه الحفنة من الذهب ولافتتن ببريق تلك النقود ، غير أن ذهاب بصره حرمه لذة التمتع بذلك ، فقامت حاستا اللمس والسمع عنده مقام حاسة البصر ، واستبدت به الفرحة فأخذ يتحسس دنانيره ويتسمع رنينها ، ويعدها بين آونة واخرى ، ويضعها فى فمه ويتذوقها ، فسرى السم الناقع في دمه ، ولم يأت المساء حتى كان جثة هامدة (٨) ٠

لقد كان باديس والمعتضد رجلين فظين غليظى القلب ، ولكن فظاظة أحدهما كانت تختلف عن فظاظة الآخر ، فبينما نرى الأول يكثر فى نوبات غضبه الأحمق من قتل ضحاياه بيده،اذا بنا نرى المعتضد قل أن يجور على مهمة جلاده ، ومع أنه لا يحب تلطيخ يديه بالدماء الا أن حقده كان حقدا لا يهدأ سعيره ، وهو أشد تأججا مما فى نفس خصمه عليه ٠

كان باديس اذا مات عدوه هدأت شرة نفسه وقنع بما كان ، وعمد الى رفع رأس القتيل على خشبة كما جرت العادة ، ثم لا يذهب الى ما هو أبعد من ذلك ، أما أمير أشبيلية فكان على النقيض منه لا تسل سخيمته أبدا ولا تتألف نفرته قط ، بل انه ليتتبع ضحاياه حتى بعد قتلهم ، ولا يمل رؤية بقاياهم ارضاء لعواطفه الوحشية ٠

ولقد شابه الخليفة المهدى اذ كان يغرس الأزهار فى جماجم قتلاه ، ويضعها فى درج قصره ومسالكه ، ويعلق بكل أذن رقعة تحمل اسم صاحبها ، وكان يشعر بالفرحة على حد قوله كلما سار فى تلك الحديقة التى لم تكن تحتوى الا على أغلى الرؤوس ألا وهى رؤوس الأمراء الذين تغلب عليهم وقهرهم ، بل كان يبالغ فى المحافظة على أمثال هذه الرؤوس فى خزانة داخل قصره (٩) ٠

على أن هذا الوحش القاتل كان يعد نفسه أعدل الناس ، وكأنه « تيتس » جاء لاسعاد النوع الانسانى فقال فى احدى قصائده :

فلو أردت الـهى بالورى حســـنا	فملكنى زمام العرب والعجـــم
فانى لاعدلت الدهر عن حســـن	ولا عدلت بهم عن أكرم الشـــيم
أقارع الدهر عنهم كل ذى كلب	وأطرد الدهر عنهم كل ذى عرم(١٠)

الفصل السادس

استفحال أمر المعتضد حربيا

تخوف المعتضد من بربر قرمونة على عرشه • حقده على اسحق ابن محمد بن عبد الله أميرها • حركاته العدوانى على مرتولة ولبلة تؤدى الى تحالف ضده • افساده فى نواحى بطليوس فى غياب صاحبها • هزيمة المظفر بسبب رعونته • الصلح بين المظفر والمعتضد بفضل مساعى ابن جهور • انصراف المعتضد الى مضايقة لبلة وولبة وشلب • وعهده بالأخيرة الى ولده المعتمد ابن عباد • زيارته الفجائية لمورور وافساد كبار بربرها بالرشاوى • وقوفه على مؤامرة يدبرها بربر رندة وهو نائم عندهم فيعرفها فيكتم علمه بها • البربر يدبرون هذه المؤامرة ولكن يسفهها ابن أبى قرة من الناحية الأخلاقية •

المعتضد يدبر مؤامرة ضدهم ويغتالهم وهم ضيوفه ولا يستثنى منهم سوى ابن أبى قرة ويستبقيه عنده مكرما • سقوط رندة فى يد المعتضد •

استفحال امر المعتضد حربيا

بعد أن فرغ المعتضد من قتل حبيب وزير أبيه وموضع ثقته (١) شرع فى محاربة البربر لاسيما جيرانه بربر قرمونة ، وكان عنده من المبررات ما يدفعه للحقد عليهم ، فقد كان كبير الاعتقاد بأنهم لابد أن يسلبوا العرش منه أو من أولاده من بعده ان لم يبادر هو الى الوثوب عليهم والتخلص منهم ، وقد تنبأ له المنجمون أن زوال ملكه سوف يكون على أيدى جماعة من الوافدين (٢) على شبه الجزيرة ، ومن ثم بذل قصارى جهده لاستئصال شأفتهم فحاربهم حربا دامت زمنا طويلا ، فقتل محمد [بن عبد الله] ــ أمير قرمونة ــ سنة ١٠٤٢ ــ ١٠٤٣ م [٤٣٣ هـ] بعد أن استدرجه رجال المعتضد الى كمين نصبوه له (٣) ٠

لكن ذلك لم يذهب بالكراهية التى ظلت فى صدره باقية قوية فتحركت ضد ابنه اسحق (٤) ٠

على أن المعتضد قام فى الوقت ذاته بمد حدوده غربا حيث انتزع فى سنة ١٠٤٧ م [= ٤٣٨ هـ] « مرتولة » من ابن طيفور (٥) ، ثم ثنى بمهاجمة صاحب « لبلة » ابن يحيى الذى لم يكن بربريا بل عربيا ، بل ما كان للمعتضد أن يعبأ بوشيجة النبعة هذه طالما هو يسعى لمد حدوده وتوسيع رقعة أرضه ، مما دفع ابن يحيى لعبور المضيق والقاء نفسه فى أحضان البربر ، فنهض « المظفر » أمير « بطليوس » لمعاونته وصد المعتضد وكون حزبا قويا ضده ،وانضم اليه باديس ومحمد صاحب مالقه ومحمد أمير الجزيرة الخضراء ومن ثم قام أبو الوليد [محمد] بن جهور الذى خلف أباه سنة ١٠٤٣ م [= ٤٣٥ هـ] كرئيس لحكومة قرطبة وبذل قصارى جهده لتقريب شقة الخلاف بين الفريقين ، لكن ذهبت كل جهوده ادراج الرياح اذ لم يصغ أحد لسفرائه ٠

اتفق البربر فيما بينهم على الزحف على أشبيلية حالما تتجمع قواتهم ــ ويتصل بعضها ببعض ، الا أن المعتضد حال بينهم وبين ما يعترمونه فقد اغتنم فرصة غياب المظفر [محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة] الذى لم تكن لديه قوة كافية للدفاع عن مملكته (٦) فعاث فى نواحى «بطليوس» ، ثم تولى بنفسه قيادة جيشه على غير عادته ، وزحف على « لبلة » وهاجم

الأعداء عند ممر قريب من أبواب المدينة وردهم على أعقابهم الى « ريو تنتو »، بيد أن المظفر نجح فى جمع رجاله ودفعهم للقتال وأرغم المعتضد على الارتداد ·

اتصل المظفر بعدئذ بحلفائه ، لكن بينما كان هو واياهم آخذين فى العيث بالتدمير فى الاقليم الشمالى انفصل يحيى عنهم ، وأرغمه المعتضد على التحالف معه ، فعاقبه المظفر بالحوطة على الأموال التى كان قد عهد بها اليه ، وشرع فى نهب اقليم « لبلة » (٧) ، واذ ذاك استصرخ ابن يحيى بالمعتضد الذى هاجم قوات « بطليوس » ودفعها الى كسين رصده لها وأنزل بها الهزيمة ، ولم يكتف بهذا النصر بل أرسل ابنه اسماعيل فخرب ارباض « يابرة » ·

وأراد ملك بطليوس دفع هذا الهجوم فأمر أن يحمل السلاح كل قادر على حمله ، وجاءته نجدة من حليفه اسحق صاحب قرمونة وخرج بها لمقاتلة العدو ، ونصحه بربر قرمونة أن يرجع عما هو بسبيله لكنه جعل كلامهم دبر أذنه ، فقالوا له : « لا تلقهم فلست تعرف قدر من زحف نحوك ، ونحن رأيناهم وسمعنا بجمعهم بأشبيلية » · فلم يستمع المظفر الغضوب الى كلامهم ومضى فى طريقه ، وقد كلفته جرأته ثمنا غاليا اذ منى بهزيمة ساحقة ، وفقد مالا يقل عن ثلاثة آلاف فارس من رجاله ، وكان من بين القتلى ابن أمير قرمونة الذى تولى قيادة عسكر أبيه وقد حملت رأس هذا الشاب الأمير الى المعتضد الذى وضعها الى جانب رأس جده ·

وقدر لبطليوس أن تبقى زمنا غير قصير مسرحا لأحداث ضخمة حيث أغلقت الحوانيت وأقفرت الطرق من السابلة وهلك نخبة أهلها فى هذه الوقعة المبيدة (٨) · وأراد الاشبيليون أن يبلغ النكد غايته فدأبوا على اتلاف المحاصيل حتى تهلك المجاعة المملكة · ووقف المظفر [محمد بن عبد الله] مكتوف اليدين ، فقد تخلى عنه حلفاؤه الذين توسل اليهم أن يجيئوا لمساعدته فلم يستجيبوا له ·وقضى عليه أن يبقى ببطليوس ساكنا لا يستطيع القيام بعمل ما ، تقله الرعدة ويقطع أنامله غيظا ، ومع ذلك لم تفارقه كبرياؤه فلم يشأ أن يقبل الصلح على الرغم من أن أعداءه المنتصرين لم يرفضوا توسط ابن جهور ، بل تظاهر بعدم اكتراثه بخسائره حتى لقد بعث رجاله لشراء بعض المغنيات من قرطبة وكن نادرات الوجود اذ ذاك ، وبعد طول البحث والتقصى عثروا على اثنتين متوسطتى المواهب ، ولقد عجب الناس بادىء ذى بدء لرعونة ملك بطليوس ، فقد عرفوه رجلا وقورا منصرفا الى الجاد من العمل ، ولم يعهدوا فيه الميل من قبل الى الجوارى ، ولم يفهم القوم سر اقدامه على شراء الفتيات واختياره بالذات هذه اللحظة التى كانت بلاده خلالها مسرحا للخراب الشامل ، غير أن

العجب زال حين أدركوا سر سلوكه هذا ، ذلك أنه علم أن المعتضد اشترى جارية ذائعة الصيت حسنة الغناء حين تناهى الى سمعه خبر بيع مخلفات أحد الوزراء القرطبيين ، لذلك أراد المظفر أن يثبت لعدوه أن فى طاقته الاهتمام بالجوارى ، فقام واشترى هاتين الجاريتين ٠

غير أن ابن جهور دأب على اصلاح ذات البين ، وقدر لمجهوداته أن تكلل بالنجاح فى شهر يوليو ١٠٥١ م [= ٤٤٤ هـ] اذ توصل المظفر والمعتضد حينذاك وبفضل وساطته الى عقد الصلح فيما بينهما بعد مفاوضة طال أمدها (٩) ٠

حينئذ جيش المعتضد جميع قواته ضد ابن يحيى صاحب لبلة الذى كان قد أذعن لمطالبه من قبل ، ولم ير المعتضد فى هذه الحملة الا نزهة حربية ، ولما كان ابن يحيى يدرك تمام الادراك ضعف ما تحت يده من العسكر فانه لم يحاول الدفاع عن نفسه ، بل شخص الى مدينة قرطبة قاصدا أن يمضى بها بقية أيام حياته ، كما بعث المعتضد اليه بكتيبة (١٠) لحراســـته ٠

***

أما الأمير الذى كان يحكم فى تلك الأثناء فى « ولبة » وجزيرة « شلطيش » الصغيرة واسمه [عز الدولة] « عبد العزيز البكرى » [٤٠٣ ـ ٤٤٤ م] فقد أدرك أن قد حان دوره لكنه كان لايزال يطمع فى انقاذ شىء ما ، ومن ثم بادر الى مكاتبة المعتضد مهنئا اياه بفتحه الجديد ، ومذكرا اياه بالعلاقات الودية التى كانت على الدوام بين أسرته وأسرة بنى عباد ، وأعلن تبعيته له ، وتنازله له عن « ولبة » على أن يترك له جزيرة شلطيش ، فقبل المعتضد عرضه وتظاهر برغبته فى مفاوضته وجها لوجه ، ثم سار الى ولبة فرأى عبد العزيز البكرى أن الصواب يقتضيه ألا ينتظره فانتقل بأمواله الى شلطيش ، فلما اســتولى المعتضد على « ولبة » انكفأ راجعا الى أشبيلية ، الا أنه ترك بولبة أحد قواده ، وكانت مهمته منع [عز الدولة] عبد العزيز من مغادرة جزيرته ، والحيلولة دون وصول أحد ما اليه ، فلما سمع عبد العزيز بذلك اتبع أقوم سبيل فأخذ فى مفاوضة قائد المعتضد وباع لأمير أشبيلية مراكبه وعدده الحربية بعشرة آلاف دينار ، وحصل على الأذن لنفسه بالمضى الى قرطبة ، وأراد المعتضد الخائن أن يستدرجه أثناء رحلته الى شرك نصبه له ليستولى على ما معه من الأموال ، الا أن البكرى أفسد عليه خطته وطلب من أمير « قرمونة » جماعة من الحرس استطاع بهم الوصول الى قرطبة سالما (١١) ٠

أخذ المعتضد بعد ذلك فى مهاجمة ولاية « شلب » الصغيرة التى تحكمها جماعة من العرب هم بنو مزين (*) الذين كانت أملاك أسلافهم تمتد

(*) بضم الميم وفتح الزاى بعدها ياء ساكنة ثم نون ٠

في تلك النواحى من شبه الجزيرة ، والذين شغلوا الوظائف الكبرى زمن الأمويين (١٢) ٠

آثر أمير سلب الموت على الحياة فاستبسل غاية الاستبسال في الدفاع عنها ، الا أن الجيس الاشبيلى تمكن أخيرا من الاستيلاء عليها ، وكان هذا الجيش بقيادة محمد بن المعتضد ، ولم تكن قيادته اياه الا اسمية اذ لم يكن ليتجاوز اذ ذاك الثالثة (١٣) عشر من عمره ، وكان ابن مزين قد بذل جهده حتى يموت في ساحة الوغى الا أن المعتضد أبقى عليه وقنع بنفيه (١٤) ٠

حينذاك عهد المعتضد بحكومة « شلب » الى ولده [المعتمد] محمد بن [عباد] ، ثم سير جيشه للزحف على بلدة « شنتمرية » الواقعة قرب الرأس الذى لايزال يعرف الى اليوم برأس شنت مرية ، وكان الخليفة سليمان قد أقطعها الى رجل اسمه « سعيد بن هرون » من « ماردة » لا يدرى أحد أصله ، فليس هو بالعربى وليس هو بالبربرى . والأرجح أنه من أصل أسبانى لأن الرجال المجهولين عند المؤرخين العرب انما هم فى العادة من الأسبان ، فلما مات سليمان أعلن سعيد بن هرون استقلاله بشنت مرية ، ثم خلفه فيها بعد موته ابنه محمد [بن سعيد المعتصم] الذى هاجمه الاشبيليون فلم يصمد طويلا أمام هجمانهم ، واستولى المعتضد على الناحية الممتدة من شنت مرية الى شلب وأراد أن يحكمهما معا ابنه محمد (١٥) [المعتمد بن عباد] سنة ١٠٥٢ م [= ٤٤٤] ٠

أدت هذه الفتوحات السريعة الى اتساع رقعة أملاك صاحب اشبيلية اتساعا عظيما فى الناحية الغربية ، على حين كانت فتوحاته فى القسم الجنوبى الواقع تحت حكم أمراء البربر ضئيلة نسبيا ذلك لأن أغلب أولئك الأمراء كانوا لا يزالون على وفاق مع المعتضد والاعتراف بسلطانه ، أو على الأصح بسلطان المدعو هشام الثانى ، غير أن المعتضد لم يقنع بما تم له ، بل كان همه تمزيق أوصال أولئك الأمراء والاستيلاء على ما بيدهم من الولايات ، لكنه أخذ نفسه بسياسة التمهل والتريث والحذر ، ونهج نهجا اتسم بالاعتدال ، فلم يشأ أن يخاطر بنفسه في محاولة صعبة الا بعد أن يستتب له الأمر فى النواحى التى تم له فتحها ٠

***

بعد أن تم للمعتضد الاستيلاء على « شلب » استصحب معه خادمين ورحل بهما لزيارة اثنين من أتباعه هما : « محمد » ابن نوح صاحب « مورور » ، و « هلال بن أبى قرة » أمير « رندة » دون أن ينبئهما من قبل بزيارته ، ولقد يعجب الانسان حقا حين يرى أنه لم يكن من العقل ولا الصواب أن يضع المعتضد نفسه تحت رحمة أولئك البربر مع ما يضمرونه

له من المقت الشديد ، لكن الواقع هو أنه لم تكن تنقصه الجرأة ، وانه كان يثق بصدق عهود غيره ، رغم ما طبع عليه هو نفسه من الغدر بجميع الناس وعدم وفائه بما يقطع لهم من عهود .

وصدق ظنه فقد لقي أحسن استقبال في « مورور » ، ولم يخف « ابن نوح » فرحه بهذه الزيارة غير المتوقعة ، فبالغ في اقامة الولائم له ، وعاد يؤكد من جديد بقاءه على الولاء والطاعة ، غير أن المعتضد لم يكن قد حضر ليسمع الثناء عليه أو ليرى الترحيب به ، لكنه جاء من أجل غرض آخر ، ذلك أنه أراد أن يسبر غور القوم في الميل اليه ، وأن يكتسب الى جانبه - ان أمكن - فريقا من ذوى النفوذ ، وأدرك في يسر أن السكان العرب يتحرقون شوقا للتخلص من نير البربر ورأى أنه مستطيع الاعتماد على معونتهم اذا جد الجد وتعقدت الأمور ، وقد تمكن المعتضد بفضل ما حمله خادميه من الأحجار الكريمة والمال أن يفسد كثيرا من الضباط البربر على رؤسائهم دون أن يحدس [محمد] بن نوح بمكائده .

رضى المعتضد كل الرضى بما تمخضت عنه هذه الزيارة من النتائج ، ثم تابع رحلته الى « رندة » حيث قوبل فيها بنفس الاستقبال الكريم والروح الطيبة التى قوبل بها في « مورور » ، ونجحت وسائله السرية هنا أيضا ، بل ربما كان نجاحها هنا أعظم ، ذلك لأن عرب « رندة » كانوا أكثر تطلعا من عرب « مورور » للتحرر من حكم البربر .

والظاهر أن بنى أبى قرة كانوا أقسى من بنى نوح ، ومن ثم نصب المعتضد شباك مؤامرة واسعة النطاق لا تلبث أن تنفجر عند أول اشارة ، فقد حدث في ختام احدى الولائم - وقد استبدت الخمر بالرؤوس أن أحس المعتضد بحاجته الى النوم فأبداها لمضيفه فقال له أبو قرة : « افعل ما بدى لك يا مولاى » ثم سجاه على الفراش .

ومضى بعض ساعة ظن القوم أن المعتضد قد استغرق في سباته ، وما كان الأمر كما ظنوا فقد كان متظاهرا بالنوم واذ ذاك نهض أحد شيوخ البربر وسأل عشيرته أن ينصتوا اليه برهة فان عنده خبرا هاما ، فأنصتوا اليه فقال لهم بصوت منخفض : « هذا كبش سمين حصل لكم ، والله لو أنفقتم ملك الأندلس عليه ما قدرتم على حصوله في أيديكم ، وهو شيطان الأندلس ، واذا قتل خلصت لكم البلاد » ، فلم يجيبوه ولاذوا كلهم بالصمت كأن على رؤوسهم الطير واكتفوا بتبادل النظرات ، وكانت فكرة قتل هذا الرجل الذى يخشاه الجميع ويمقتونه ويعرفون أساليبه الملتوية ترضى كل الرضى أولئك الرجال الذين ألفوا جميع ضروب الجرائم منذ صغرهم ولم تظهر على قسمات وجوههم السمراء دلائل الدهشة أو

الامتعاض ، الا أن رجلا من بينهم ـ كان أصدق منهم وفاء ـ سعر بهياج دمه حين فكر في ضخامة الخيانة الدنيئة التي هم مقدمون عليها ، ذلك هو « معاذ بن أبي قرة » أحد أقارب أمير رندة ، فاتقدت عيناه غضبا وهب واقفا وقال لهم في صوت خافت وان يكن قوى النبرات :

« لا فعلنا هذا ولا رضينا به ! » ·

« رجل قصدنا ونزل بنا ولو علم أنا نرضى فيه بقبيح لما أتانا مستأمنا الينـــا » ·

« كيف تتحدث عنا القبائل أننا قتلنا ضيفنا وخفرنا ذمتنا ؟ » ·

« فعلى من يرضى هذا لعنة الله » ·

أثر هذا القول الكريم في نفوس البربر وحرك معاد « بن أبي قرة » فيهم الشعور بما تقتضيه واجبات الضيافة ، فكأنه بذلك مس من قلوبهم وترا من العبث أن يتلاشى عند شعوب آسيا وافريقية ·

كان المعتضد في تمام اليقظة وان تظاهر بالنوم ، فسمع كل الذى قالوه وهو مكروب أشد الكرب ، الا أن كلام معاذ فيهم رد عليه جأشه وطمأن خاطـره ، فتظـاهر بالاستيقاظ وانضـم اليهم في مجلسـهم ، فبادروا جميعا للوقوف له مجددين السلام عليه والتلطف اليه ، وقبلوه ، وراحوا يتملقونه كأنما وخزتهم ضمائرهم ، ولعلهم أخذوا يلومون أنفسهم سرا على أن خطرت ببالهم فكرة اغتيال ضيفهم حين قال لهم الأمير :

« ما حملت معي من الخلع غير القليل ، فأتوني بدواة وقرطاس ، وليكن لكل منكم خلع ودنانير وأفراس وعبيد وجوارى » ·

فلبوا مشيئة الأمير الذى ما كاد يبلغ أشبيلية حتى توافدت عليه رسـل البربر زرافات بعضـها في أثر بعض ، ثم عادوا من عنده الى « رندة » محملين بالهدايا الرائعة ·

وتوثقت عرى المودة بين المعتضد والبربر منذ ذلك الحين ، وسحب النسيان ذيوله على ما كان بين الجانبين من أحن وأحقاد ، وحل محل ذلك كله رباط وثيق من المودة التى لا انفصام لها ، وتمكنت بين الطرفين وشائج المحبة والصداقة العظيمة القلبية ، حتى اذا انقضى نصف عام على زيارة المعتضد لرندة ومورور كتب الى شيوخهما يدعوهم الى وليمة كبرى يقيمها خصيصا لهم زاعما أنه يريد اظهار شكره لهم جميعا على جميل لقائهم اياه ، كما بعث في دعوة ابن خزرون البربرى صاحب أركش وشريش ، وسرعان ما وصل الأمراء الثلاثة الى أشبيلية سنة ١٠٥٣ م [= ٤٤٥ هـ]

فبالغ فى اكرامهم غاية الاكرام و « طيب لهم ولمن معهم الحمام » كما جرت العادة ، الا أنه احتال فأبقى معاذا الشاب الى جواره ٠

ودخل الحمام ما يقرب من ستين بربريا فلما نضوا ما عليهم من الثياب فى الحجرة الأولى دلفوا الى الثانية وهى الحمام ذاته ، وكان كمثيله اليوم (*) فى البلدان الاسلامية مبنيا من الحجارة ومغطى بالرخام ، تعلوه قبة بها فتحات على شكل نجوم عليهـا زجاج خشن غير مصقول وتمتد القنوات من الرخام بعضها الى جانب بعض وتخرج من الجدران أنابيب تتصل بمراجل تجعل درجة الحرارة شديدة الارتفاع ٠

بينما كان البربر ينعمون بلذة الاستحمام سمعوا شبه حركة كأنها صادرة من بنائين يقومون بالبناء فلم يلقوا الى ذلك بالا فى بادىء الأمر ، الا أن الحرارة اشتدت حتى أصبحت لا تطاق فعالجوا فتح الباب لكن ما كان أشد فزعهم حين وجدوه قد سور من الخارج وأغلقت عليهم جميع منافذ الهواء فاختنقوا جميعا وهلكوا حيث هم (١٧) ٠

طال انتظار معاذ لرفاقه فاشتد قلقه عليهم ، ثم تجاسر على الاستفسار من المعتضد عن سر ابطائهم فى العودة اليه ، فلم يكتمه الأمير الخبر ، ثم قال له وقد لاحظ ما ارتسم على وجهه من امارات الفزع المروع :

« لا يرعك الذى جرى ، فقد حضرت آجالهم » ٠

« لقد أرادوا قتلى ولولاك ما كنت حيا ولا نجوت منهم » ٠

« وانما جعل الله صيانة دمى بك ، فان أردت أن أقاسمك فى جميع ما أنا فيه فعلت » ٠

« وان أحببت الرجوع الى بلدك رددتك على أجمل الوجوه وأحسنها وأسرها » ٠

فرد عليه معاذ فى صوت فيه رنة الأسى العميق : « وبأى وجه ارجع أنا دونهم ؟ » ٠

فقال له المعتضد : « لا عليك ، وابق معى ان شئت » ٠

ثم التفت الى أحد خدمه وقال له :

« أعد للأمير قصرا ، ورتب له ألف دينار وعشرة أفراس وثلاثين جارية وعشرة أعبد » ثم عاد مخاطبا معاذا قائلا له : « ولك كل عام اثنا عشر ألف دينار » ٠

***

(*) كتب هذا منذ قرن تقريبا وقد اندثرت هذه الحمامات اليوم أو كادت ٠ انظر :
Lane : Modern Egyptians

أقام معاذ في أشبيلية يتقلب في مطارف النعيم والبلهنية ، واعتاد المعتضد أن يرسل اليه كل يوم غالى الطرف وأندرها ، كما وكل اليه قيادة احدى كتائب جيشه (١٨) ٠ وكان كلما جمع وزراءه لمشاورتهم في شئون الدولة جعل الصدارة فيهم لمن هو مدين له بحياته ٠

***

وضع المعتضد رؤوس أولئك السادة البربر في خزانة رؤوسه العجيبة التي كان يلذ له التمتع بمشاهدتها ، ثم أنفذ جنده للاستيلاء على «أركش» « ومورور » « وشريش » « ورندة » وغيرها من الأماكن ٠ ولم يجد الجند عناء في تحقيق مهمتهم بفضل مساعدة السكان العرب لهم ، وبفضل معونة الخونة الذين استطاع المعتضد رشوتهم فاشتراهم الى جانبه ، غير أن الاستيلاء على « رندة » ــ التي ولي الحكم فيها « أبو نصر » ــ مكان أبيه المقتول استلزم من العسكر جهدا غير قليل ، وذلك لقيامها على جبل شاهق الارتفاع وحولها المنحدرات التي يصعب اجتيازها ، غير أن العرب تكاتفوا جميعا وقاموا بالثورة على البربر ووثبوا عليهم وفتكوا بهم فتكا ذريعا ، حتى ان أبا نصر ذاته حاول النجاة فلم يفلح ولم يستطع الهرب ذلك أنه في اللحظة التي حاول فيها تسلق السور زلت قدمه ، وتدحرج جثمانه فهوى الى قاع ذلك المنحدر (١٩) ٠

أحس أمير أشبيلية بالفرح الشديد اذ سقطت رندة في يده ، وبادر الى المبالغة في تحصينها تحصينا أعظم مما كانت عليه من قبل ، فلما فرغت أعمال التحصين نهض لمشاهدتها ، فلما وقف أمامها شعر بالطمأنينة تغمره وأنشد (٢٠) :

لقد حصنت يا رنده　　　فصرت لملكنا عده
أفادتناك أرماح　　　وأسياف لها حده
وأجناد أشداء　　　اليهم تنتهى الشده
غدوت يرونني مولى　　　لهم ، وأراهمو عبده
سيفنى مدة الأعداء　　　ان طالت بى المدة
وتبلى بى ضلالتهم　　　ليزداد الهدى جده
نظمت رؤسهم عقدا　　　فحلت لبسة السده

الفصل السابع

انتقام باديس

اضطراب أحوال باديس النفسية · تدبيره خطة للانتقام من العرب ومعارضة صمويل له · متابعة باديس لمؤامراته وتسريب صمويل خبرها للعرب على يد حريم كبار رجال البلد · اضطراب أحوال المهاجرين وهروبهم الى سبتة وموتهم جوعا · مقتل بربر رندة ·

المعتضد يفتح الجزيرة الخضراء · اعلانه موت هشام الثانى · البزليانى يحرك اسماعيل بن المعتضد ضد أبيه ·· نهب اسماعيل قلعة أشبيلية وتفكيره فى العودة للجزيرة الخضراء · المعتضد يفسد على اسماعيل خطته · ويتظاهر باستجابته للحصرى فى العفو عن ابنه اسماعيل · الصراع الخفى بين الوالد والولد · انتشار الثورة بين البربر · هزيمة جيش اشبيلية وغضب المعتضد على ولده المعتمد وضربه المتمردين بيد من حديد ·· موت صمويل وتولى ابنه يوسف مكانه · عنجهية يوسف تؤدى الى غضب العرب والبربر واليهود منه · الصراع بين يوسف بن صمويل وأبى اسحق الألبيرى · مصرع يوسف بن صمويل ·

انتقـام باديس

بينما كان المعتضد ثملا بانتصاراته ، مسلما نفسه الى فورة النشوة كان باديس فريسة اضطراب راح يتزايد يوما بعد يوم تزايدا أفضى به الى أن يمزق ثيابه ، ويسلم نفسه للحزن ويستولى عليه الغضب فيستخرط فى البكاء ، وذلك حين تناهى الى سمعه نبأ النازلة المروعة التى ألمت بأمراء البربر ، وتناهبته الأفكار السوداء ، وأقضه ما علمه من تحرك جميع عرب « رنـدة » بدافـع العامل الوطنى فقاموا كلهم قومة رجل واحـد للفتك بمضطهديهم ، ولم يكن هناك من يفهم « باديس » أن رعيته من العرب لم تتفق مع « عباد » ولم تتآمر معه عليه وعلى عرشه ، وهى الفكرة التى لم تفارقه ليلا ولم تبارحه نهارا ، بل انها أقضت مضجعه حتى بات يهذى ، وكان اذا اشتد به الغضب صاح وسب من حوله ، ثم يستولى الخوف على نفسه وتسود أمامها السبل فيلزم الصمت الممض وتتملكه الكآبة فيصبح كالشجرة التى ضربتها صاعقة ،وكان ذلك مستغربا منه ، ثم يعكف على الشراب .

ودبر « باديس » فى السر مشروعا مروعا ، ذلك أنه رأى أن لن يطمئن له بال مادامت بلاده تزدحم بالعرب ، وخيل اليه أن الفطنة تقتضيه استئصال شأفتهم ، واتفق على أن ينفذ خطته فى يوم الجمعة التالى حين تؤم جموعهم المسجد للصلاة .

ولما كان لا يقضى أمرا دون مشورة وزيره « صمويل » اليهودى فقد أنهى اليه ما انتهى اليه تدبيره ، وان يكن قد أفهمه عزمه القاطع على تنفيذ هذا الأمر سواء رضى « صمويل » عنه أم أنكره .

ولم يدخر اليهودى وسعا فى اظهار ما ينطوى عليه مشروع الأمير « باديس » من الخطر ، وحاول أن يثنيه عنه ويحمله على نبذه ، وساله أن يتدبر الأمر ويتروى فينظر بعين واعية فيما تتمخض عنه هذه الخطة من العواقب قائلا له :

« هبك وصلت الى ارادتك ممن بحضرتك على ما فى استباحتهم من الخطر ، فكيف تقدر على الاحاطة بجميعهم من أهل حضرتك وبســائط أعمـالك ؟ أتراهـم يطمئنون الى الذهول عن مصائبهم والاسـتقرار فى

مواضعهم ؟ ما أراهم الا سيوفا ينتظمون عليك فى جموع يغرقونك فى لججها أنت وجندك ! » .

وعلى الرغم من وجاهة هذه الآراء الا أنها لم تجد استجابة فى نفس « باديس » الذى أصر على مشروعه ، وطلب الى « صمويل » أن يكتم الخبر كأن لم يدر به ، لكنــه فى الوقت ذاتــه أمر باتخاذ جميع الاستعدادات والتاهب ليوم الجمعة الذى اجتمع فيه شمل الجند وهم فى كامل عدتهم وسلاحهم بدعوى القيام بالاستعراض .

الا أن « صمويل » لم يقف ساكنا ، بل أرسل خفية الى شيوخ العرب وكبارهم بعضا من النسوة اللائى يعرفنهم ، ينصحنهم بعدم الذهاب يوم الجمعة الى المسجد للصلاة ، ويشرن عليهم بالبقاء فى بيوتهم فى ذلك اليوم . فامتثل الرجال لما أشارت به عليهن النسوة ، فلما كان يوم الجمعة المضروب لم يغش المسجد للصلاة سوى نفر قليل من العامة ، فاحتد باديس غضبا من فشل تدبيره ، واستقدم اليه « صمويل » وعنفه « وقلده البوح بسره الذى ائتمنه عليه » ، فأنكر الوزير ما اتهمه به « باديس » وقال له :

« من أين ينكر على الناس الخبر وأنت قد استركبت جندك وجميع جيشك فى التعبئة ، لا لسفر ذكرته ، ولا لعدو وثب عليك ، فمن هناك حدس القوم على انك تريدهم ، وقد أجمل الله لك الصنع فى نفارهم ، ووقاك شرهم . فأعد نظرك يا سيدى فسوف تحمد عاقبة رأيى وغبطــة نصحى » .

الا أن « باديس » ظل رافضا هذه النصيحة بدافع من سورة غضبه الرعناء حتى جــاءه شيخ من شيوخ البربر فأيــد الأسباب التى ذكرهــا « صمويل » ، واذ ذاك فقط اعترف « باديس » بخطئه (١) ، ولم يعد يفكر منذ ذلك الحين فى استئصال شأفة رعايــاه العرب ، الا أن الحاح الهاربين من « موررو » و « أركش » ، و « رندة » الذين قدموا الى غرناطة التماسا للحياة فيها قد حمله على عقد النية على معاقبة العدو الخائن لبنى جنسه ، ومن ثم خرج لغــزو « أشبيلية » على رأس جنــده ومن عنده من المهاجرين (٢) . وليست لدينا تفاصيل وافية عن هذه الحرب ، لكن كل ما هناك يحمل الانسان على الظن بأنها كانت حربا دامية ، لأن الرغبة فى الانتقام لمقتل البربر كانت تسعر نار الحقــد فى قلوب رفاقهــم ، ولأن الكراهية التى يضمرها العرب ــ من جانب آخر ــ لأهل غرناطة كانت أشد من كراهيتهم للبربر ، اذ كانوا يعدونهم فسقة كفارا ، وأعداء ألداء للدين الاســـلامى لأنهم قبلوا أن يستوزروا يهوديا ، حتى لقد قال أحد الشعراء الأشبيليين فى تهنئة للمعتضد بالنصر (٣) :

شقيت بسيفك أمة لم تعتقد الااليهود وان تسموا بربرا

ومن ثم كان الاشبيليون يعدون محاربة أهل غرناطة جهادا يثابون عليه ، فقاتلوهم أشد قتال حتى أرغموهم على الارتداد ، كما ساءت حال أولئك « المهاجرين » اذ لم يسمح لهم المعتضد بالعودة الى وطنهم ، ولم يقبل « باديس » اقامتهم في غرناطة ، فاضطروا الى عبور المضيق حيث أرسوا على مقربة من « سبتة » ، غير أن أميرها « سكوت » كره وجودهم هناك ، ولما أنكرهم الناس جميعا في وقت كانت المجاعة ابانه تخرب أفريقية فقد عملت فيهم المجاعة عملها وأفنت منهم العدد الجم (٤) ٠

التفت المعتضد بعد ذلك الى محاربة « القاسم الحمودى » أمير الجزيرة الخضراء الذى كان أضعف أمراء البربر ، فلا عجب اذن اذا ما بادر القاسم الى الاستسلام ، طالبا من « المعتضد » الترفق به ، فأذن له « المعتضد » بالاستنزال (٥) الى « قرطبة »وذلك سنة ١٠٥٨ [م٤٥ هـ] ٠

ولما فرغ «المعتضد» من هذا الفتح الجديد رأى ان الوقت قد آن لانزال الستار على الملهاة التى ظل يقوم بتمثيلها حتى ذلك الحين ، وكان فيها مقتفيا خطوات أبيه ، وذلك بأن جاهر فأعلن موت المدعو « هشاما » الثانى وذلك لزوال الدواعى والأسباب التى كانت تحمل أباه على استغلال اسم ذلك السلطان ، ولاعتقاد الجميع اعتقادا جازما باستحالة العودة الى الماضى ، ولايمانهم بأن الخلافة قد انتهت الى غير رجعة ، وقد بددت التجربة كل شك حول هذه المسالة ، ولم تعد هناك جدوى ترتجى من « حصرى » قلعة رباح ، وليس من المستبعد أن يكون الموت قد اختطف منذ سنوات عدة هذا الرجل الذى لم يره أحد قط من الشعب ولا البلاط ، كما أنه لا يستبعد أيضا أن يكون المعتضد قد مل ثواءه عند ومقامه لديه فقتله : وهذا خبر يذهب الى تأكيده رهط من المؤرخين الثقات ، وان كنا لا نستطيع الجزم برأى قاطع فيه ، لأن أمير اشبيلية كان اذا أراد شيئا عرف كيف ينجزه دون أن يعلم أحدا ما شيئا عنه ٠

لذلك قام « المعتضد » فى سنة ١٠٥٩م [٤٥١ هـ] بجمع وجوه سكان عاصمته ، وأعلن اليهم أن الخليفة هشاما قد مات منذ حين بالصرع ، ثم زاد فقال ان الأمور اقتضته اذ ذاك أن يكتم هذا الخبر لانشغاله بحرب جيرانه ٠ أما وقد استقر السلم بينه وبينهم فلا خوف عليه ان هو صرح بموته ، وحينذاك عمد الى دفن جثة «حصرى» قلعة رباح بكل ما يليق به من الاحترام كسلطان وأحاط الدفن بكل مظاهر الأبهة ٠

ولما كان « المعتضد » ذاته حاجبا لهشام فقد صحب الجثة مترجلا دون طيلسان كما نعى موت الخليفة الى جميع حلفائه فى الشرق سائلا

اياهم اخبار عبره . وكان ذلك العمل منه أمرا لم يخطر ببال أحـد منهم بطبيعة الحال . ويقال انه ادعى حينذاك أن الخليفة الراحل استعمله على كل بلاد الأندلس (٦) . ولا مشاحة فى أن المعتضد كان يسعى سعيا حثيثا لبلوغ هذه الغاية التى كرس لها جميع جهوده وبذلك أخذ يتطلع للاستيلاء على عاصمة الخلافة القديمة .

غير أن المقادير كانت تضمر له الفشل الذريع .

كانت قوات « المعتضد » قد شنت كثيرا من الغارات على أرباض « قرطبة » ، وفى سنة ١٠٦٣ م [٤٥٦ هـ] (٧) أنفذ أمره الى ولده البكر وقائد جيشه « اسماعيل » بالاستيلاء على مدينة « الزهراء » التى كانت نصف مخربة ، وكان ابنه اسماعيل كارها لهذا التكليف ، معترضا عليه لاستيائه من سياسة أبيه وتأففه من شراسته واستبداده ، حتى لقد اتهم أباه بأنه كثيرا ما عرضه للأخطار الجسام فى الوقت الذى رفض فيه أن يمده بالعدد الكافى من الجند اللازم للقتال أو محاصرة مكان من الأماكن الحصينة ، كما أن هناك رجلا أفاقا طماعا أخذ فى تسعير غضب اسماعيل على أبيه « المعتضد » ذلك هو « أبو عبد الله البزلياني » (*) الذى هاجر من مالقة حين استولى « باديس » عليها وآلت الى قبضته .

كان هذا السساس يطمع أن يبلغ بأى ثمن مرتبة الحجابة ، ولم يكن يعنيـه لمن يستوزر ولا أين يستوزر ، ومن ثم حـاول أن يبث فى نفس اسماعيل فكرة التمرد على أبيه ، ويغريه بتأسيس امارة مستقلة فى أى ناحية ، ولتكن الجزيرة الخضراء مثلا ، ونجح البزلياني أشد التوفيق فى خطته ، ذلك أنه فى اللحظة التى تلقى فيها اسماعيل الأمر بالزحف على مدينة « الزهراء » كان الغضب قد بلغ به غايته فى نفسه وطفح الكيل ولم يعد يحتمله . ومما يؤسف له أن أباه عاد فرفض من جديد امداده بالقوات التى طلبها منه ، وراحت جهود الابن اسماعيل عبثا فى محاولته افهام أبيه استحالة مهاجمة امارة قرطبة بهذا العدد الضئيل من الجند لا سيما اذا نهض باديس » الى نجدة القرطبيين وهو أمر كان لابد أن سيفعله . اذ كان حليفهم ، وحينذاك يقع اسماعيل بين شقى الرحى ، فلم يبد « المعتضد » ميلا لسماع رأيه ، ولم يعره أذنا صاغية ، بل حنق عليه وقام فى سورة غضبه فرمى ابنه بالجبن ، وأخذ يتوعده ، وكاد أن يقرن القول بالفعل اذ قال له : « لئن توانيت عن طاعتى حززت رأسك » .

خرج اسماعيل بالجيش وهو مجروح الكرامة ناغر الصدر على أبيه ؛ غير أنه مضى لاستشارة البزلياني الذى استطاع التغلب على مخاوفه فى يسر، وأفهمه أن قد دنت ساعة تنفيذ ما اتفقا عليه من قبل .

(*) البزلياني بكسر الباء الموحدة وسكون الزاى وكسر اللام بعدها ياء مثناة من تحت والف ثم نون وياء .

حين اصبح اسماعيل على مسيرة مرحلتين من أشبيلية أفضى الى ضباطه أن قد سقطت عليه من عند أبيه رسالة يطلب اليه فيها المبادرة بالعودة اليه ، وان هناك أمرا خطيرا يقتضي مشافهته فيه ومناقشته اياه . ثم صحب البزلياني وثلاثين من حرسه وركبوا الجياد وعادوا على جناح السرعه الى « أشبيلية » التى لم يكن « المعتضد » بها آنذاك ، بل كان مقيما بحصن « الزاهر » الواقع على الجانب الآخر من النهر ، ووجد اسماعيل قلعة أشبيلية ضعيفة الحراسة فهاجمها واستولى عليها مغتنما ان الظلام قد مد طنبه على الدنيا ، ثم حمل ثروة أبيه على الدواب ·

ورغبة من اسماعيل فى ألا يتمكن أحد من عبور النهر وينهى الى نازل حصن « الزاهر » خبر ما جرى فقد عمد الى اعراق السفن الراسيه أمام القلعة ، ثم أخذ أمه ونساء الحريم وسار قاصدا الجزيرة الخضراء ·

لكن على الرغم من الاحتياطات التى اتخذها اسماعيل للحيلوله دون وصول الخبر بما جرى الى أبيه فان أحد فرسان الابن استقبح مسلك الابن الشنيع فعبر نهر الوادى الكبير سباحة وأفضى بالقصة الى المعتضد الذى بادر فى الحال الى انهاض الفرسان لسد جميع المسالك أمام العصبة الفارين ، وأرسل الرسل الى أصحاب القلاع فأخبروهم فى الوقت الملائم بما جرى . فلا عجب ان وجد اسماعيل أبواب جميع الحصون التى مر بها مغلقة فى وجهه ، وخاف أن يجتمع أصحابها على مهاجمته ، فالتمس حماية « الحصادى » أحد أصحاب الحصون الواقعة على قمه جبل قرب كورة « شذونة » ، فأجابه « الحصادى » الى ما طلبه وان اشترط عليه البقاء حيث هو عند سفح الجبل ، ونزل اليه هو نفسه فى فريق من عسكره ، وأشار عليه مصافاة أبيه ومصالحته ، وعرض عليه أن يسعى هو بينهما فى ذلك الصلح ، فقبل اسماعيل كل ما اقترحه « الحصادى » حين أدرك أن خطته آيلة للفشل ، وحينذاك أذن له « الحصادى » بدخول الحصن وعامله معاملة كريمة تتفق ومكانته ، ثم أسرع فكاتب « المعتضد » ذاكرا له أن اسماعيل نادم على ما كان منه من هفوة فى حقه ، وأنه تائب عما حدث ، والتمس منه العفو عنه ، فرد « المعتضد » ردا لم يكن متوقعا اذ بعث بالأمان الى ولده عن زلته ·

حينذاك عاد اسماعيل الى « اشبيلية» فترك له أبوه جميع أملاكه ، وان يكن في الوقت ذاته قد أخذ فى مراقبته مراقبة دقيقة ، ولكنه أمر بقتل « البزلياني » ومن معه من المتآمرين ، فلما تناهى خبر ذلك الى اسماعيل ــ وكان خير من يعرف دهاء أبيه ومكره ــ لم يعد يرى فى صفح أبيه عنه الا شركا نصبه لاصطياده وللايقاع به ، فشرع منذ ذلك الحين فى التأهب للعمل ، واستطاع بفضل المال يبسط به راحته أن يضم الى صفه الحرس

وبعضا من العبيد الذين جمعهم ذات ليلة وفرق فيهم السلاح ودعاهم لشراب ليذهب عنهم الجبن ، ثم تسلق بهم القصر من ناحية ظن أنه من اليسير مهاجمته منها ، وكان يطمع أن يجد والده في هذه اللحظة يغط في سباته ، وصمم في هذه المرة على قتله وكان تصميمه بائنا ، غير أن « المعتضد » باغتهم على غير توقع منهم وهو على رأس جنده ، فأوقع في يد المتآمرين فمنهم من تساقطوا لمرآه ومنهم من فروا على وجوههم ، أما اسماعيل فقد نجح في اجتياز سور المدينة ، غير أن العسكر المدجج بالسلاح انطلقوا في أثره فادركوه وامسكوه وردوه ·

استورى غضب الأب فقاد ابنه الى أسفل القصر وأبعد جميع الناس وقتله بيديه (٨) ، وفعل مثل هذا برفاقه المتآمرين معه وبأصدقائه وخدمه بل وبالحريم أيضا ، وقتل البعض منهم سرا والبعض الآخر جهرا ·

حين انفثأ غضب الطاغية ألح عليه الشجو المقيم وأمضه تأنيب الضمير وراح يبرر فعلته بأن لاشك في أن هذا الابن الذى تمرد عليه وحاول اغتياله والحوطة على أمواله وحريمه انما هو مجرم مولغ في الاجرام ، لكن على الرغم من تكرار « المعتضد » هذا الكلام لنفسه الا أنه لم يستطع أن ينسى أنه كان يحبه ، وأن حبه له كان حبا صادقا ، فقد كان المعتضد شديد التعلق بأسرته رغم ما طبع عليه من الشدة ·

لقد كان هذا الابن [اسماعيل] فطنا سديد الرأى ، ومردى حرب وفارس بهمة ، وكان أبوه يعده ويدخره ليكون درعا له في شيخوخته وليتابع أعماله · أما الآن فها هو ذا يحطم بيديه أعز آماله ، حتى لقد حكى أحد الوزراء الأشبيليين أنه دخل مع رفقة له على المعتضد بعد ثلاثة أيام من قتله لولده فرأوا وجهه مربدا ، فلم يجرؤا على بدئه بالسلام ، وأرتج عليهم الكلام ، فصوب المعتضد فيهم نظره وصعده وزأر كالأسد وصاح فيهم : « يا شامتين ··· ما لى أراكم ساكتين ؟ ·· اخرجوا عنى !! » ·

وتحطمت لأول مرة هذه القوة الطاغية وتلك الارادة الحديدية ، أما فؤاده الذى كان يبدو كما لو كان في كنانة تحميه من السهام فقد أصيب بجرح أخذ في الاندمال على توالى الأيام ، وان يكن هذا الجرح قد ترك فيه ندبة عميقة ظلت باقية على الدوام ·

بقيت « جمهورية » قرطبة في هذه الأثناء تنعم بالهدوء الذى أدهشها وان استراحت اليه ، وكف المعتضد عن التفكير في مشاريعه الضخمة ، لكنها عادت دون أن يشعر بها ، وكانت « مالقة » هي التي أيقظت الراقد من غفوته وأرجعته الى مطامعه ، ذلك أن عربها كانوا قد طأطأوا الهام منذ سنوات عدة أمام نير « باديس » الا أنهم دأبوا على التذمر من طغيانه ،

رراودتهم المطامع ان يكون خلاصهم على يد أمير « اشبيلية » رغم ما يعرفونه عنه هو الآخر من شدة الجور ، بيد انهم كانوا يؤثرون أن يكون الطاغية من بني جنسهم عن أن يكون من البربر ، ومن ثم اتصلوا بالمعتضد واتفقوا معه على تدبير المؤامرة التي شجعهم باديس ذاته عليها بسبب اهماله وانصرافه عن معالجة شئون الدولة الا في النادر ، اذ كان مسلما نفسه على الدوام الى صبواته ، منكبا على شرابه ٠

فلما كان اليوم المحدد للمؤامرة اجتاحت العاصمة ثورة جارفة عمتها ، وتمرد خمسة وعشرون حصنا ، كما عبرت في الوقت ذاته الحدود سرايا « اشبيلية » بقيادة « المعتمد بن المعتضد » ناهضة لمعونة الثوار ، وروعت البربر بهذا الهجوم ، فحكم المغير والثوار السيف في البربر ولم ينج منهم الا من أسعفه الظروف بالفرار ٠ ولم ينقض غير أسبوع واحد الا وقد أصبحت جميع نواحي الولاية في قبضة امير اشبيلية ، ولم يعز عليه الا حصن « مالقة » الذي تقوم على حراسته حامية من السودان المغاربة ، فقد استطاع هذا الحصن المقاومة طويلا بفضل مناعته ووقوعه على قمة أحد الجبال الشاهقة الارتفاع ، فخاف الأمير أن يغتنم « باديس » ذلك الفترة فينهض لنجدة المحاصرين ، وطبيعي أن يشغل هذا الخاطر تفكير موقدي الثورة ، ولذلك فانهم أشاروا على المعتضد بأن يشدد الحصار على الحصن ، وأن يعتمد على حراستهم هم أنفسهم اياه ، والا يسرف في الثقة بالعدد الكثيف من البربر الذين يستخدمهم في جيشه ٠٠٠ فلم يصغ المعتمد الى تلك النصائح رغم وجاهتها ، بل ان ما طبع عليه من التراخي وعدم الفطنة أديا به الى الفرح بترحيب الشعب الذي أعجبته منه معاملته الودية فاستمع الى ضباطه البربر الذين يعطفون سرا على « باديس » فخدعوا المعتمد اذ أكدوا له قرب استسلام الحصن لهم من تلقاء ذاته ، كما اعتقد سواهم من الجند بأنهم صاروا في أمان من الأخطار فلم يقوموا بالحراسة القيام الواجب ، وعكفوا على ملذاتهم ٠

وقد أدى هذا التهاون الى الخطر الفادح الذي أضر بهم جميعا ، اذ لم يعدم سودان الحصن الوسيلة لاخبار « باديس » بأنه من اليسير عليه مهاجمة العسكر الأشبيلي ، وحينذاك أخذت قوات غرناطة في الزحف عليهم وعبروا الجبال عبورا اتسم بالحذر والسرعة ، حتى لقد دخلوا « مالقة » دون أن يعلم المعتضد بخبرهم الا وقد قاربوها ، ولم يجر قتال أو تحدث موقعة فقد أخذوا في حز رقاب الجند الذي كان اذ ذاك مجردا من سلاحه ، مخمورا من كثرة ما شرب ، وما كانت نجاة المعتمد الا بارتداده الى « رندة » ، غير أن الولاية بأكملها اضطرت الى الاستسلام من جديد لحكم « باديس » ٠

ترى من ذا الذى يستطيع أن يصور غضب المعتضد حين سمع باهمال ابنه السفيه مما ترتب عليه ضياع جيشه وفقدانه هذه الولاية الرائعة ؟

لذلك أمر بابقاء « المعتمد » سجينا فى « رندة » ، ونسى ما لحقه من الحزن والعذاب من جراء قتله ابنه البكر [اسماعيل] ، فرغب أن يدفع ابنه الثانى رأسه تكفيرا للغلطة التى ارتكبها .

لم يعلم المعتمد اذ ذاك بغضب أبيه ، ولكنه بعث اليه قصائد يتزلف فيها اليه ويمتدح كرمه ويطرى شفقته ، كما حاول أن يعزيه عن هذه الهزيمة بانتصاراته السالفة ، فكان مما قاله له :

كم وقعة لك فى الأعـداء واضحة	تفنى الليالى ، ولا يفنى بها الخبر
سارت بها العيس فى الآفاق فانتشرت	فليس فى كل حى غيرهـا سمر

وبذل المعتمد غاية جهده فى التنصل مما انتهت اليه الحملة ، وعزا النكبة التى منى بها الى خيانة البربر ، ورسم صورة صادقة حية للحزن الذى ران على نفسه من جراء هذا العار ، فقال :

سكن فؤادك لا يذهب بك الفـكر	ماذا يعيـد عليك العيث والحذر ؟
قد حلت لونا،وما بالجسم من سقم	وشبت رأسا ولم يبلغنى الكبر
فالنفس جازعـة ، والعين دامعـة	والصوت منخفض،والطرف منكسر
لـم أوت من زمنى شـيئا ألذ به	فلست اعرف ما كأس وما وتر
ولا تملكنى دل ولا خفـــر .	ولا سبى خلدى غنـج ولا حـور
رضاك راحة نفسى ــ لا فجعت به ــ	فهو العتـاد الذى للدهـر ادخـر
ما الذنب الا على قوم ذوى دخـل	وفى لهم عدلك المألوف اذ غدروا .

ولما كان « المعتضد » شديد التذوق للشعر الجميل فقد لمست قصائد ولده [المعتمد] عواطفه وألانت من حدته ، كما عملت على تهدئته توسلات ناسك من أهل « رندة » يسأله الصفح والتجاوز عن زلته ، واذ ذاك أذن للمعتمد بالعودة الى اشبيلية وغفر له ماتقدم من ذنبه(٩) رغم ضياع كورة « مالقة » من يده الى غير عودة .

***

شرع باديس منذ ذلك الحين فى الانتباه لما يدور حوله مخافـة أن يباغته « المعتضد » مرة أخرى فيتجدد الخطر عليه ، ويقال أيضا ان ملك غرناطة الذى لم تكن تأخذه شفقة ولا يتوانى عن تنفيذ انتقامه اذا فكر فى الانتقام ، والذى كان لا يسير الا فى زمرة من السيافين أخذ فى كى المنكودين المتردين عليه بالنـار وتكبيلهم بالسلاسل ورميهـم فى الجباب ، وبهذه الوسيلة تمكن من أن يقتل فى نفوسهم كل تطلع لمعاودة الثورة .

وعلى الرغم من عظم البلايا التى امتحنوا بها الا أنهم وجدوا عزاءهم وسلواهم فيما علموه من ان نفوذ اليهود فى بلاط غرناطة قد اضمحل حتى آذنت نهايته بالدنو مما أرضى كراهيتهم وتعصبهم ·

كان صمويل قد مات فخلفه ابنه يوسف الذى كان هو الآخر رجلا أريبا مثقفا ، الا أنه خالف أباه فكان لا يذلل كنفه وهو فى مكانته السامية هذه ، بل كان يطلع على الناس فى زهو الأمير وخيلائه ، فان خرج فى رفقة « باديس » وكل منهما على جواده لم ير الناس فارقا بين لباس الملك ولباس وزيره · والواقع أنه كان للوزير يوسف من السلطان فوق ما كان للحاكم ذاته نظرا لسيطرته التامة على باديس الذى لم يكن ليصحو أبدا من سكره ، كما عمد يوسف الى احاطة « باديس » بالعيون الذين يحملون اليه كل ما يبدر من مولاه من قول : صغر هذا القول أو كبر ، وقد نهج هذا النهج حتى يظل مسيطرا على الدوام على باديس ·

أضف الى هذا أنه لم يكن ليوسف من اليهودية الا اسمها فزعم الناس انه لا يؤمن بملة آبائه ولا بغيرها من الملل ، وانه لا يكترث بأى دين من الأديان ، واذا لم يكن قد هاجم الموسوية جهارا الا أنه هاجم الاسلام فصرح باستحالة مطابقته للعقل ، ولم يسلم القرآن ذاته من نقده ·

ولقد اغضب يوسف بن صمويل العرب والبربر واليهود على السواء بعتوه وصلفه ومشاعره الدينية وقلة احترامه للعدالة،كما رمى بكثير من الكبائر ، وشاء القدر أن يبتليه بنفر من الخصوم الألداء ، كان من أخطرهم عليه فقيه عربى اسمه « أبو اسحق الألبيرى » الذى كان صغر سنه سببا فى حدة عواطفه ، فلما تقدمت بـه الأيام حاول أن يتبوأ فى البلاط مكانـة يؤهله لها طيب نبعته ، لكنه لم يفلح فى محاولته هذه اذ قضى يوسف على آماله ونفاه ، وحينذاك انصرف للتدين ، ودعاه كرهه ليوسف أن ينظم القصيدة التالية التى نال فيها من يوسف ومن أبناء ملته ، فقال:

الا قـــل لصنهاجـــة أجمعـين	بدور الزمان وأســد العرين
مقالـــة ذى مقـــة مشـــفق	يعـد النصيحـــة زلفى ودين
لقـــد ذل سـيدكم ذلـــة	تقـر بها أعـين الشامتـين
تخـير كاتبـــه كافـــرا	ولـو شـاء كان من المؤمنين
فعـز اليهـود بـــه وانتخـوا	وتاهـوا ، وكانـوا من الأرذلـين
ومـا كان ذلك من سـعيهم	ولكن منـــا يقـــوم المعـين
فهـلا اقتـدى فيهمـــو بالالى	من القـــادة الخـيرة المتقـين ؟
وأنزلهـــم حيث يستاهلـون	وردهمـوا أسـفل السافلين ·
فلـم يسـتخفوا بأعلامنـــا	ولـم يسـتطيلوا على الصالحـين

أباديس أنت امرؤ حاذق ... تصيب بظنك نفس اليقين.
فكيف خفى عنك ما يعبثون ؟ ... وفى الأرض تضرب منها القرون ؟
وكيف تحب فراخ الزنا ... وقد بغضوك الى العالمين ؟
وكيف يتم لك المرتقى ... اذا كنت تبنى وهم يهدمون ؟
وكيف استنمت الى فاسق ، ... وقارنته ، وهو بئس القرين ؟
فبادر الى ذبحه قربة ... وضح به فهو كبش سمين.
ولا ترفع الضغط على رهطه ... فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرق عراهم . وخذ ما لهم ... فأنت أحق بما يجمعون
ولا تحسبن قتلهم غدرة ... بل الغدر فى تركهم يعبثون.
ولا ترض فينا بأفعالهم ... فأنت رهين بما يفعلون
وراقب الاهك فى حزبه ... فحزب الاله هم الغالبون

لكن لم تنجح هذه القصيدة فى التأثير فى نفس باديس لفرط ثقته فى يوسف ، ولكنها تركت أثرا عميقا فى نفوس البربر ، فأقسموا ليهلكن اليهودى ، وأرجف زعماء المؤامرة بانضمام يوسف بن صمويل الى جانب المعتصم [بن صمادح] ملك المرية الذى كانوا يحاربونه فى هذا الوقت ، ولما تساءل من هم أقل من هؤلاء المتآمرين تعصبا وحماسة عما قد يكون من مكسب يوسف ان هو خان الأمير الذى يخضع له كل الخضوع جاءهم الرد بأن اليهودى يرمى الى ما فيه هلاك باديس ونيل عرشه بالمعتصم [بن صمادح] ، واذ ذاك يثب على « ابن صمادح » ويتمرس بجانبه ويضمن العرش لنفسه · ولا حاجة بنا للقول بأن ذلك كله كان افكا وبهتانا ، فالحقيقة هى أن البربر كانوا يحاولون تلمس علة لاسقاط يوسف بن صمويل والفتك باليهود حسدا منهم لهم على ثرواتهم الطائلة ، فلما خيل اليهم أخيرا أنهم عثروا على تلك العلة تمردوا وهاجموا قصر « بادين » حيث كان قد لاذ به يوسف الذى حاول الافلات من غضبهم المجنون فاختفى فى بعض خزائن الفحم وسود وجهه حتى لا يتعرف القوم عليه ، الا أنهم عرفوا مخبأه ولم يخف عليهم أمره فقتلوه ورفعوه على عمود من الخشب ، واذ ذاك عمد الغرناطيون الى الفتك ببقية اليهود ونهبوا بيوتهم فراح ضحية هذا الغضب ما ينيف على أربعة آلاف شخص (١٠) ·

وكان ذلك الحدث يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٠٦٦ م [٤٥٩ هـ] ·

الفصل الثامن

فرديناند ملك ليون وأمراء الطوائف

ظهور فرديناند ملك ليون وقشتالة · مواتاة الظروف للنصارى · موادعة بعض الحكام المسلمين لفرديناد ورضوخ المعتضد لمطالبة المذلة ... بلوغ المهانة بالمعتضد أقصاها فى أخذ السفارة الليونية جثمان ايزيدور · حملة فرديناند على بلنسية · النرمنديون يسطون على بوبشترو ويسرفون فى القتل وهتك الحرم · ثم يعودون من حيث جاؤا فيسترد صاحب سرقسطة الحصن · موت فرديناند ملك ليون وقستالة · تخوف المعتضد من البربر والمرابطين · أيام المعتضد الأخيرة ووفاته حزنا على ابنة له كان شديد التعلق بها ·

فردناند وأمراء الطوائف

لم تكن بقية أسبانيا الاسلامية أكثر طمأنينة من الجنوب ، فقد كان الناس فى كل النواحى يتنازعون فيما بينهم نزاعا عنيفا حول بقايا الخلافة الدراسة ، وعلى الرغم من ذلك فقد أخذ السيل الراجف يتزايد فى الشمال وهددت أمواج هذا السيل ممالك شبه الجزيرة بالابتلاع •

ولقد ظلت مشاغل الملوك المسيحيين تصرفهم مدة قرن من الزمان عن التمكن من القيام بالفتوح حتى آن للأمور أن تتبدل سنة ١٠٥٥ م [٤٤٧ هـ] حين استطاع « فرديناند » ملك قشتالة وليون أن يتفرغ لمحاربة المسلمين فوجه جميع قواته ضدهم اذ أدرك استحالة مقاومتهم اياه لما هم عليه من الضعف • والواقع أن الظروف الطيبة كانت جد مواتية للنصارى ، اذ توفر عندهم ما لم يتوفر لأعدائهم وأعنى به الروح الحربية والحماسة الدينية ، ومن ثم اتسمت فتوحات « فرديناند » بالسرعة ، وكانت له فتوحات عظيمة فقد انتزع من يد المظفر — ملك بطليوس — مدينتى « بازو» و «لاميجو» سنة ١٠٥٧ م [٤٤٩ هـ] وغنم ما فى يد ملك سرقسطة من القلاع الموجودة جنوب نهر « دورو » ، وقام بغزوة مبيرة فى أملاك المأمون صاحب طليطلة ، وتقدم حتى بلغ ما يعرف بقلعة الحنش وحينذاك لم يجد أهلها بدا من أن يفضوا لأميرهم المأمون بأنهم مضطورن للاستسلام لملك قشتالة ان لم يبادر أميرهم الى نجدتهم ومد يد العون اليهم ، غير أن المأمون كان أضعف من أن يستطيع مقاومة العدو فاتبع الصواب وقدم بذاته الى « فردريناند » ودفع اليه بصرة كبيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وأعلن تبعيته له تبعية تتمثل فى أدائه الجزية له كما فعل من قبل ملكا بطليوس وسرقسطة (١) •

***

والآن جاء دور المعتضد •

ففى سنة ١٠٦٣ م [٤٥٦ هـ] قام فرديناند فأحرق ما حول اشبيلية من القرى والمساكر ، وكان ضعف الولايات الاسلامية شديدا حتى لقد رآى المعتضد ان الحكمة تفرض عليه أن يفعل ما فعله المأمون ، هذا على الرغم من أنه كان أقوى حكام الأندلس ، ومن ثم شخص الى المعسكر

المسيحي وقدم بعض الهدايا اللطيفة الى « فرديناند » ملتمسا منه الابقاء على مملكته • والظاهر أن ملك قشتالة لم يكن يدرى ما طبع عليه هذا الرجل من القتل والقسوة • بل دفعه تفنى النسيب والبياض فى شعر رأسه وكثرة غضون جبينه الى احترام هذا الشيخ وتوفيره ، ذلك أن شدة الأطماع وكثرة العمل والجهد بل وربما تأنيب الضمير قد طبعه بطابع الشيخوخة قبل ان يدركها ، اذ لم يكن يعدو اذ ذاك السابعة والأربعين من عمره (٢) ، فلا عجب أن استجاب ملك قشتالة الى توسلاته،لكنه رأى وجوب استشارة عظماء مملكته وقسسها ، فجمعهم ليسألهم الشروط التى يرون فرضها على المعتضد ، فقر الرأى بالاجماع على أن يبعث ملك أشبيلية بجزية سنوية الى « فرديناند » ، وأن يسلم الى السفراء الذين سيوفدهم ملك قشتالة جثة القديسة العذراء « جست » التى استشهدت زمن الاضطهاد الرومانى • فاستجاب المعتضد لهذه الشروط ، وحينذاك عاد فرديناند بعسكره حتى اذا بلغ « ليون » أنفذ الى أشبيلية « الفيتس » أسقف العاصمة ، و « أردونيو » أسقف « أستورقة » ، ونيطت بهما مهمتان أولاهما أن يحملا الى ليون جثمان القديسة الشهيدة ، أما المهمة الأخرى فخاصة بتنظيم موضوع الجزية (٣) •

لكن مما يؤسف له أن أعمال البحث للكشف عن بقايا القديسة « جست » لم تسفر عن شيء مما كان مقصودا ، واذ ذاك قال « الفيتس » الى رفاقه :

والآن أيها الاخوان ، ها أنتم ذا ترون أننا سنعود فاشلين فى تحقيق مالنا من هذه السفرة الشاقة اذا لم تسعفنا العناية الالهية بما جئنا من أجله ، ويبدو لى أنه ينبغى علينا أن نتقرب الى الرب فنعكف على الصلاة والصوم ثلاثة أيام سويا ، سائلين اياه أن يتفضل فيهدينا الى الكنز المخبوء الذى نفتش عنه » •

ومن ثم لازمت السفارة المسيحية الصوم والصلاة ثلاثة آيام مما ادى الى شدة تدهور صحة « الفيتس » وتجلى ذلك حين بلغ اشبيلية •

فلما كان صباح اليوم الرابع جمع الاسقف الفيتس مرة أخرى رفاقه وقال لهم :

« أيها الصحاب الكرام ، ينبغى أن نتوجه الى الرب بنية خالصة وقلوب عامرة بالايمان اذ تعطف علينا برحمته فلم يشأ أن تفشل رحلتنا فنعود صفر الأيدى• حقيقة ان الرب حال بيننا وبين أن نأخذ من هنا جثمان « أوجست » الطوبانية ولكنكم ستعودون الى وطنكم بعطية لا تقل عنها ، تلك هى جثمان « ايزيدور » الطوبانى الذى حمل تاج الأسقفية على مفرقه فى هذه المدينة ، والذى كان حلية أسبانيا كلها بجليل أعماله وأقواله ،

وقد كنت أريد أيها الاخوان أن أسهر الليلة بطولها مصليا ، ولكن مرت على لحظة من الضعف الشديد غلبني فيها النوم على أمري ، واذ ذاك ظهر لى شيخ فى مسوح الأسقف وقال لى : انني أعلم بما جاء بك الى هنا أنت ورفاقك ، لكن الارادة الربانيــة لم تشأ أن يحكم على هذا البلد برحيــل القديسة « جست » عنه ، ثم ان رحمة الرب الأبدية لم ترض ان ترحل انت ورفاقك صفر الأيدى فمنحكم جسدى » ، فسألته : « ومن أنت يا من تامرنى بهذا الأمر ؟ » فأجابنى : « انني كاهن أسبانيا كلها ، ولقد كنت من قبل كبير قساوسة هذه المدينة : انني أنا ايزيدور ذاته » . ثم اختفى الشبح من أمامى ، فاستيقظت وسألت الرب عما اذا كان هذا أمره ، فتكرر الحديث ثانية وثالثة ... أجل لقد تكرر مرتين كان الشبح فى كل مرة يخاطبنى بنفس الكلام الذى قاله من قبل ، ولما كانت المرة الثالثة دلنى على الناحية التى يثوى بها جثمانــه ومسها ثلاث مرات بقضيب فى يــده قائلا : « هنا ستجد جثتى ، ولكيلا تحسب مخاطبك شبحا فدليل صدقى هو أنه ستلحقك عقب اخراجى من القبر علة لن تبرأ منها أبدا ، ثم تترك هذا الجسد الفانى وتأتى الينا وعليك تاج الصالحين ثم اختفى » .

انقلب « الفيتس » بعدئذ هو ورفاقه الى قصر المعتضد وقص عليه رؤياه ، وسأله أن يأذن له بأخذ جثمان « ايزيدور » بدلا من جثة القديسة « جست » .

أثرت هذه القصة فى نفس المعتضد تأثيرا عجيبا ، فقد كان رجلا شكاكا ساخرا ، يسخر بالأديــان جميعها ، ولا يؤمن الا بشيئين هما : التنجيم والخمر (٤) . الا أنه استمع الى الأسقف وقد ارتسمت علامات الجد على وجهه ، فلما فرغ الأسقف من حديثه صاح به المعتضد فى رنــة حزينة « آسف أيها السيد الحبر . ترى ما الذى يتبقى لى ان أنا أعطيتك جثة ايزيدور ؟ ، ومع ذلك فلننفذ أمـــر الله ، انك رجــل موقر مبجل . ولا أستطيع أن أرد لك طلبا ، فانهض وامض لما أنت مريده ، وابحث عن جثة ايزيدور ، واحملها معك رغم اعتزازى بمكانته عندى » .

والواقع أن هذا العربى كان مرائيا فيما قال ، لكنه كان يعرف كيف يحبب النصارى فيه ويحملهم على التأييد له ، وان سخر منهم فيما بينه وبين نفسه .

ولما كان المعتضد ملتزما بدفع الجزية فقد قدر أن ربما كان من الخير له أن يتغالى فى تقدير ما جاؤوا اليه من أجله ، والا يأذن لهم بنقل جثمان ايزيدور ، فان أذن لهم بما أرادوا ظهر وكأنهم يستلون روحه من جسده . وفعل ما يفعله المدين اذا ألح عليه الدائن بسداد ما عليه ، وعرف كيف

يدخل في الحساب شيئا لا قيمة له يقبله دائنه كأثر قديم نادر لا يقدر بثمن ، ومن ثم أجـاد تمثيـل دوره الى النهايـة ، فحينمـا قرر اسقف « استورقة » مغادرة أشبيلية بجثة « ايزيدور » (لأن زميله ألفيتس كان قد مات) ذهب المعتضد لمقابلته ، وكسى التابوت بالديباج المطرز بالطرز العربية الدقيقة الصنع ، وأخذ يقول متنهدا : « ها أنت يا ايزيدور تغادر هذا المكان ، أيها الرجـل الوقور ، وانك لتعلم أى صداقـة وثيقة توحـد بيننا » (٥) .

* * *

كان العام التالى ١٠٦٤ م [٤٥٧ هـ] أسوأ الأعوام التى مرت على المسلمين ، فقد اضطرت « قنبرة » للاستسلام لفرديناند بعد ان ظلت تقاوم الحصار ستة أشهر ، وقضت الشروط بتسليم خمسة آلاف شخص من المدافعين عنها الى الغالب ، أما من سواهم فقد غادروا دورهم غير مستصحبين معهم سوى النفقة الضرورية للسفر ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل صدر الأمر الى جميع المسلمين النازلين بين « دورو » و « منديجو » بمغادرة البلـد (٦) .

وجه فرديناند جيوشه بعدئذ ضد مملكة بلنسية التى كانت تحت حكم أمير ضعيف كسول هو « عبد الملك المظفر » الذى خلف أباه عبد العزيز سنة ١٠٦١م [٤٥٣ / ٤٥٤ هـ] وشرع القشتاليون فى محاصرة العاصمة فعزت عليهم ، فلما رأوا صعوبة الاستيلاء عليها فكروا فى حيلة يخدعون بها المدافعين عنها ويحولون بينهم وبين الذود عنها ، فتظاهروا بالارتداد ، وحينذاك مضى أهل بلنسية فى آثارهم وهم يرفلون فى ثياب العيد ، وقد ظنوا أن النصر مواتيهم من غير مشقة ، الا أن جرأتهم كلفتهم غاليا ، اذ ما كادوا يصبحون على مقربة من « بطرنة » الواقعـة على يسار الطريق المؤدى من بلنسية الى « مرسية » حتى باغتهم القشتاليون بالهجوم عليهم وفتكوا بالكثيرين منهم ، ولم يستطع ملكهم المظفر النجاة الا بفضل سرعة جواده (٧) .

كذلك تم للعدو الاستيلاء على حصن بويشترو الذى يعد من أعظم حصون الشمال الشرقى أهمية وأمنعها ، وكان وقوعه فى يد العدو خطرا جسيما لسقوطه فى أيدى جيش من النرمنديين ، وساء مصير المغلوبين اذ استسلم جند الحامية بعد أن اشترطوا على المهاجم الابقـاء على حياتهـم ، لكنهم ما كادوا يغادرون الحصن حتى وضع العدو السيف فيهم فأفناهم عن بكرة أبيهم ، ولم تكن المعاملة التى عومل بها السكان أحسن مما لقيته الحامية ، فقد حصلوا على الأمان وبينما هم يتأهبون للجلاء عن المدينة اذا بالقائد النصرانى الذى استبد به القلق من كثرة عددهم يأمر جنده ببذل السيف فى البعض منهم ، ولم ينثن العسكر عن متابعة الذبح ويكفوا عنه

حتى كانوا قد أبادوا منهم ما يقرب من ستة آلاف شخص ، ثم اصدر القائد النرمندي أمره بأن يعود كل مالك بيت في المدينة الى بيته مع امرأته وأطفاله فأطاعوه ، وحينذاك تقاسم النرمنديون فيما بينهم كل ما وصلت اليه أيديهم • ويقول أحد مؤرخي هذه الحقبة من العرب « ان المشركين اقتسموهم ، فكل من صارت في يده دار حازها وما فيها من أهل ومال وولد ، فحكم كل علج منهم فيمن سلط عليه من أرباب الدور بحسب ما يبتليه الله به منه ، يأخذ كل ما أظهر له ، ويعذبه فيما أخفى عنه ، وربما زهقت نفس المسلم دون ذلك فاستراح . وربما أنزله أجله الى أسوأ من مقامه ، ذلك لأن عداة الله كانوا يومذاك يهتكون حريم أسراهم وبناتهم بحضرتهم » ايغالا في اذلالهم والنكاية بهم ، « ويعيثون ، ويغتصبون البكر ، كل ذلك وزوج تلك وأبو هذه موثق في الحديد ، ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك بهن أعطاهن لغلمانه » •

كان من حسن حظ المسلمين أن لم يتأخر النرمنديون عن مغادرة أسبانيا الى بلادهم للتمتع بالأموال الطائلة التي استولوا عليها ، ولم يبق منهم ببوبشترو يومذاك غير حامية ضعيفة ، فاغتنم هذه الفرصة المقتدر ملك المدينة في العام التالي (٨) في ربيع سنة ١٠٦٥ م •

الا أن فرديناند تابع جهوده للاستيلاء على بلنسية التي وجد ملكها نفسه في مركز بالغ الحرج رغم النجدات التي أمده بها صهره « المأمون » صاحب طليطلة ، غير أن نزول المرض بفرديناند أرغمه على الرجوع الى ليون، الا أن عبد الملك المظفر لم تستقر أموره ، اذ وثب عليه صهره في شهر نوفمبر وخلعه من سدة الحكم وزج به في السجن في قلعة « كونكة » Cuenca ثم أضاف مملكة بلنسية الى أملاكه (٩) لكن الموت ما لبث أن طرق فرديناند فأنقذ المسلمين من ألد خصومهم •

كان فرديناند مثلا للملوك يحتذى في شجاعته وتقواه وأخلاقه ، اذ لم يكد يبلغ ليون يوم السبت ٢٤ ديسمبر حتى بادر للصلاة في الكنيسة التي أهداها الى القديس « ايزيدور » وهو يعلم أن قد دنت اللحظة التي آن فيها لجسده أن يرقد رقدته الأبدية ، ثم عاد الى قصره فاستجم فيه بضع ساعات ، فلما كان المساء ارتد ثانية الى الكنيسة حيث كان الكهنة يحيون عيد الميلاد بتراتيلهم المشجية ويؤدون صلاة السحر طبقا لتقاليد طليطلة الدينية كما جرت العادة اذ ذاك ، فأخذ فرديناند يرتل معهم بصوته الواهي الضعيف ، فلما تنفس الفجر سألهم الملك أن ينشدوا القداس ،

ثم انكفأ الى فراشه بعد أن تناول القربان المقدس ، وكان فرديناند يسير منكئا على سواعد خدم قصره وهو واهي الجسد ٠

ولما كان صباح اليوم التالى لبس ملابسه الملوكية وحمل الى الكنيسة حيث ركع أمام المذبح ، ثم خلع المعطف الملكي والتاج وقال في صوت واضح النبرات : لك المجد والقوة يا سيدنا ، يا ملك الملوك ، يا من لك ممالك السموات والأرض ، ها أنذا أرد لك ما منحتنيه ، وما حكمته وفق ارادتك الالهية ، أسألك أنت وحدك أن تكلأ برحمتك روحى التى انتزعتها من هوة هذا العالم » ٠ ثم ركع على عتبات المذبح وبكى متوسلا الى الرب أن يغفر له خطاياه ، ومسحه أحد الأساقفة بيده ، وغطى جسده بالمسوح ورأسه بالرماد ، ولبث فرديناند في انتظار الموت وهو ثابت الجنان ، عامر القلب بالايمان ٠

فلما دنت ساعة العصر من يوم الثلاثاء أسلم روحه ورقد رقدته الأبدية وقد ارتسمت على وجهه امارات الهدوء وكست البسمة أساريره (١٠)

***

تلت هذه الوفاة وفاة أخرى فقد مات المعتضد ملك اشبيلية يوم ٢٨ فبراير سنة ١٠٦٩ م [٤٦٢ هـ] وكان قد ضم قبل ذلك التاريخ بعامين مدينة « قرمونة » الى مملكته واقترف جريمة قتل جديدة اذ طعن بخنجره أحد مواطنى أشبيلية واسمه أبو حفص الهوزنى (١١) ، غير أن الخواطر السوداء ألحت عليه فى السنوات الأخيرة من حياته وراحت تؤرقه ، ولم يعد يخشى أن تأتيه القاصمة من هجمات القشتاليين فيطيحون بعرشه الذى ا٠مه بالمكيدة والخيانة والدهاء وذلك أن نبوءة عرافيه التى تكلمنا عنها من قبل والتى زعمت أن نهاية دولته ستكون على أيدى رجال طارئين على شبه الجزيرة قد وجهت مخاوفه وجهة أخرى ٠

ظل المعتضد زمنا طويلا وهو يظن أن أولئك الطارئين الأغراب انما هم البربر الذين يقيمون على مقربة منه فعمل على استئصال شأفتهم واعتقد بأنه قد تغلب ما أنبأته به النجوم ، ثم عادت الوساوس تقض مضجعه وذلك لظهور فئة من البربر فى جانب العدوة ، وقد سار بهم شخص يكاد يكون نبيا عندهم ونزل بهم الصحراء ،وراحوا يتطلعون لفتح أفريقية فتم لهم فتحها بالسرعة والحماسة اللتين توفرتا للمسلمين الأوائل ، فرأى المعتضد أن غزاة اسبانيا قبما بعد انما هم هذه الجماعات المسماة بالمرابطين،وفشلت كل محاولة من أجل تبديد الخوف الذى استبد بنفسه من ناحيتهم ٠

وفى ذات يوم كان يعيد تلاوة خطاب تلقاه من « سقوت » (*) أمير سبتة يقص فيه عليه خبرا مؤداه أن طليعة جيش المرابطين قد عسكرت فى رحبة مراكش فقال له أحد وزرائه : « وأين رحبة مراكش !!؟ ، ان دونهم اللجج الخضر والمهامه القفر ، والليالى والأيام ، والجماهير العظام !! » فأجابه المعتضد وقد ظهرت فى صوته رنة الأسى : « هو والله الذى أتوقعه وأخشاه ، وان طالت بك الحياة فستراه ٠٠ ، أكتب الى عاملى بالجزيرة باحتراس جبل طارق حتى يأتيه أمرى ، ويريش فى تحصينه ووضع أرصاده » ٠

ثم صوب ناظريه فى أولاده وقال : « ياليت شعرى من تناله معرة هؤلاء القوم : أنا أم أنتم ! » فأجابه المعتمد : « جعلنى الله فداك ، وأنزل بى كل مكروه يريد أن ينزله بك » (١٢) ٠

ولقد ابتلى المعتضد قبل موته بخمسة أيام بشىء من القلق ، وثقل فى جسده وروحه ، فاستحضر اليه مغنيا صقلبيا [اسمه أبو العرب] وطلب اليه أن يغنيه ما يطرأ له ، عاقدا النية على أن يجعل ما يبتدىء به فالا فى أمره ، فأخذ الصقلبى يغنى لحنا جمع بين الحزن والرجاء مما يزخر به الأدب العربى ، واستهل ذلك بقوله :

نطوى الليالى علما أن ستطوينا ‏ ‏ ‏ فشعشعيها بماء المزن واسقينا ٠

ثم أنشد المطرب خمسة أبيات من تلك الأغنية ٠

ومن الصدف العجيبة المؤكدة أن المعتضد لم يعش بعد ذلك سوى خمسة أيام ٠

وبعد يومين من ذلك الحدث أعنى يوم الخميس [٢٦ فبراير] أصيب بجرح عميق مس شغاف حنانه الأبوى ، فقد رأيناه شديد الكلف بأولاده ، عظيم الحب لهم رغم ما طبع عليه من الغلظة ، فقد ماتت احدى بناته وكان شديد التعلق بها ، وسار فى جنازتها مساء الجمعة وقلبه يتفطر حزنا وشجا عليها ، فلما فرغ من دفنها أحس بألم شديد فى رأسه فجاءه طبيبه ، وأدرك أن به نزيفا لابد أن يؤدى الى هلاكه ويفضى به الى الموت ، وأراد الطبيب أن يفصده فأبى المعتضد الاستسلام له وأمره بارجاء الفصد الى يوم السبت غده ، فعاوده النزيف أشد وأقوى من المرة السالفة، حتى انه فقد القدرة على النطق ، ثم ما لبث أن لفظ نفسه الأخير (١٣) ، فخلفه ابنه المعتمد الذى سوف نحاول التعريف به فيما بعد ٠

(★) سقوت بفتح السين وتشديد القاف المضمومة بعدها واو ساكنة وتاء ٠

الفصل التاسع

ابن عمار والمعتمد والرميكية

تفاهة بيئة ابن عمار التي نشأ فيها · أثر ظروف نشأته الأولى في تغلب الشك والكآبة عليه · تعرفه على المعتمد ابن عباد ونزوله أكرم منزلة من نفس المعتمد · تولع المعتمد باعتماد الرميكية وزواجه منها · استجابة المعتمد لكل ما تطلبه وتشير به · كراهية المتدينين لاعتماد · شعر المعتمد في الرميكية · ابن عمار يتولى حكومة شلب وهي مسقط رأسه · مجازاته خيرا لمن كان قد أحسن اليه في متربته ·

ابن عمار والمعتمد والرميكية

ولد المعتمد سنة ١٠٤٠ م [=٤٣٢ هـ] فلما بلغ الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره ولاه أبوه حكومة « ولبة » ، ثم مات بعد أن عهد اليه بقيادة الجيش الاشبيلي المحاصر لشاب حيث تعرف بواحد من المحاصرين لم يكن يزيد عنه في السن بغير تسعة أعوام ، ولكن قدر له أن يلعب دورا خطيرا في حياة المعتمد ٠

كان اسم هذا الفتى المحاصر « ابن عمار » ، وقد ولد في دسكرة من نواحي «شلب» من أبوين عربيين فقيرين مغمورين ، وأخذ نفسه منذ البداية بدراسة الأدب في « شلب » وقرطبة ، ثم راح يذرع رحاب اسبانيا عاملا على كسب ما يمسك عليه حياته بامتداحه كل قادر على رفده بالمال ، ولما كان الشعراء النابهون يرون من الحطة لهم أن ينظموا القصيد في غير الأمراء والوزراء فان هذا الشاب المملق المغمور ، الرث الثياب ، الذي كان يثير سخرية البعض وشفقة الآخرين بعباءته الطويلة وقلنسوته الصغيرة كانت تغمره الفرحة ان تفضل عليه متفضل ممن أثروا على كبر بفتات مائدته نظير ما ينظمه فيه من شعر رائع ٠

وحدث في يوم من الأيام أن بلغ ابن عمار هذا مدينة « شلب » وهو في شدة الضيق ، وليس معه سوى رغيفه في شفائه وهو بغله ، ولم يعرف كيف يلتمس ما يطعمه به ، ولكن شاء حسن طالعه أن يخطر بباله رجل لابد وأن يعاونه اذا شاء ، وهو تاجر ثرى من أهل البلد وان لم يكن يتذوق الأدب ، لكنه كان على جانب من الغرور يدفعه للزهو بما يقال فيه من المديح ، ومن ثم نظم ذلك الشاعر المفلس [ابن عمار] فيه قصيدة وبعث بها اليه وأفضى اليه فيها بما هو فيه من الضيق وما يعانيه من الضنك ، فامتلأ التاجر غرورا بمدح ابن عمار له ، وأنفذ اليه مخلاة ملأها شعيرا ، فلما تسلم ابن عمار الهدية ود لو أن التاجر بعث له معها بأخرى ملأها برا ، الا أنه فرح غاية الفرح ، وسنرى كيف أظهر فيمابعد عرفانه لجميل المتفضل عليه ٠

***

لم يلبث أن ذاع خبر موهبة ابن عمار الشعرية ، وشرف قدره بتقديمه الى « المعتمد » الذي أعجب به غاية الاعجاب ، ولما كان الاثنان

يميلان للهو وممارسة شتى ضروب المغامرات وقرض الشعر الجزل فسرعان ما تأكدت بينهما وشائج الصداقة الراسخة ، ولما دانت « سلب » للمعتمد استعمل ابن عمار واليا عليها ، وبادر بانشاء وظيفة كبرى لصديقه (١) ٠

لم تستطع الايام أبدا أن تمحو من ذاكرة المعتمد الأيام الجميلة التى قضاها فى مدينة « شلب » الفاتنة التى لم يكن من أهلها اذ ذاك الا من يقرض الشعر (٢) ، والتى لا تزال الى اليوم تسمى بجنة البرتغال ، ولم يكن قلب الأمير قد تفتح حتى ذلك الوقت للهوى ، وان كانت بعض نزغات طارئة قد شغلت باله ولكنها لم تلبث أن تلاشت دون أن تترك فيه آثارا عميقة (٣) ، فقد كان ذلك الزمن عنده زمن العاطفة المتأججة ، ولكنه خلاه لغير رجعـة ٠

لم يكن ابن عمار قد درج فى مهاد البلهنية والنعيم والسعادة كما درج الأمير ، بل انه كابد منذ فجر حياته النضال والفشل وخيبة الآمال القاسية والاملاق ، فكان دون مولاه بشاشة طلعة وطلاوة شباب ، ولم يكن يستطيع أن يدفع عن نفسه ما يلاحقها من السخرية ، فكان متشككا فى كثير من الأمور ، وقد حدث فى يوم من أيام الجمعة أن خرج الصديقان الى المسجد ، فسمع المعتمد المؤذن يؤذن للصلاة فارتجل هذا الشـطر : « هذا المؤذن قد بدى بأذانه » ، ثم سأل ابن عمار أن يكمل البيت فرد عليه قائلا : « يرجو بذاك العفو من رحمانـه » ٠

فقال المعتمد : « طوبى له من شاهد بحقيقة » ، فأكمل ابن عمار البيت باسما وقال : « ان كان عقد ضميره كلسانه » (٤) ٠

ومع غرابة هذا الأمر الا أن فى الامكان تفسيره بأنه ادرك منذ زمن بعيد طوية الناس فهو ساخر منهم ، شاك فيهم ، حتى لقد كان يشك فى مودة الأمير الشاب له رغم أنها مودة خالصة من كل شائبة تشوبها ، ولعل عذره فى ذلك أنـه لم يكن يستطيع التخلص من الأوهام السوداء التى كثيرا ما كانت تسيطر على نفسه لا سيما فى أثناء الولائم ، اذ كان يستبد به الحزن كلما زاد فى الشرب ٠ وتروى عنه فى هذا الصدد قصة نادرة عجيبة وقعت له بالفعل ، فقد رواها أصـــدق من يوثق بهم ومن بينهم المعتمد بل وابن عمار ، فقد قيل انه حدث فى ذات ليلة أن دعا المعتمد ابن عمار للعشاء وأخذ يلاطفه أكثر مما جرت به العادة ، فلما فرغوا مما هم فيه انقلب المدعوون الى فرشهم غير ابن عمار فقد استبقاه المعتمد واقسم عليه أن يشاطره فراشه ، فنزل الوزير على طلبه ، ثم ما لبث أن هوم وأغفى ، وحينذاك سمع هاتفا يهتف به : « لا تغتر أيها المسكين فانـه قاتلك ولو بعد حين !! » ، فتملكه الذعر وصحا من غفوته فزعا ، ثم حاول

أن يتخلص من تلك الوساوس السوداء الناجمة عن الخمر وجهد أن ينام ، ولكنه سمع هذا النذير مرة ثانية وثالثة فلم يستطع النوم ولم تغمض له عين ، واعتقد أن هذا هاتف خفي يوحي بما يعجز البشر عن ادراكه ، فتسلل في غاية من السكون والتف في حصير ومضى فربض في أحد أركان دهاليز القصر ، وهو مزمع الانفلات حالما تفتح أبواب القصر ليأتي باب البحر ويركب منه الى العدوة ٠

غير أن المعتمد استيقظ هو الآخر فلما لم يجد رفيقه الى جانبه ندت منه صرخة حادة بادر على أثرها جميع خدمه وأخذوا يجوسون خلال القصر مفتشين عن ابن عمار في كل ناحية من نواحيه ، وصحبهم المعتمد ذاته في التفتيش عنه ، وأراد أن يرى عما اذا كان الباب قد فتح فسار حتى بلغ الدهليز حيث كان ابن عمار مختبئا ، فبدرت من الشاعر حركة عن غير قصد منه ولم يسمع اليها ، واذ ذاك وقعت عينا الأمير على الحصير الذي كان صاحبه ملتفاً به فصاح بمن معه : « ما الذي يتحرك في هذا الحصير ؟ » فجرى الخدم نحوه ونفضوا الحصير فبدى ابن عمار وهو أجدر ما يكون بالرثاء وأحق بالشفقة ، وليس عليه من الثياب غير سرواله وقد ارتجفت أعضاؤه واحمر وجهه خجلا لم يستطع حياله أن يرفع عينيه الى المعتمد الذي ما أن رآه على هذه الصورة حتى انفجر باكيا وسأله : « يا ابا بكر ٠٠ ما الذي حملك على هذا ؟ » ٠

واذ رأى صديقه موصول الرجفة فقد ترفق به وسار واياه الى حجرته محاولا الوقوف على سر مسلكه العجيب هذا ، فبقي فترة غير قصيرة لم يوفق فيها الى الوقوف على ما يريده ٠

ووقع ابن عمار فريسة اضطراب عصبي شديد ، وتناهبه الخجل من السخرية به والفزع مما فعله ، فأنشأ يبكي ويضحك حتى اذا هدأت نفسه أخيرا اعترف بما جرى ، فضحك المعتمد لاعترافه وأمسك بيده في حنان وقال له : « يا أبا بكر٠٠٠هذه أضغاث أحلام ٠٠٠ هذه آثار الخمر ، وكيف أقتلك ٠٠ ؟ أرأيت أحدا يقتل نفسه ؟ وهل أنت عندي الا كنفسي ٠٠٠ ؟ فانس الأمر » ٠

وتناسى ابن عمار الأمر فنسيه على حد قول أحد المؤرخين (٥) ٠

وتوالت الأيام والليالي بعضها في أثر بعض الى أن كان من أمره ما كان مما ستأتي الاشارة اليه ٠

***

كان الصديقان اذا غادرا «شلب» خلفاها الى اشبيلية حيث يمارسان شتى ضروب الملذات التي لا تتوفر الا في هذه العاصمة الرائعة المتألقة ،

وكثيرا ما كانا يمضيان متنكرين الى مرج الفضة على شاطىء نهر الوادى الكبير حيث يختلف الى هنـاك الرجال والنساء بحثا عن اللهو والتسلية وطلبا للترويح عن النفس ، وقد التقى فى هذا المكان المعتمد لأول مرة بتلك الفتاة التي قدر لها أن تصبح رفيقة حياته ، وذلك أنه بينما كان يتجول ذات مساء مع صديقه فى مرج الفضة اذ مس النسيم وجه الماء مسا هينا فجعده . فارتجل المعتمد هذا الشطر « صنع الريح من الماء زرد » ثم سأل ابن عمار أن يجيز الشطرة الثانيـة فعجز ابن عمار ، ولكن قامت بذلك فتاة من بنـات الشعب كانت على مقربة منهما فقالت : « أى درع لقتال لو جمـد » ٠

فتملك العجب المعتمـد أن يسمع فتـاة صغيرة تبز ابن عمـار فى الارتجال ، وكان الارتجال أمرا قد شاع خبره عن ابن عمار ، ثم نظـر المعتمد اليها فشدهه جمالها ، وسرعان ما نادى أحد الخصيان ممن يتبعونه عن قرب وأمره أن يأخذ الفتاة التى ارتجلت هذا الشطر الى القصر ، ثم بادر هو بالرجوع اليـه ٠

فلما جىء بالفتاة اليه سألها من تكون ومكانتها فأجابت :

« اسمى اعتماد ، ويلقبوننى بالرميـكية نسبة الى مـولاى رميـك ابن حجاج ، ومهمتى وضع السرج على الدواب » ٠

فسألها : « اذات بعل أنت ؟ » ٠

فقالت : لا ٠

فقال لها : « أنت لى زوجة » (٦) ٠

***

ظل المعتمد بقية حياته على طولها شديد الولع باعتماد الرميكية ، وصارت هى عنده غاية المنى ، وكان الناس أحيانا يقرنونها بولادة القرطبية: « سافو » ذلك العصر ، ولكن هذه المقارنـة قد تكون صحيحة من بعض الوجوه ، وخاطئة من وجوه أخرى ٠

لم تكن « الرميكية » تستطيع أن ترقى لمنافسة « ولادة » فى المعرفة لانها لم تنصرف للنظر فى الكتب، بيد أنها لم تكن دونها فى حلاوة الحديث ورقة الألفاظ وعذوبة المنطق ، وحضور البديهة ، وكثرة الفكاهة ، وسرعة النكتـة ، بل لعلهـا بزت « ولادة » فى مفاتنها الطبيعيـة ، وسذاجتهـا وبشاشتها ودلالها (٧) ، وقد كانت أهواؤها ورغباتها مؤدية الى سعادة زوجها وشقوته معا ، اذ كان يرى نفسه مضطرا لاستجابة كل ما تطلبه منه مهما تكلف فى سبيل تحقيقه ، وما كان يتأتى لأحد ما أن يزحزحها

عن رأى ارتأته ، وقد حدث فى أحد الأيام فى شهر فبراير أن نظرت من كوة باحدى نوافذ القصر بقرطبة فابصرت الثلج يتساقط قطعا قطعا ، وكان هذا منظرا قل أن يساهد فى هذا البلد الذى لا يكاد يعرف الشتاء ، فاذا بها تنفجر باكية على غير انتظار ، فسألها زوجها : « ماذا بك يا قرة العين ؟ » فأجابته وهى تتنهد : « تسألنى عما بى؟ ··· ويحك من قاس!!· ما أجمل هذا البرد وما أفتن تساقط قطع الثلج !! » فاجابها وهو يكفكف عبراتها التى انحدرت على وجنتها : « أناتك ، وسترين هنا ان شاء الله ما تحبين » ·

ثم أمر بزرع أشجار اللوز على جميع جبال قرطبة عسى أن تكون أزهارها البيضاء التى تتفتح بعد انتهاء الصقيع تعوض الرميكية عن كرات الثلج المولعة بها (٨) ·

وحدث فى مرة أخرى أن شاهدت طائفة من نسوة الحى يعجن الطين باقدامهن العارية لعمل الآجر ، فبكت فسألها زوجها عما يبكيها فقالت :

« واشقوتى وأنا أسيرة هذا القصر !! ··· أما رأيت هؤلاء النسوة على شاطىء النهر ؟ ··· لو ددت لو كنت معهن أفعل فعلهن فأعجن الطين بقدمى العاريتين ··· لكنك فرضت على قيود الغنى والملك » ·

فأجابها الأمير : « حنانيك سيكون لك ما شئت » ·

وبادر فى لحظته فنزل الى ساحة القصر وأحضر كمية كبيرة من السكر والقرفة والزنجبيل ومختلف أنواع الطيوب ، ثم أمر الخدم بخلطها بالماء وعجنهـا بالأذرع حتى صـارت عجينة ، فلمـا فـرغ الخدم من ذلك قال للرميكية : « هلا نزلت الى الساحة وعجنت الطين مع جواريك ؟ » ·

فنزلت السلطانـة وخلعت هى ووصيفاتها نعالهن واخذن يغمسن أرجلهن فى هذا العجين المعطر ، وهن جذلات مرحات ·

كان هذا الهوى غالى الثمن ، وعرف عن المعتمد أنه يستجيب لزوجته المدللة التى لم يكن لرغباتها نهاية ، وحدث فى ذات يوم أن سألت زوجها شيئا لم يستطع تحقيقه لها ، فصاحت به : « واتعسى ··· والله ما رأيت منك خيرا قط !! » ·

فسألها المعتمد فى صوت رقيق ملؤه الحنان : « ويوم الطين ···؟ » ·
فخجلت ولم تصر على طلبها (٩) ·

***

واننا لمضطرون لأن نضيف الى ذلك أن المتدينين كانوا لا ينطقون أبدا اسم هذه السلطانة النشيطة الا مستعيذين بالله ، ويعدونها أكبر

متبة فى سبيل هداية زوجها ، ويقولون انها هى التى تدفعه الى الانغماس فى الملذات والفنن ، واذا راوا المساجد غير عامرة بالمصلين يوم الجمعة نسبوا اليها انصراف الناس عن الصلاة ·

وكانت الرميكية » تسخر منهم ، ولما كانت طائشة غير مكترثة بشيء ما فانها لم تقدر ولم يخطر لها على بال أن سيأتى يوم يغدو هؤلاء الرجال خطرا كبيرا عليها (١٠) ·

على أن حب المعتمد للرميكية لم يغير من بقائه على مودته لابن عمار فلم يزل ، ينزله من نفسه أكرم منزلة ، وحدث فى ذات مرة أن سافر الأمير وانفصل عن الرميكية وكان فى صحبة صديقه فكتب اليها رسالة ضمنها هذه الأبيات الستة :

(ا) أغائبة الشخص عن ناظرى	وحاضرة فى صميم الفؤاد
(ع) عليك السلام بقدر الشجون	ودمع الشئون وقدر السهام
(ت) تملكت منى صعب المرام	وصادفت ودى سهل القياد
(م) مرادى لقياك فى كل حين	فياليت أنى أعطى مرادى
(ا) أقيمى على العهد ما بيننا	ولا تستحيلى لطول البعاد
(د) دسست اسمك الحلو فى طيه	وألفت فيه حروف «اعتماد» (١١)

ثم ختم كتابه اليها بقوله « سالقاك ان شاء الله ربى وشاء ابن عمار » ·

فلما علم ابن عمار بهذه العبارة نظم الأبيات التالية موجها اياها الى رفيقه وفيها يقول له :

مولاى عندى لما تهوى مساعدة
كما يتابع خطف البارق السارى
ان شئت فى البحر فاركبْ ظهر سابحة
أو شئت فى البر فاركب ظهر طيار
حتى نحل ـ وحفظ الله يكلؤنا ـ
ساحات قصرك واتركنى الى دارى
وقبل خلع نجاد السيف فاسع الى
ذات الوشاح ، وخذ للجد بالثار
ضما ولثما ، يغنى الحلى بينكما
كما تجاوب أطيار باسحار

هكذا كان قلب الأمير الشاب موزعا بين الصداقة والحب ، ومن ثم نعم بحياة لطيفة ، الا أن صفو هذه الحياة ما لبث أن تكدر ، فقد نفى المعتضد ابن عمار ، فكان هذا الحادث ضربة شديدة الوقع على الصديقين ... ولكن ماذا يفعلان ...

لقد كان المعتضد رجلا لا يرجع عن قضاء قضى به في أمر ارتآه ، لذلك أمضى ابن عمار فى الشمال ـ لاسيما فى قرطبة ـ أشد سنوات نفيه قسوة ، وظل على هذا المنوال حتى ولى الحكم المعتمد بعد أبيه وله من العمر تسع وعشرون سنة (١٣) ، فبادر الأمير الى استدعاء الف شبابه اليه ، وترك له الحرية فى اختيار ما شاء من الوظائف فى الحكومة ، فقر رأى ابن عمار على تولى حكومة الولاية التى كانت مسقط رأسه ، فأجابه المعتمد الى طلبه رغم ما يرمضه من الأسى لابتعاده عنه وما فى هذا البعاد من فراق (١٤) بينهما .

فلما أخذ المعتمد فى وداعه جاشت نفسه بذكريات أيامه العذاب بشلب ، ورفرفت أمام عينيه صـــور الماضى التى لم تبارح فؤاده أبدا ، فأنشد مرتجلا (١٥) :

ألا حى أوطـانى بشلب أبـا بـكر
وسلهن هل عهـد الوصال كما أدرى

وســلم على قصر الشراجيب من فتى
لــه أبـــدا شـوق الى ذلك القصر

منـــازل آســاد ، وبيـض نواعـم
فناهيـــك من غيـــل وناهيـك من خدر

فـكم ليـلة قـد بت أنعـم جنحهـا
بمخصبـــة الأرداف ، مجدبــة الخصر

وبيـض وســمر فاعـــلات بمهجتى
فعــال الصفـاح البيض والأسل السمر

وليـــل بسـد النهــر لهوا قطعتـــه
بـذات سوار مثـل منعطف البـــدر

نضت بردهـا عن غصن بـان منعم
نضير ، كما انشق الكمام عن الزهـر .

***

ودخل ابن عمار مدينة « شلب » فى أفخم موكب وأروع حاشية لم يتهيأ مثلها للمعتمد ذاته أيام ولايته حكومة هذه الكورة .

لكن الذى يغفر له هذا الزهو هو أنه قام بعمل كريم دل على عرفانه للجميل ، اذ ما كاد يعلم أن التاجر الذى أعانـه فى ضيفه يوم كان هو شاعرا مملقا مجهول الشأن لايزال على قيد الحياة حتى بعث اليه بصرة مملوءة بالدراهم ، ولم تكن هذه الصرة سوى المخلاة التى بعثها اليه التاجر وقد ملاها شعيرا ، وكان ابن عمار قد احتفظ بها حتى يومه هذا ، ولم يكتم عمن أحسن اليه قديما أنه لم يكن قانعا بعطيته اليه ، اذ قال له : « لو كنت ملأتها برا لكنا ملأناها لك تبرا (١٦) » ٠

***

لم تطل ولاية ابن عمار بشلب ، لأن المعتمد لم يطق العيش بعيدا عنه فاستدعاه الى القصر وولاه الحجابة (١٧) ٠

الفصل العاشر

صور من حياة المعتمد

بلاط أشبيلية مجمع فطاحل الشعراء • المعتمد ووصيفه الشاعر ابن وهبون • اللص الباز الأشهب واعجاب المعتمد بحيلته على سبيل الفكاهة • استعمال المعتمد للباز الأشهب فى الشرطة • بعض من حياة المعتمد • منادمته لوداد ومسامرته للونا (قمر) وعشقه لجوهرة • نجاح قرطبة فى القضاء على آل بن جوهر ونفيهم الى شطليش • ظهور ابن عكاشة محمد بن مرتين وعباد بن المعتمد على مسرح الأحداث وخلو الجو لابن عكاشة الذى لا يلبث أن يموت مسموما • المعتمد يقتل ابن عكاشة ثأرا لولده عباد • مطامع ألفونس السادس فى اشبيلية وحيلة ابن عمار فى رده •

كان المعتمد ووزيره ابن عمار يحبان الشعر حبا جما دفعهما لايثاره على كل ما سواه ، ومن ثم أضحى بلاط أشبيلية ندوة يلتقي في رحابها أنبغ الشعراء في يومهم ، أما من دونهم فلم تواتهم الفرصة للظهور به لأن المعتمد كان ناقدا لوذعيا ينقد كل قصيدة ترفع اليه نقد الخبير الألمعي ، ويزن كل عبارة بها بل وكل لفظ حوته (١) . وكان يسرف اسرافا لاحد له في العطف على الشاعر الملهم اذا وفق في العثور عليه ، وقد سمع ذات يوم أحدهم ينشد هذين البيتين :

قل الوفاء فلا تلفيه في أحـــد ولا يمر لانســـــان على بـــال

كأنه عنـــدهم عنقـــاء مغربة أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال

فسأل لمن البيتان ؟ ، فقيل له : « لعبد الجليل [بن وهبون] ، أحد خدم مولانا » . فصاح المعتمد اذ ذاك : « هذا والله هو اللؤم ... رجـل من خـــدامنا والمنقطعين الينا يقول : « أو مثـل ما حـدثوا عن ألف مثقال ؟ » ، وهل يتحدث أحد عنا بأســـوأ من هذا المقال وهذه الأحدوثة ؟ » .

ثم بادر في لحظته وأمر بوصل عبد الجليل بألف مثقال (٢) .

***

وحدث في مرة أخرى أنه كان يتحدث الى أحد الشعراء الصقليين الذين وفدوا على بلاطه بعد فتح « روجر النرمندي » بلادهم ، فدخل عليه بعضهم يحمل جملة دنانير قد ضربت منذ قريب ، فوصل المعتمد الصقلبي منها بخريطتين ، فلم يقنع الشاعر [واسمه أبو العرب] بما أصاب من العطية رغم ضخامتها ، وتطلع بعين الطامع الى تمثال بالقاعة لجمل مصنوع من العنبر ومحلى بالجواهر ، وقال للمعتمد : « ما يحمل هذه الدنانير يا مولاي الا جمل !! » ، فقال المعتمد : « هو لك » (٣) .

وخلاصة القول فالثابت أن المعتمد كانت تعجبه رجاحة الفكر سواء عند الشاعر أو غيره حتى ولو كان هذا اللبيب لصا قاطع طريق ، كما تشهد بذلك قصة « الباز الأشهب » وهو رجل كان من أفتك قطاع الطريق

في زمنه وأعامم وأشدهم خطرا ، وقد انفرد بهذا اللقب وخصه الناس به فكان نعتا له دون سواه ٠

ظل الباز الأشهب يبعث الرعب في قلوب سكان الريف ويدمر ما يملكون حتى وقع في النهاية في يد العدالة ، فأدين فحكم عليه بالصلب على قارعة الطريق لينظر الفلاحون ما حل به ، وكان اليوم المضروب لتنفيذ الحكم يوما حارا قائظا كأشد ما يكون القيظ ، وخلا الطريق ـ أو كاد ـ من المارة الا من زوجته وبناته اللائي وقفن عند أسفل الخشبة التي رفع عليها وهن يقلن : « لمن تتركنا ؟ ٠٠ سوف نضيع بعدك » ، وكان الباز الأشهب رجلا شديدا الحنو على أسرته ، يتشقق قلبه عطفا عليها ، فاشتد جزعه اذ فكر في المتربة التي سوف تلقاها بناته من بعده ، وحدث في هذه اللحظة أن مر به تاجر غريب الدار على بغل وتحته حمل ثياب وجملة من بضائع مختلفة وهو ماض لبيعها في القرى المجاورة ، فصاح به الباز الأشهب : « يا سيدى ، أنظر في أى حال أنا ، ولى عندك حاجة ان تقضها ففيها نفع لى ولك !! » فسأله التاجر « وما حاجتك يا رجل ؟ » ، قال : « أنظر الى تلك البئر ، لما أرهقني الشرط رميت فيها مائة دينار فعسى تحتال فتخرجها ٠٠٠ وهذه زوجتي وبناتي يمسكن بغلتك خلال ما تخرجها. فان فعلت فلك نصفها حلالا » ٠
وتحركت في التاجر شهوة الكسب وتغلبت عليه ، وسرعان ما اجتذب حبلا وشده الى حافة البئر وتدلى وهو ممسك به حتى بلغ القاع ، واذ ذاك قال الباز الأشهب لامرأته : « اقطعي الحبل وخذى ما على البغل ، وفرى ببناتك » ٠

وتم ذلك كله في طرفة عين والتاجر يصيح ويستغيث في الجب كالمجنون فلا يغاث ، وبقي على ذلك ساعة من الزمن غير قصيرة لم يهرع لنجدته أحد ما فقد كان الطريق خاليا من السابلة ، حتى جاءه أخيرا أحد المارة فلم يقو لضعفه على جذبه من البئر فوقف يلتمس عابرا آخر يعاونه في اخراجه ٠

ولما أتيح للتاجر الخروج بعد لأى من محبسه العميق قص على منقذيه اللذين سألاه عن السبب الذى من أجله نزل البئر ، فروى لهما نكد طالعه وهو يصب اللعنات على اللص الذى غرر به واحتال عليه هذه الحيلة الماكرة التي سرعان ما ذاع خبرها في كافة أرجاء البلد حتى تناهت الى سمع المعتمد الذى أمر بانزال الباز من فوق الخشبة وأحضره اليه ، فلما صار بين يديه قال له : « كيف فعلت هذا مع أنك في قبضة الهلكة ؟ » فأجابه اللص : « يا سيدى ٠٠٠ لو علمت قدر لذتي في السرقة لخليت ملكك واشتغلت بها ؟! » ٠

فانفجر الأمير ضاحكا وقال : « عليك اللعنة ... او سرحتك وأحسنت اليك وأجريت عليك رزقا يقيلك أتتوب عن هذه الصنعه الذميمة ؟ » .

فأجابه : « يا مولاى ، كيف لا أقبل التوبة وهى تخلصنى من القتل ؟ » .

وبر الباز الأشهب بعهده ، فما كاد يشغل وظيفة فى الشرطة حتى بث الرعب فى قلوب رفاقه السابقين ، بعد أن كان يثير الفزع من قبل فى نفوس الفلاحين (٤) .

***

لقد تقلب المعتمد فى أعطاف حياة ناعمة لاهية ولم يشغل نفسه كبيرا بأمور الدولة ، حتى لقد قال فى احدى قصائده (٥) :

بالعقل تزدحم الهموم على الحشا   والعقل عندى أن تزول عقول

وقد استنفدت المآدب شطرا كبيرا من وقته ، كما اضطرته رغبته فى تذوق لذائذ الحياة لصرف ما تبقى منه قرب الكواعب الحسان من حريم قصره ، وان لم يمنعه ذلك من البقاء على حبه للرميكية التى ظل هواها فى قلبه عنيفا حبا حتى مات ، لكن لما كان مالوفا عند البعض من أنه لا جناح على السرى أن يكون له هوى مع غير زوجته دون أن يرمى بالتحول عنها ، فقد كان المعتمد يبعث بين حين وآخر بالهدايا الى غيرها من النسوة فلا تغضب الرميكية لوثوقها من سيطرتها على فؤاده .

لقد كانت هناك « وداد » الجميلة وفاتنته ، وكانت اذا شربت مع الأمير أحس للشراب نكهة لا يلقاها مع سواها (٦) .

ثم كانت « لونا » التى تجلس اليه اذ يمضى لقراءة شعر القدماء أو حين يتهيأ لنظم القريض ، وحدث فى ذات مرة أن انسلت الشمس فألقت بأشعتها فى حجرة مطالعته فقامت دونه تستره منها ، فقال فى ذلك :

قامت لتحجب ضوء الشمس قامتها   عن ناظرى : حجبت عن ناظر الغير

علما لعمرك منها أنها « قمر »   هل تكسف الشمس الا صورة القمر؟

وكانت له جاريه تدعى « جوهرة » ، جمعت بين حدة الطبع والحشمة ، فان غضبت لقى المعتمد آلاما جساما فى فثأ غضبها وفى ردها الى الهدوء . وقد حدث ذات مرة أن سخطت عليه فكتب اليها يترضاها ويقدم اليها معاذيره ، فأجابته اجابة كريمة وان لم تضع اسمها أعلاها كما جرت العادة ، فلما رآى الأمير ذلك أنشد يقول (٧) :

لم تصـــف لى بعد والا فلـــم   لم أر فى عنـــوانها « جوهره »

درت بأني عاشـــق باســـمها فلـــم ترد للخيـــظ أن تذكره
قالـــت : لعلـــه اذا أبصره فبـــه ، واللـــه لا أبصره

وما أروع السقم بأبي به السحر !! ٠

لقد دعا الله الأمير أن يمن عليه بالمرض الدائم عساه أن يطالع عند سريره تلك الظبية الفاتنة الوردية الشفتين (٨) ٠

***

قد يخطيء من يظن أن المعتمد كان منصرفا كل الانصراف عن متابعة عمل أبيه وجده من قبل ، فهو وان لم يكن له من الأطماع ما كان لهما الا أنه أخرج الى الوجود ما عجزا عن عمله من قبل ونجح هو فيما لم ينجحا فيه ألا وهو ضم قرطبة الى مملكته فى السنة الثانية من حكمه ٠

حقيقة أن أباه مهد له السبيل ، كما عاونته الظروف معاونة عجيبة ، ذلك أنه قبل هذا التاريخ بست سنوات ، أعنى سنة ١٠٦٤ م [= ٤٥٧ هـ] تخلى أبو الوليـــد [محمد] بن جهور حاكم قرطبة عما بيده الى ولديه عبد الرحمن وعبد الملك فساق الى أكبرهما مهمة الاشراف والجباية ، وجعل للثانى (وكان شديد الميل اليه) قيادة الجند (٩) ، غير أن ادارة الابن الصغير سرعان ما غطت على ادارة أخيه الأكبر ، وان يكن كل شيء قد سار سيرا لا عوج فيه طول المدة التى كانت الادارة خلالها بيد ابن السقاء الذى فرض احترام الحكومة على جميع أعدائها : من ظهر منهم ومن استتر ، وكان من بين هؤلاء المعتضد ذاته الذى أدرك أن تحقيق رغائبه مرهون بما يفعله لاسقاط ابن السقاء ٠

لذلك حاول المعتضد افساد ما بين عبد الملك بن جهور وبين وزيره ، وشاء القدر أن يكسب له النجاح فى تلك المحاولة ، فقد لقى ابن السقاء مصرعه قتلا مما ترتب عليه أوخم العواقب للبلد ، فقد استعفى الضباط والعسكر الذين كانوا شديدى التعلق بالوزير ، كما كره الشعب فى عبد الملك قسوته واهماله ، وبدى لهم أنه يحاول أن يمحو بالتدريج ما بقى قائما حتى ذلك الوقت من النظم الجمهورية ٠

وأخذت قوة عبد الملك فى التدهور منذ أن نهض المأمون صاحب طليطلة لحصار قرطبة فى خريف ١٠٧٠ م [= ٤٦٣ هـ] ولم يكن عند عبد الملك من قوة يدفع بها المغير سوى مائتى فارس ينقصهم التنظيم ، ومن ثم طلب النجدة من المعتمد ونال ما تمنى ، وأمده المعتمد بامدادات هائلة حملت الجيش الطليطلى على رفع الحصار عن قرطبة والارتداد عنها ، الا أن عبد الملك لم يجن من وراء هذا شيئا ما ، فقد راح زعماء الجيش الاشبيلى ينفذون فى السر أوامر مولاهم ، فاتصلوا خفية بأهل قرطبة

وانفقوا معهم على نزع السلطة من يدى عبد الملك ووضعها فى يد مالك أشبيلية ، وتم تدبير هذه المؤامرة بليل فى الخفاء تدبيرا بلغ من احكامه انه لم يخامر شيء خاطر عبد الملك من ناحية القوم ، فلما كان صباح اليوم السابع من رحيل المأمون نهيأ ابن جهور للخروج ليكون فى وداع الاشبيليين الذين كانوا قد أشاعوا أنهم راحلون عن المدينة فى ذلك اليوم ، فما راع عبد الملك الا صيحات الشعب والتبرؤ من أمره تصك سمعه ، فتدبر الأمر ولوى عنان فرسه الى قصره وقد أحدق به الشعب والجند الذين كانوا يتظاهرون بمساعدته وتأييده ، فقبضوا فى هذه اللحظة عليه وعلى أبيه وجميع أهل بيته .

هكذا أصبحت قرطبة فى قبضة المعتمد ، وسيق بنو جهور أسرى الى جزيرة « شلطيش » ، فلم يلبث أبو الوليد الشيخ غير أربعين يوما فارق بعدها الحياة (١٠) .

ويتكلم الملك الشاعر عن هذا النصر كما لو كان هو الذى قام به ، وتنضح عباراته بالزهو اذ يقول (١١) :

خطبت قرطبة الحسناء اذ منعت	من جاء يخطبها بالبيض والأسـل
وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها	فأصبحت فى سرى الحلى والحلل
عرس الملوك لنا فى قصرها عرس	كل الملوك به فى مأتم وجـل
فراقبوا عن قريب ـ لا أبا لكمو ـ	هجوم ليث بدرع البأس مسـتمل

الا أن المأمون لم ير الهزيمة فيما جرى ، بل نراه على العكس من ذلك يصمم على انتزاع قرطبة وامتلاكها مهما تحمل فى سبيلها من المشاق ، فنراه يخرج بصحبة حليفه ألفونس السادس مخربا أرباض المدينة ، الا أن حاكم المدينة عبادا الشاب وابن رميكية والمعتمد (١٢) دفعوه عنها ، وحينذاك ساهم عكاشة فى الاستيلاء على ما كان يتطلع اليه .

***

كان عكاشة رجلا سفاكا للدماء ، كما كان من قبل قاطع طريق يعتصم بالجبال ، ولم تكن تنقصه الكفاءة ، كما أن معرفته بقرطبة كانت معرفة الخبير حيث قدر له أن يلعب دورا فيها من قبل حين كان فى يده أحد حصونها ، فأخذ يدبر المكائد ويحيك المؤامرات بقرطبة ، ولم يكن ذلك بالأمر العسير عليه نظرا لتذمر الكثيرين من أهلها من سير الأحداث بهـا .

حقيقة أن كل ما فى الأمير « عباد » كان يوحى بالأمل المرجو منه ، الا أن صغر سنه لم يكن يسمح له لأن يكون مؤهلا للانفراد بالحكم ، ومن ثم صارت القوة فى يد قائد الحامية « محمد بن مرتين » الذى يظهر انه

نصراني الأصل ، ومع كفاءة هذا الرجل كجندي الا أنه كان فظا قاسيا ، سفاكا للدماء ، وفاجرا مبتذلا ، فكرهه أهل قرطبة ولم يجد الكثيرون منهم أدنى غضاضة في الاتصال بابن عكاشة الذى لم ينجح فى ابقاء مؤامرته طى الكتمان ، اذ لاحظ أحد الضباط أن هذا اللص القديم يكثر من طرق أبواب المدينة ليلا ويتصل بمسكر الحامية اتصالا مريبا ، فحمل هذا الخبر الى الأمير « عباد » الذى لم يكترث بالأمر كثيرا ، وبعث بهذا الضابط الى « محمد بن مرتين » الذى أحاله بدوره علي جماعة من صغار الضباط . والخلاصة أن كلا منهم كان يلقى عبء الأمور على كاهل غيره دون أن يقوم أحد ما منهم بما يفرضه الواجب عليه .

ظل ابن عكاشة دائبا على الترصد له دون أن يكف عنه ، فلما جاء شهر يناير سنة ١٠٧٥ م [= ٤٦٨ هـ] استطاع ان يدخل المدينة مع رجاله ، وكانت الليلة عاصفة ، والدجنة طخياء ، ثم زحف مباشرة على قصر « عباد » وقد خلى من الحرس ، وبينما هو على وشك اقتحام الباب اذا بالبواب يشعر بما يجرى فيوقظ الأمير الذى يهب مع حفنة من العبيد والجند محاولين اعتراض ابن عكاشة والحيلولة بينه وبين ما يريد . وعلي الرغم من شدة صغر سن الأمير الا أنه دافع دفاع الليث عن عرينه وأرغم المهاجمين على الجلاء عن الدهليز ، غير أن قدمه زلت فسقط عليه أحد المتآمرين وقتله ، ثم تركوا جثته بالطريق وهى تكاد تكون عارية اذ كانوا قد أيقظوه من نومه على حين غفلة ، ولم يسعفه الوقت لارتداء ثيـــابه .

سار ابن عكاشة بعد ذلك برجاله الى بيت القائد [محمد بن مرتين] الذى لم يدر بخلده أن سيهاجم الا فى اللحظة التى رأى القوم فيها يحملون على داره ، وكان اذ ذاك يتلهى بمشاهدة الجوارى وهن يرقصن بين يديـــه .

كان محمد بن مرتين دون « عباد » شجاعة ، لذلك ما كاد يسمع قعقعة السيوف فى فناء بيته حتى بادر الى الاختفاء ، لكن القوم كشفوا مخبأه وقبضوا عليه وما لبثوا ان قتلوه .

وبينما كان الفجر يرسل أولى أضوائه ، وبينما كان ابن عكاشة ينتقل من دار الى دار ليضم الى جانبه الأشراف ويحملهم على تأييده اذا بأحد المؤذنين يمر أمام قصر « عباد » وكان هذا المؤذن فى طريقه الى الجامع فأبصرت عيناه جثة عارية هامدة فى الوحل ، فتأملها فعرف فيها الأمير الشاب ، فما كان منه الا أن ترحم عليه وغطاه بعباءته ، ولم يكد يغادر المكان حتى قدم ابن عكاشة الى هذا الموضع بالذات وحوله خليط من أولئك الأوشاب الذين يهتفون فى المدن الكبرى لكل ثورة جديدة .

ولما رأى ابن عكاشة « عبادا » مطروحا أمر بحز رأسه ، وطاف بها القوم شوارع المدينة وقد رفعوها على رمح ، فلما رأت الحامية هذا المنظر ألقت السلاح وحاولت النجاة ولاذت بأذيال الفرار ، وحينذاك جمع ابن عكاشة أهل قرطبة بالمسجد الجامع وأخذ منهم البيعة للمأمون • وعلى الرغم من تعلق الكثيرين منهم بالأمير [عباد] تعلقا كبيرا واخلاصهم له الا أن شدة الفزع وانتساره بين الجميع حملهم على طاعة ابن عكاشة •

ثم قدم المأمون ذاته بعد عدة أيام من هذا الحادث ، وكان مظهره يدل على عظيم تقديره لابن عكاشة فأسرف في تبجيله ، وزعم الناس أن ثقته به لم يكن لها حد ، ولكن الواقع أنه كان يكره في سريرته هذا اللص القديم الذى لا يعف عن ارتكاب الجريمة ، والذى ما كان له ان يتورع عن المبادرة الى قتل المامون ذاته ان دعت الحاجة الى هذا القتل ، كما قتل « عبادا » الصغير بلا شفقة ولا رحمة ، لذلك راح يفتش عن حيلة يتخذها ذريعة ويترقب فرصة تمكنه من ابعاده من مملكته دون أن يثير ضجة ، ولم يكتم خبر هذه الخطة عن المقربين اليه من جلسائه ، وحدث فى ذات يوم من الأيام ان نهض ابن عكاشة لمغادرة المجلس ، فزفر المأمون زفرة طويلة ، ونفضه بعين يتطاير منها شرر الغضب ، ودمدم بكلمات تنذر بالشر ، واذ ذاك جرؤ أحد أصدقاء ابن عكاشة على قول قالة أراد بها الدفاع عنه ، فقال له المأمون : « دعْ عنك هذه الفعاقع • من اجترأ على الملوك لا يصلح للملوك !! » •

وفى شهر يونيو من سنة ١٠٧٥ م [= ٤٦٨ هـ] مات المأمون مسموما بعد مجيئه الى قرطبة بسنة أشهر ، فاتهم أحد رجال حاشيته بأنه المدبر لقتاله ، أفهل يستبعد أن يكون ابن عكاشـــة هو مدبر هذه الجريمـــة ؟؟

***

من ذا الذى يستطيع الانطلاق الى بلاط أشبيلية وتصور الحزن الذى كان يأكل حنايا المعتمد حين تناهى الى سمعه ذلك النبأ المشئوم : نبؤ ضـياع قرطبة ومصرع ابنه البـكر الذى كان متعلقا به تعلق الجاهلى بوثنه •

لقد انطوى هذا القلب النبيل على شعور أنبل وأرفع من الرغبة فى الثأر ، ذلك هو احساسه بالشكر العميق تجاه هذا المؤذن الذى دفعته رقة قلبه لوضع عباءته على جثمان ولده عباد ، وأسف المعتمد لعجزه عن مكافأته لجهله اسمه ، فأنشأ يقول (١٣) :

ولم أدر من ألقى عليه رداءه ــــ سوى أنه قد سل عن ماجد محض

ظل المعتمد ثلاث سنوات يبذل المحاولات دون جدوى لاسترداد قرطبة والانتقام من ابن عكاشة لمقتل ابنه حتى تحقق له الاستيلاء على قرطبة يوم الثلاثاء الرابع من سبتمبر سنة ١٠٧٨ م [= ٤٧١ هـ] . وبينما كان يهم بدخول المدينة من أحد أبوابها كان عكاشة يغادرها من باب آخر ، فبعث المعتمد فى اثره نفرا من فرسانه يقصون أثره حتى قبضوا عليه ، ولما كان هذا اللص القديم يدرك ألا أمل له فى الحصول على عفو الأب المفجوع فى ابنه الصريع فقد اعتزم أن يبيع حياته غالية ، فكر على أعدائه كرة السور الهائج فلم تنفعه غضبته ، اذ أسعفتهم كثرة عددهم بأن تكون لهم الغلبة عليه فأمسكوه وجاؤوا به الى المعتمد الذى أمر بصلبه فصلبوه وجعلوا الى جانبه كلبا .

وتلى سقوط قرطبة سقوط جميع نواحى طليطلة فيما بين نهر الوادى الكبير ووادى آنة (١٤) .

***

كان هذا النصر من الانتصارات الباهرة ، لكن المعتمد كان يحام بالمكافأة ، فلو أننا قارنا المعتمد بجميع ملوك الأندلس لبزهم جميعا ولكان أقوى أمير فيهم ، الا أنه لم يكن أكثر من أى واحد منهم استقلالا ، اذ كان هو الآخر متلهسم فى مرتبة التـــابع يدفع الجزية التى أداها أولا الى غرسية (١٥) ثم الى الفونس السادس من بعده منذ استيلاء الأخير على مملكتى أخويه : شانجة وغرسية .

***

كان ألفونس السادس حاكما شـــديد الوطأة ، لم يكتف بالجزية السنوية يفرضها على أعدائه بل راح يهدد من آن لآخر بضم أملاك أتباعه العرب الى مملكته ، وقد حدث فى احدى المرات أن خرج على رأس جيش كثيف العدد لغزو اقليم أشبيلية مما أدى الى انتشار الذعر بين المسلمين الذين كانوا أضعف من أن يستطيعوا دفعه ، ودب اليـــأس فى قلوب الجميع باستثناء ابن عباد الذى لم يعتمد قيد ذرة على الجيش الاشبيلى ، اذ أدرك استحالة قهر القوات المسيحية بمثل هذا الجيش ، غير أنه كان يعرف « ألفونس » لكثرة تردده على بلاطه (١٦) ، ويدرك فيه طمعه ، وأيقن أنه من اليسير التغلب عليه لمعرفته بذوقه وحيله ، واعتمد على هذا الأمر فبادر الى تنظيم المقاومة الحربية ، وصنع سفرة شطرنج كانت بديعة غاية الابداع ولم يكن عند ملك من الملوك سفرة شطرنج مثلها ، وجعل رموزها من الأبنوس [والعود الرطب] والصندل ، وحلاها بالذهب ثم دخل بها على الفونس فى معسكره ، فأعظم الفونس قدومه اذ كان ابن عمار أحد المسلمين القلائل الذين يقدرهم ألفونس .

ثم جاء يوم أظهر فيه ابن عباد تلك الرقعة من الشطرنج لأحد النبلاء

القشتاليين من خواص ألفونس ، فنقل النبيل خبرها الى مولاه فاستحضر المعتمد وسأله : « كيف أنت فى الشطرنج ؟ » .

قال : « يزعم خواصى أننى فيه طبقة » .

قال : « بلغنى أن عندك سفرة غاية فى الاتقان ؟ » .

قال : نعم !!

قال : كيف السبيل الى رؤيتها .

قال ابن عباد : أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها ، فان غلبتنى فهى لك ، وان أنا غلبتك فلى حكمى .

فقال ألفونس : « هلمها لننظر » .

فحملها ابن عباد الى ألفونس الذى ما أن رآها حتى أعجبته دقه الصنعة وبراعة الاتقان ورسم الصليب على صدره ثم قال : « ما ظننت أن اتقان الشطرنج يبلغ الى هذا الحد » .

وامتـــلأت نفس ألفونس اعجابا بالرقعة فقال للمعتمد : « كيف قلت ؟ » .

فأعاد عليه ابن عباد قوله الأول . فقال الفونس : « لا ألعب على حكم مجهول لا أدرى ما هو ، ولعله شىء لا يمكننى » .

فقال ابن عباد فى هدوء : « وأنا لا ألعب الا على هذا الوجه » .

ثم أمر أحد خدمه برفع السفرة فطواها وحملها الى معسكره .

وانفض المجـــلس .

لكن ابن عباد لم يكن بالرجل الذى يسمح لليأس أن يجد سبيلا الى نفسه ، بل بادر فاتصل سرا بجماعة من النبلاء القشتاليين . وبين لهم ما سيطلبه من الفونس ان تمت له الغلبة عليه ، ووعدهم بمال جزيل ان هم آزروه فى هذا الموضوع ، فاستهواهم الذهب ووثقوا بعهود الأمير العربى وناصروه كما اشتهى اذ كان ألفونس يتحرق شوقا للحصول على هذه السفرة من الشطرنج ، ومن ثم سأل أمراءه الرأى فيما يفعل ، فقالوا : « ان أنت غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك من الملوك مثلها . وان غلبك فما عسى أن يحتكم ؟ ... وان هو طلب مالا يمكن فنحن لك برده عن ذلك » .

وظلوا يحادثونه ويلقون اليه بمثل هذه الأقوال المغرية حتى استطاعوا التغلب على تردده وأجابهم الى ما أرادوا .

وارسل ألفونس الى ابن عباد الذى كان ينتظر بسفرته ، فلما دخل عليه قال له : « قد قبلت ما رسمته ! » •

فرد عليه قائلا : « اجعل بينى وبينك شهودا كفلان وفلان » ، ثم سمى له كثيرا من النبلاء القشتاليين ، فقبل الملك طلبه ، وحضر أولئك الكبراء ، وبدأ اللعب ، فغلبه ابن عباد غلبة ظاهرة ، فقال له : « هل صح أن لى حكمى ؟ » فأجابه الملك : « نعم ، فما هو حكمك » قال : « ان ترجع من هاهنا الى بلادك » •

فاربد وجه ألفونس وامتقع ، وأقامه الهم وأقعده ، وأخذ يذرع الفسطاط فى خطوات واسعة ، ثم قال لخواصه : « قد كنت أخاف من هذا حتى هونتموه على » •

وصمت ساعة من الزمان ثم قال : « سأنكث ، وأنمادى لوجهى » •

فقال له القشتاليون : « قبيح بك أن نفعل هذا ، وكيف يجمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى فى وقتك ؟ » •

ولما هدأت أخيرا فورة ألفونس بعض الهدوء قال لابن عباد : « سأفى لك بعهدى ولا أرجع حتى آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة » •

فقال ابن عباد : « هذا كله لك » •

ثم جاءه ابن عباد بالمال الذى طلبه •

وهكذا سلمت أشبيلية هذه المرة من الغزو الذى كان يهدد وجودها . واطمأن خاطرها بفضل لباقة وزيرها (١٧) •

الفصل الحادي عشر

مطامع ابن عمار ونهايته

تطلع ابن عمار الى مرسية • ولاية أبي عبد الرحمن بن طاهر العربي القيسي • ابن عمار يوثق علاقاته مع الناقمين على ابن طاهر من كبار رجال مرسية •• اتفاق ابن عمار وكونت برشلونة على مهاجمة مرسية • غضب المعتمد على ابن عمار ثم صفحه عنه • اطلاق سراح ابن أخي ريموند والرشيد • ابن عمار وقشير يزحفان على مرسية • الاستيلاء على مولة • دخول ابن عمار مرسية منتصرا واهماله أمر مولاه المعتمد ثم اعتذاره اليه • ابن زيدون الشاعر أكبر الواشين بابن عمار عند المعتمد • ابن عمار يزج بابن طاهر في السجن ويرفض اطلاق سراحه • هرب ابن طاهر الى بلنسية ومحاولة ابن عمار اثارة أهلها ضده • ابن عمار يهجو صاحبه ابن عباد ويعرض بالرميكية • تأليب الجند على ابن عمار وهروبه الى الفونس ليساعده في استرداد بلنسية • السباق بن ابن عمار وابن رشيق في التقرب من الفونس •• تقلب ابن عمار بين الولايات والحكام ووضع نفسه في خدمة المؤتمن • أسر بني سهيل لابن عمار وبيعهم اياه للمعتمد • ابن زيدون يهينه ويؤجج الحقد في نفس ابن عباد على ابن عمار • المعتمد يقتل ابن عمار •

مطامع ابن عمار ونهايته

لم يكتف ابن عمار بانقاذ مملكة أشبيلية بل تطلع ايضا الى بسط حدودها لا سيما على حساب ولاية « مرسية » التى كانت فى بادىء الأمر جزءا من أملاك زهير ، ثم صارت تابعة لمملكة « بلنسية » ، غير أنها استقلت بتدبير أمورها ابان الحقبة التى نتكلم عنها ، حيث كان يحكمها « أبو عبد الرحمن بن طاهر » الأمير العربى الأصل ، القيسى القبيلة .

كان ابن طاهر وافر الثراء اذ كان يمتلك نصف الولاية ، كما كان في الوقت ذاته على حظ عظيم من الثقافة (١) . لكن لبس تحت يده من العسكر غير شرذمة ضئيلين ، فكان من السهل غزو ولايته وهو أمر لم يفت انتباه « ابن عمار » الذى قام في (٢) سنة ١٠٧٨ م [= ٤٧١ هـ] فاخترق مرسية ميمما وجهه شطر كونت « برشلونة » واسمه « ريموند بيرانجر » الثاني ويلقب بصاحب القلنسوة الكتانية Cap d'Etoupe نظرا لكثافة شعره ، ولا ندرى الدافع لابن عمار على القيام بتلك الحركة ، ولكنه اغتنم هذه الفرصة فوثق وشائج المودة بينه وبين فريق من أشراف « مرسية » الناقمين على ابن طاهر ، أو بلفظ أدق بالمستعدين لخيانته اذا تقدم أحد اليهم بالمال يرشوهم به .

ولما وصل ابن عمار الى « ريموند » عرض عليه عشرة آلاف دينار اذا قبل معاونته على غزو مرسية ، فقبل الكونت عرضه ، واكد قبوله ودفع ابن أخيه الى ابن عمار تأكيدا للاتفاق فوعده الوزير من جانبه بتسليمه الرشيد بن المعتمد قائد الجيش الاشبيلى ان لم يصل المال فى الوقت المتفق عليه ، الا أن المعتمد كان يجهل هذا الشرط ، ولم يكن يدور بخلد ابن عمار أن الحاجة ستدعو لتطبيقه يقينا منه بأن المال لابد واصل فى حينـــه .

وخرجت قوات اشبيلية للغزو وانضمت اليها قوات ريموند ، وهاجم الفريقان ولاية مرسية ، غير أن ما طبع عليه المعتمد من التوانى والابطاء أدى الى التقصير في الوفاء بالشرط المتفق عليه ، مما خيل معه للكونت أن ابن عمــار قد غرر به ، فقــام فى سورة غضبه والقى القبض على « الرشيد » الذى لم يفلح الجنود الاشبيليون فى انقاذه ، فقد دارت عليهم الدائرة ولحقت بهم الهزيمة واضطروا الى الارتداد .

كان المعتمد اذ ذاك فى طريقه الى مرسية . وكان الى جانبه ابن أخى الكونت واتسم زحفه بالبطء ، فلما بلغ ضفاف نهر الوادى اليانع الذى

عجز عن عبوره نظرا لتلاطم أمواجه رأى على الجانب الآخر من النهر فريقا من جنده الفارين من المعركة ، ومن بينهم فارسان يحملان اليه تعاليم ابن عمار ، وسرعان ما دفع هؤلاء الجند دوابهم فخاضت بهم النهر وجاوزوه الى حيث يوجد المعتمد فذكروا له الأحداث المؤلمة التى جرت ، وأضافوا الى ذلك قولهم ان ابن عمار يأمل ألا يطول الوقت عليه لاسترداد الحرية . وسألوا الأمير ـ على لسانه ـ أن يبقى حيث هو ، فلم يلق سمعا الى طلبهم بل اشتد به الذعر من جراء الأخبار التى تناهت الى سمعه ، ولم يطمئن باله على مصير ولده ، فنقهقر حتى بلغ « جيان » بعد أن قيد ابن أخى الـــكونت .

بعد عشرة أيام من ذلك الحادث وصل ابن عمار وقد أطلق سراحه الى مقربة من « جيان » الا أنه لم يجرؤ على المثول أمام المعتمد خوفا من غضبه عليه ، واكتفى بأن بعث اليه بالأبيات التالية :

أأسلك قصدا أم أعوج عن الركب؟ ... فقد صرت من أمرى على مركب صعب
وأصبحت لاأدرى أفى البعد راحتى ... فأجعله حظى ؟ أم الحظ فى القرب؟
اذا انقدت فى أمرى مشيت مع الهوى ... وان أتعقبه نكصــــت على عقبى
على أننى أدرى بأنـــك مـــؤثر ... على كل حال ما يزحزح من كربى
أهابك للحق الذى لك فى دمى ... وأرجوك للحب الذى لك فى قلبى
أيظلم فى وجهى لذا قمر الدجى ... وتنبو بكفى صفحة الصارم العضب؟
حنانيك فمن أنت شاهد نصحه ... وليس له غير انتصاحك من «حسب»
وما جئت شيئا فيه بغى لطالب ... يضاف به رأى الى العجز والعجب
ســـوى أننى أســـلمتنى لملمة ... فللت بها حدى وكسرت من غربى
وما أغرب الأيام فيما قضت به ... ترينى بعدى عنك آنس من قربى
أمـــا انه لولا عوارفـــك التى ... جرت جريان الماء فى الغصن الرطب
لما سمت نفسى ما أسوم من الأذى ... ولا قلت ان الذى فيما جرى ذنبى
سأستسمح الرحمن لديك ضراعة ... وأسأل سقيا من تجاوزك العذب
فان نفحتنى من ســـمائك مرجف ... سأهتف : يابرد النسيم على قلبى

أما المعتمد الذى لابد أن قد أحس أنه هو الذى أخطأ بتراخيه فلم يعارض دعوة ابن عمار فى تذكيره بصداقته ، ورد عليه قائلا :

لـــدى لك العتبى تراح من العتب ... وسعيك عندى لا يضاف الى ذنبى
وأعزز علينا أن تصيبك وحشـــة ... وأنسك ما تدريه فيك من الحب
فدع عنك ســـوء الظن بى وتعده ... الى غيره فهو المـــكن فى القلب
قريضك قد أبدى توحش جانب ... فراجعت تأنيسا، وعلمك بى حسبى
تكلفتـــه ، أبغى به لك ســلوة ... وكيف يعانى الشعر مشترك اللب

ولمـــا أفــرخ روع ابن عمار بهذا الرد خف الى مولاه وانطرح على قدميه ، واتفقا على اطلاق سراح ابن أخى الكونت واعطاء ريموند العشرة آلاف مثقال المتفق عليها ، على أن يطلق هو الآخر « الرشيد » من عنده ، غير أن ريموند لم يقنع بالمال المتفق عليه فيما بينهما بل طالب بثلاثين ألف دينار ، ولما لم يكن لدى المعتمد حينذاك هذا القدر من المال فقد زيف سبيكة عظيمة وسكها عملة ، وشاء حسن حظه ألا يفطن الكونت لهذه الخديعة الا بعد اطلاقه سراح الرشيد (٣) ٠

***

لم يكف ابن عمار عن طمعه فى الاستيلاء على « مرسية » رغم هذا النجاح الضعيف الذى انتهت اليه محاولته الاولى ، فقد ادعى أنه تلقى كتبا تبعث فيه الآمال الجسام ، وأن هذه الكتب قد أنفذها اليه فريق كبير من أشراف « مرسية » ، وأدخل ذلك فى روع المعتمد الذى أذن له أخيرا بالخروج بالجيش الاشبيلى لمحاصرة « مرسية » ٠

ولما بلغ ابن عمار قرطبة مكث بها أربعا وعشرين ساعة ضم خلالها الى جنده من كان بهذه المدينة من العسكر ، وقضى الليلة بصحبة حاكمها ابن المعتمد واسمه « الفتح » الذى أعجب ببراعة أحاديثه وحدة ذكائه ، اذ جاء أحد الصبيان الى ابن عمار ينهى اليه أن الفجر كاد أن يتنفس ، فزجره الوزير وارتجل هذا البيت :

اليك عنى فليلى كله صبح وكيف لا وسميرى الحاجب الفتح

تابع ابن عمار زحفه حتى قارب حصنا كان لا يزال يسمى حتى ذلك الوقت بحصن « بلج » زعيم عرب الشام فى القرن الثامن ، وكان الحصن فى يد رجل من قبيلة « بلج » ينعت بقشير (٤) فخف هذا العربى المدعو بابن رشيق لمقابلته ، وعرض عليه النزول بحصنه حتى يستجم ، فلبى ابن عمار دعوته وتلطف صاحب الحصن به حتى وثق به ابن عمار ، ولم يخطىء فى ثقته بهذا الصديق الجديد الذى صحبه ، وزحفا على مرسية وحاصراها ، ولم تلبث « مولة » ان استسلمت لابن عمار وكان فى هذا الاستسلام ايذان بشر مستطير لأهل « مرسية » اذ كانت مؤونتهم تصلهم من هذه الناحية ، ولم يخامر ابن عمار الشك فى أن المدينة ذاتها لن تلبث هى الأخرى أن تذعن له ، وعهد الى ابن رشيق بحراسة « مولة » وان لم يترك بها من فرسانه الا نفرا قليلا ، ثم انكفأ هو الى « أشبيلية » ببقية عسكره ، فلما بلغها وصلته رسائل قائده ينهى فيها اليه أن المجاعة أهلكت « مرسية » ، وأن جماعة من وجوه أهلها الموعودين بأرفع المناصب قد مدوا يد المعونة للمحاصرين بها ، واذ ذاك قال ابن عمار : « كأنكم بفتح مرسية من غد الى بعد غد ؟ » ، وتحققت نبوءته فقد فتح جماعة من

الخونة أبواب المدينة لابن رشيق ، وزج بابن طاهر فى الحبس ، وقام جميع السكان فبايعوا المعتمد (٥) .

لم يكد ابن عمار يتلقى هذا الأنباء حتى تملكته الفرحة وازدهاه الفرح ، وطلب من المعتمد أن يأذن له بالاقامة فى البلد المفتوح فأجابه المعتمد لما أراده ، وحينذاك رأى الوزير أن يحسن مكافأة أهل « مرسية » المكافأة الطيبة ، فأهداهم كثيرا من الخيول والبغال التى ساقها من قصر مولاه ، وحمل غيرها الى أصحابه ، وحملها بالثياب الغالية ، ثم أخذ فى الرحيل بين دق الطبول وخفق البنود ، وكان كلما مر ببلد ترك به بعض المال ، ثم دخل « مرسية » دخول الظافر ، فلما كان اليوم التالى جمع أهلها وخرج اليهم بمظهر الملك عاصبا رأسه بقلنسوة طويلة لم يكن من عادة المعتمد لبسها الا فى الأعياد الكبرى ، ولما شرع الناس يرفعون اليه حاجاتهم راح يمهرها بعبـــارة « ينفذ هذا ان شاء الله » مسقطا اســـم المعتمـــد .

لم يكن هذا المسلك من ابن عمار الدال على اعجابه بنفسه الا دليلا على تمرده ، أو لعل هذا ما رآه المعتمد الذى لم يسلم نفسه للغضب ولكن استولى عليه الأسى والقنوط ، ورأى بعينيه حلم خمسة وعشرين عاما يتبدد فى لحظة ، وأدرك أنه كان مخدوعا فيما أوحاه اليه قلبه ، وأيقن أن مودة ابن عمار له وتظاهره بالنزاهة وشدة الاخلاص لم تكن الا افكا وتضليلا ، ولربما كان ابن عمار فى الحقيقة على الصورة التى ظنه عليها مولاه ، الا أنه لم يكن يفكر أبدا ولم يكن يدور بخلده أن يتمرد على ولى نعمته ، ولما كان ابن عمار مفسطا قليل الانفعال فانه لم يشعر نحو المعتمد بالصداقة العنيفة الفائرة التى كان المعتمد يظهرها له ، ومع ذلك فقد كان ابن عمار يضمر الحب الصادق لمولاه ، تشهد بذلك الأبيات التى وجهها اليه ردا على لومه اياه :

لك المثـــل الأعلى وما أنا حارث ... ولا أنا ممن غـــيرته الحـــوادث
ولا شـــاركته الشمس فيئا وانه ... لينـــأى بحظى منك ثان وثالث
فديتك : ما للبشر لم يسر برقه ... ولا تفحت تلك السجايا الدمائث
أظن الذى بينى وبينـــك أذهبت ... حـــلاوته عنى الرجـال الأخابث
تنكرت ؟ لا انى لفضـــلك ذاكر ... لدى ، ولا أنى لعهـــدك ناكث
ولـــكن ظنون ســـاعدتها حمائم ... كما ساعدت صوت المثانى المثالث
أبعد انقضا خمس وعشرين حجة ... تجافت لنا عنها الخطوب الكوارث
مضت ، لم ترب منى أمور شوائب ... ولا تليت عنى مســـاع خبائث
حللت يدا ، بى هكـذا وتركتنى ... نهابا ، ولـــلايام أيد عـــوابث
وهل أنا الا عبد طاعتـــك التى ... اذا مت عنها قام بعـــدى وارث

أعـــد نظرا ، لا توهن الرأى انه ... قديما كبـــا هاف وأدرك رائث
ستذكرنى ان بان حبلى، وأصبحت ... نبيد بكفيـــك الحبـــال الرثائث
وتطلبنى ان غـــاب للرأى حاضر ... وقد غاب منى للخـــواطر باعث

ومن يدرى لعل لحظة من اللقاء تجمع بينهما كانت كافية لتبديد سوء ظن المعتمد بوزيره وتعيد هذين الصديقين الى سابق عهدهما الذى كانا عليه !! •

لكن واأســـفاه !!

لقد كان كل من الأمير والوزير بعيدا عن الآخر كل البعد ، وكان لابن عمار فى اشبيلية رهط من الحساد والأعداء الذين لم يكفوا عن افتراء الأكاذيب عليه ، ويصورونه فى صورة تقذى لها عين الأمير ، وقد تمكن هؤلاء « الوشاة » كما سماهم ابن عمار فى احدى قصائده تمكنا عجيبا من الأمير فسيطروا عليه كل السيطرة ، ومن هؤلاء « الوشاة » (٦) الوزير أبو بكر بن زيدون (٧) ، أوسع رجال ذلك العصر نفوذا فى القصر ، فقد استطاع أن يشكك المعتمد فى صدق محبة ابن عمار له منذ أن طلب الوزير الاذن له بالشخوص الى « مرسية » • أضف الى ذلك أن ابن عمار وجد عدوا لا يقل عن ســـابقه خطورة فى شخص ابن عبد العزيز أمير « بلنسية » وحليف ابن طاهر وصديقه •

***

حين بلغ ابن عمار « مرســـية » عنى باظهار أحسن المعاملة تجاه ابن طاهر فلم يقصر فى البعث اليه بكثير من الثياب الغالية ليختار منها ما يعجبه ، غير أن ابن طاهر كان مطبوعا على السخرية المريرة ، وزاد من حدة غضبه ضياع ولايته من يده ، فرد رسول ابن عمار قائلا له (٨) :
« قل لمولاك الأمير اننى ما أريد سوى هذه الجبة والعمامة » •

فلما وقف ابن عمار على رده قال : « والله لقد عنانى يوم كنت فقيرا وجئت أنشده شعرى » •

لم ينفر عرق لابن طاهر من هذه الصفعة القاســـية التى جرحت كبرياءه ، وقد زج به فى حصن « منت أقوط » (٩) •

استجاب المعتمد لتوسلات ابن عبد العزيز فبعث الى وزيره يأمره باطلاق سراح ابن طاهر ، فتغافل ابن عمار عن أمره (١٠) ، لكن ابن طاهر تمكن من التخلص من حبسه بفضل المعونة التى قدمها اليه ابن عبد العزيز ومضى فأقام ببلنســـية فاستشاط ابن عمار غضـــبا ، واذ ذاك نظـــم
ومضى فأقام ببلنسية فاستشاط ابن عمار غضبا ، واذ ذاك نظم قصيدة يحث فيها أهل بلنسية على التمرد والثورة على أميرهم ، وكان مما جاء فيها قوله (١١) :

يا أهلهـا من غائب أو حاضر وقطينها من راسـخ أو طـارى
جاروا بنى عبد العزيز ، فانهـم جروا اليـكم أسـوأ الأقـدار
ثوروا بهم متأولين وقلـدوا ملكا يقـوم على العدو بنـار
هذا محمـد أو فهـذا أحمـد وكلاهما أهل لتلـك الدار
جاه الوزير بهـا يكشـف ذيلها عن سـوأة سوأى ، وعار عارى
نكث اليمين وجار عن سنن التقى وقضى على الاقبـال بالادبـار
بر اليمين ولـم يعرض نفسـه ونفوسـكم لمصـارع الفجار
هبهات تطمع فى النجـاة لطالب ساع – اذا دنت الكواكب – سارى
كيف التفلت بالخديعة من يـدى رجل الحقيقة من بنى عمـار ؟

فلما تناهى خبر هذه القصيدة الى سمع المعتمد رعف أنفه غضبا وتسعر حنقا على ابن عمار ، ونظم أبياتا سخر فيها منه ، فقال :

كيف التفلت بالخـديعة من يدى رجل الحقيقـة من بنى عمـار
الأكثرين مسـودا ومملكـا ومتوجا فى سالف الأعصـار
والمؤثرين على العيـال بزادهم والضـاربين لهامة الجبـار
الناهضين من المهود الى العـلا والمنهضين الغار بعد الغـار

ما أن سـمع عبـد العزيز هذه الأبيات حتى أفرحته وان أغضبت ابن عمار الذى نظم قصيدة أولغ بها فى هجاء المعتمد والنيل من الرميكية ومن بنى عباد أجمعين ، وقد تجرأ ذلك المغامر المولود فى المهانة والذى رفعته مودة المعتمد الى مكانة سامية فتطاول على بنى عباد وقذفهم بأنهم لم يكونوا سوى مزارعين مغمورين فى نواحى « يومين » أو « أم القرى » ، كما قال فى احدى قصائده ساخرا ، وتابع كلامه قائلا :

تخيرتها من بنـات الهجين « رميكية » ما تسـاوى عقـالا
فجاءت بكـل قصـير العـذار لئيم النجـارين : عمـا وخـالا
قصـار القدور ، ولكنهـم أقاموا عليهم قرونا طـوالا

غير أن – بقية من خجل منعت ابن عمار من الجهر بتلك الأبيات التى نظمها فى لحظة لم يستطيع التحكم فيها فى زمام غضبه ، فلم يعلم بها سوى أقرب خواصه اليه ومن بينهم رجل يهودى وافد من الشرق وثق به ابن عمار ثقة صار معها عنده غير ظنين أو متهم فى ولائه له ، ولم يدر بخلد ابن عمار أنه عين من عيون ابن عبد العزيز . وتيسر الأمر لهذا اليهودى فحصل على نسخة من هذا الهجاء بخط ابن عمار نفسه فانفذها الى أمير « بلنسية » الذى بادر بكتابتها الى المعتمد ، وطيرها باحدى الحمام الزاجل ، مدرجة طى كتاب منه اليه .

واستحال الوفاق بين الأمير والوزير ، ولم يتسن للمعتمد ولا للرميكية ولا لأبنائهما أن يغفروا لابن عمار هجوه المقذع ولا نيله البذيء منهم الا أن ملك أشبيلية لم تكن حاجته مثل حاجة وزيره ، فقد تكفل غيره بهذه المهمة ٠

انصرف ابن عمار انصرافا تاما الى صبواته ، ولم يدر بخلده أن ابن رشيق سوف يغدر به بمعونة أمير بلنسية ، ولم يدرك حقيقة الأمر الا وقد تم الأمر ، فقد حرك ابن رشيق الجند على ابن عمار فألحوا فى مطالبتهم اياه بما تأخر من رواتبهم ، فلما عجز ابن عمار عن مرضاتهم هددوه بتسليمه الى المعتمد فارتعدت أوصاله جزعا ، ورأى السلامة فى الفرار السريع ٠

والتمس ابن عمار النجاة عند الأذفونش ، مؤملا أن يعاونه فى استرداد «بلنسية» لكن خاب فأله اذ تمكن ابن رشيق بهداياه السنية من استمالة الأذفونس اليه ، فقال لابن عمار : « انما مثلك مثل السارق (١٢) سرق السرقة فضيعها حتى سرقت منه ، فسرقها غيره (١٣) فضيعها ، فسرقها غيرهما » (١٤) ٠

فانبت حينئذ كل أمل لابن عمار من ناحية مملكة ليون ، ومن ثم شخص الى سرقسطة حيث خدم المقتدر ، غير أن بلاطه كان دون بلاط اشبيلية روعة وفخامة ، فلم يطلب له المقام به فغادره الى « لاردة » التى كانت تحت حكم « المظفر » أحد أخوة المقتدر الذى رحب به أجمل ترحيب ، الا ان ابن عمار رأى أن « لاردة » أقل أنسا من «سرقسطة» فعاد اليها حيث كان « المؤتمن » قد خلف أباه المقتدر (١٥) ٠

استولى الضجر على نفس ابن عمار ، والضجر خطر مخيف ، وامتد كالسحابة السوداء على يومه وغده ، وعلى حاضره ومستقبله ، ومن ثم اعتبر نفسه سعيدا ان هو أتيحت له الفرصة للخروج من سكونه حيث ثار أحد أصحاب الحصون ، وكانت لابن عمار معرفة سابقة بهذا الثائر ، فتعهد للمؤتمن باخضاعه له وزحف عليه فى نفر قليل ، حتى اذا بلغ سفح الجبل الذى يقوم على قمته الحصن طلب ابن عمار من الثائر أن يأذن له فى زيارته غير مستصحب معه سوى رجلين فقط ، فلم يسىء صاحب الحصن الظن بابن عمار وبادر فلبى طلبه ، واذ ذاك قال ابن عمار لخادميه : جابر وهادى : « صبا سيفيكما عليه اذا رأيتمانى أماشيه ويدى فى يده » ٠

وقضى صاحب الحصن نحبه مقتولا فالقى جنده بأيديهم الى ابن عمار مستشفعين به فأمنهم ، وحفظ المؤتمن لابن عمار يده هذه عليه ، ثم لم يلبث

ان أخذ يترقب فرصة جديدة ينفس فيها عن نشاطه الجم ، فأراد أن يحصل للمؤتمن على « شقورة » التى كانت تقوم على قمة جبل صعب المرتقى صان لها استقلالها ، ثم استولى عليها « سراج الدولة » بن علی أمير « دانية » وبقيت « شقورة » خاضعة له مدة من الزمن ، فلما مات « سراج الدولة » طمع القائمون بالوصاية على ــ أولاده ــ وهم بنو سهيل ــ فى بيع « شقورة » الى أحد الأمراء المجاورين لها ، غير أن ابن عمار كان قد وعد المؤتمن أن يستخلصها له كما استخلص له من قبل الحصن الذى أشرنا اليه . ومن ثم سار على رأس جماعة من الجند وطلب من بنى سهيل أن يأذنوا له بلقائهم ، فاستجابوا له ، ولكن بدلا من أن يوقعهم ابن عمار فى شراك حبالله وقع هو فيما نصبوه هم له ، اذ كادوا له ثأرا لاساءة سبقت منه اليهم أيام ولايته « مرسية » .

كانت أطراف هذا الحصن شديدة المنعة بفضل وجود هوة شديدة الانحدار ، فاذا أراد أحد دخول الحصن كان لابد له من الاستعانة فى الصعود اليه بساعديه ، فلما بلغ ابن عمار هذه الناحية بصحبة خادميه جابر وهادى أحس بمن يجذبه الى فوق ، ولم تكد قدماه تمسان الأرض حتى أحدق به جند الحامية ونبهوا رفيقيه أن يهربا بأنفسهما ان كانا يطمعان فى الحياة ويكرهان الموت بحد السيف ، فانطلقا على وجهيهما حاملين لجند سرقسطة نبأ وقوع ابن عمار فى الأسر ، فحاول الجند انقاذه فلم يفلحوا فيما حاولوا ولم يحققوا ما ارتجوه ، فعادوا من حيث أتوا .

زج بنو سهيل بابن عمار فى السجن ، ثم عزموا على بيعه لمن يغلى لهم الثمن ، فقدر للمعتمد أن يشتريه وأن يشترى أيضا حصن « قشورة » ، وكلف ابنه الراضى بأخذ الأسير الى مدينة قرطبة التى دخلها ذلك الأمير المنكود وهو يرسف فى أغلاله ، وقد أركبوه بغلا ووضعوه بين عدلى تبن ، وانهال المعتمد عليه تقريعا ، وأطلعه على الهجاء المقذع سائلا اياه عما اذا كان يعرف صاحبه .

أما الأمير الذى كان غير قادر على الوقوف لثقل الأغلال التى يرسف فيها فقد أنصت صامتا لا يستطيع النطق ببنت شفة ، وعيناه الى الأرض ، حتى اذا فرغ الأمير من تقريعه اياه قال له ابن عمار : « ما أنكر شيئا مما يذكر مولانا أبقاه الله ، ولو أنكرت لشهدت به على الجمادات فضلا عمن ينطق ، ولكنى عثرت فأقل عثرتى ، وزللت فاصفح » ، فرد عليه المعتمد قائلا : « هيهات ، هيهات ، انها عثرة لا تقال » .

***

أما نساء القصر اللائى عرض بهن ابن عمار فى هجائه فقد انتقمن منه بأن أسرفن فى السخرية اللاذعة به ، كما سلقته عامة أشبيلية بشتائمها

وطال بقاؤه فى الأسر بالمدينة مما أحيى فى نفسه ميت الأمل ، وكان ابن عمار يعرف كثيرين من ذوى المكانة الرفيعة ومن بينهم « الرشيد » فتحدثوا فى شأنه الى المعتمد ، وكتب اليه بعضهم فى استصلاح أمره ، أضف الى هذا أن ابن عمار لم يكف عن استعطافهم بما يبعثه اليهم من شعره ، بيد أن المعتمد ضجر من كثرة توسلات القوم اليه من أجله ، ومن ثم أمر أن تمنع عنه كل ادوات الكتابة ، حتى كان يوم التمس فيه ابن عمار أن يسمح له بالورق والقلم والدواة فجاؤوه بما طلب فأنفذ الى المعتمد قصيدة طويلة حملها بعضهم ذات مساء اليه وهو على شرابه ، فلما انفض السامر شرع يتلوها فحركت عاطفته ، فاستقدم اليه فى حجرته ابن عمار وعـاد يؤنبه من جديد لجحـوده منته عليه وكفرانه بجميله اليـه ، فغص ابن عمار بالدموع وشرق بالقول ، وعجز عن الرد ، حتى اذا هدأت نفسه انطلق لسانه بأعذب بيان يشيد بذكر السعادة التى رضعا افاويقها معا من قبل ، فسكنت ثائرة المعتمد قليلا ، وكاد أن يغلب على عزمه وخاطبه خطابا سكن من روعه ولكنه لم يجزم له بالعفو عنه ٠

***

لعل أشد ضروب نكد الطالع هو أن نفجع فى الآمال التى نرجوها ، ومما يؤسف له ان ابن عمار تنكب الصواب فى تقدير مشاعر المعتمد نحوه، فقد تأتى له أن يشاهده ساخطا عليه أشد السخط ، ثم أبصر سكونه فقدر أمرا لم يجر بحسبان مولاه ٠

كانت نفس المعتمد لا تزال تنطوى على شيء من العطف على ابن عمار، لكن هذا العطف كان أبعد من أن يصل الى العفو عنه ، وقد أخطأ ابن عمار التقدير فما كاد يعود الى مطبقه حتى اعتقد أنه عائد عن قريب الى سالف منزلته ، فلم يستطع كتمان فرحته التى هزت فؤاده هزا ، فكتب الى الرشيد كتابا يفضى فيه اليه بالخاتمة السعيدة التى تمخض عنها لقاؤه بالمعتمـد ٠

وتلقى الرشيد الكتاب وهو فى جماعة من الناس ، وبينما هو يطالعه اذا بوزيره عيسى يلقى نظرة خاطفة سريعة على الكتـاب ولكنها كانت كافية لايقافه على مضمونه ، فأذاع عيسى الخبر ، وقد يكون فعل ذلك بسبب ثرثرته أو كراهيته لابن عمار ، وتناهى النبأ الى سمع أبى بكر ابن زيدون على صورة فيها أشد المبالغة ، وزاد القوم فى رسالة ابن عمار زيادات قبيحة حتى ليقول أحد المؤرخين انه « ينزه كتابه عن ذكرها ، ويمسك عن ايرادها » ٠

وبات ابن زيدون على جمر الغضا ، اذ عرف أن فى رجوع ابن عمار الى سالف مكانته اقصاء له هو نفسه عما هو فيه بل ربما أدى ذلك الى القبض عليه وقتله ٠

وجاء الصباح ، فلم يدر ابن زيدون ما يصنع ٠

وبقي ملازما داره لم يغادره حتى حانت الساعة التى جرت العادة أن يكون فيها بالقصر فغاب عنها ، فالتمسه المعتمد فلم يجده ففتش عنه فلم يقف له على أثر ، فبحث فى طلبه حتى جاءوه به فأدنا المعتمد مجلسه منه كدأبه فى كل يوم ، فأفرخ روع ابن زيدون ، وتأكد أن موضعه عنده غير مغموز ولا مهدد كما كان يظن ، فلما سأله الأمير عما حجبه عنه هذا الوقت الطويل أجاب بأنه اعتقد أن مكانته عنده قد تراجعت ، ثم أفضى اليه فى الوقت ذاته عما يتحدث به الناس فى مجالسهم بكل مكان عن خبر لقائه بوزيره السابق « ابن عمار » ، وأنهم يرجفون بعودته الى سابق سطوته ، وكان « ابن سلام » ـ صديق ابن عمار وابن بلده وعامل شرطة المدينة ـ قد قام فهيأ فى داره جناحا كأحسن ما يكون الجناح لنزول ابن عمار ، ثم خرج ابن زيدون ، دون ان تكون ثمت حاجة لمزيد من القول وذكر الأراجيف التى يرجف بها الناس ٠

فلما سمع المعتمد ما سمع طفح كيل الغضب فى نفسه ، ولم تكن الكراهية والحقد على أسيره مبعث هذا الغضب بقدر ما كان من غضبه من زهو ابن عمار وان يكن زهوا باطلا ، اذ سمع بضع ألفاظ رقيقة فقدر منها اطلاق حريته وعودته الى سالف مكانته وبأسه ٠ لذلك أحضر المعتمد أحد الخصيان الصقالبة وقال له : « اذهب الى ابن عمار وقل له كيف وجد السبيل ـ مع الترتيب ـ الى افشاء ما أخذت معه البارحة » ٠

وسرعان ما عاد الخصى اليه وهو يقول : « ان ابن عمار يقول انه لم يفعل ولم يقل شيئا ما » ، فقال المعتمد : « ولكنه يستطيع الكتابة ٠٠٠٠ ألا قل له : « الورقتان اللتان استدعيتهما ، كتبت فى أحديهما القصيدة ، فما فعلت بالأخرى ؟ » ٠

فمضى الخصى اليه وعاد يقول : « يدعى ابن عمار أنه بيض فيها القصيدة » ٠

فقال المعتمد : « قل له : هلم المسودة » ٠

وحينذاك لم يستطع ابن عمار انكار الحقيقة فقال : « كتبت فيها الى الرشيد أفضى اليه بما منانى به الأمير » ٠

فلما سمع المعتمد قوله هذا ثار فى عروقه دم أبيه الطاغية الذى كان كالنسر اذا ما وقع على فريســـته مزقها اربا وأطفأ ثورته بتمزيق أحشائها ٠

ثم استبد الحنق بالمعتمد الذى تناول أول سلاح صادفه وهو طبرزين رائع كان ألفونس قد أهداه اليه ، وأخذ يثب الدرج المؤدى الى الحجرة التي أغلقت على ابن عمار الذى ما كاد يرى نظرات المعتمد الغاضبة حتى صعق ، فقد رأى الموت واضحا فى قسمات وجهه ، فزحف في قيوده وانكب باكيا مقبلا قدمى المعتمد الذى لم يشفق عليه بل علاه بالطبرزين ولم يزل يضربه في مواضع مختلفة من جسده حتى أسلم الروح وسكنت جثته وبردت أطرافه (١٦) ·

على هذه الصورة كانت خاتمة حياة ابن عمار وهى خاتمة دامية ، وقد أثارت فى أسبانيا العربية عاطفة قوية وان لم تدم طويلا ، اذ جدت بطليطلة أحداث جد خطيرة ، واتجهت الأفكار اتجاها آخر من جراء تقدم الجنود القشتاليين ·

الفصل الثانى عشر

اذلال الفونس لملوك الطوائف

اطماع الفونس السادس فى الأندلس واستنزافه أموال المسلمين .. القادر يلجأ الى الفونس ليحميه من غضبة شعبه · الفونس يبالغ فى قدر الجزية على المعتمد على لســـان سفيره اليهودى الذى لا يحتمل المعتمد عجرفته فيطلبه · تخريب الفونس لشذونه ودخوله طليطلة فيأخذ منها مالا كبيرا ويتسلم بعض الحصون · دخوله طليطلة منتصرا واعلان الأمراء طاعتهم له ولكنه يزدريهم · تطلعه الى غيرها من الولايات · قائده غرسية جيينز يكثر من الاغارة على المريـة وغرناطة · اختلاف الآراء حول فـكرة الاستعانة بالمرابطين · اجابات يوسف بن تاشـــفين الغامضـــة واستفتاء الفقهاء فى هذا الموضوع · حملته على الجزيرة الخضراء ثم زحفه على أشبيلية وصف لقائه مع المعتمد · اصطدام الفونس بالمرابطين فى زلاقة وانتصار المرابطين · انهيار الثقة بين الجيوش الاسلامية بعضـها وبعض ·

اذلال الفونس لملوك الطوائف

وجه الامبراطور ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة وغاليسيا ونفارة كل اهتمامه للاستيلاء على جميع أرجاء شبه الجزيرة (١) ، وكان الفونس من القوة بالدرجة التي تمكنه من انجاز مشروعه ، الا أنه رأى أن يتريث بعض الوقت ، ورغب ألا يتعجل الأحداث حتى يستعد للأمر فيجمع أكبر قدر مستطاع من المال اذ هو عصب الحرب وأضمن السبل للوصول الى الغاية التي يصبو اليها والهدف الذي ينشده ، ومن ثم وضع الأمراء المسلمين بين شقي الرحى ، واذا كانت المعصرة تعصر التفاح فتخرجه خمرا فانه راح يعتصر الذهب من هؤلاء الأمراء .

وربما كان أضعف الأمراء حولا وقوة هو « القادر » ملك طليطلة الذي درج في بلهنية القصور ونعيمها ، وكان ألعوبة في أيدي خصيانه ، وسخرية في أعين جيرانه الذين راحوا يتنافسون فيما بينهم على تجريده مما بيده ، ولم يكن له من حام يذب عنه سوى « أذفونش » الذي توجه اليه القادر حين عجز عن استرضاء قومه الذين سئموا طغيانه وكرهوا منه استبداده ، فوعده « ألفونس » بأن يرسل اليه قوات من عنده ، ولكنه طلب لقاء هذا الصنيع مبلغا ضخما من المال ، فدعى القادر اليه وجوه أهل بلده . وسألهم اسعافه بالمال الذي يفرضه « ألفونس » ، فانكروا عليه طلبه ورفضوا سؤاله فصاح بهم : « أقسم لئن لم تحضروا هذا المال الذي طلب في لحظتي هذه لأجعلن عند الفونس رهينة جميع من عندكم من العيال والبنين ! » ، فأجابوه : « لقد خلعت نفسك بما قلت وبما أزمعت عليه وعولت » .

والواقع أن الطليطليين أسلموا الأمور الى « المتوكل » صاحب بطليوس ، مما اضطر القادر الى التسلل لواذا تحت جنح الظلام الى الفونس يلتمس من جديد معونته ، فقال له الامبراطور : « نحن ماضون لحصار طليطلة على أن تجعل أموالها في يدي ، وأعطني حصن سرية وحصن قتورية رهنا على ذلك » ، فاستجاب القادر لكل مطالب الفونس ، وابتدأت الحرب (٢) ضد طليطلة سنة ١٠٨٠ م [= ٤٧٣ هـ] .

استمر النضال مدة عامين ثم أرسل الامبراطور - كما هو دأبه - سفارة الى المعتمد يطلب منه الجزية السنوية ، وكانت هذه السفارة تتألف

من فريق كبير من الفرسان ووكل باستلام المال رجلا يهوديا اسمه ابن شاليب (٣) ، اذ كانت العادة قد جرت فى تلك الأيام أن يقوم اليهود بالوساطة بين المسلمين والمسيحيين ·

عسكر السفراء خارج المدينة وأمر المعتمد جماعة من رجاله على رأسهم حاجبه « أبو بكر بن زيدون » بحمل المال الى أولئك السفراء ، ولكن المال الذى حملوه كان دون ما ينبغى على المعتمد تأديته لأنه لم يكن فى حال تمكنه من جمع هذا المبلغ الكبير على الرغم من فحش الضرائب التى فرضها على رعيته ، فلما رأى ابن شاليب اليهودى ما رأى من المال صاح : « لا آخذت منه هذا العيار ولا آخذت منه الا ذهبا مشجرا ، ولا يؤخذ منه فى هذا العام الا أجفان البلاد » ·

فلما سمع المعتمد ما قاله اليهودى استبد به السخط وصاح فى جنده : « ائتونى باليهودى دون أصحابه واقطعوا حبال الخباء » فعمل أصحابه بما أمرهم به ، فلما جاء الرسل الى القصر قال المعتمد : « اسجنوا النصارى واصلبوا هذا اليهودى » ·

فصاح اليهودى وقد فارقه كبرياؤه وارتجفت أوصاله رعبا : « لا تفعل وأنا أفتدى نفسى منك بزنتى مالا » ·

فقال له المعتمد : « لو أعطيتنى العدوة والأندلس ما قبلتهما منك » ·

وتم صلب اليهودى (٤) ·

ما كاد خبر هذا الحادث يتناهى الى سمع ألفونس حتى أقسم بالثالوث المقدس وبجميع الرسل ليكونن انتقامه فظيعا حاسما ، وقال : « لا أرفع يدى عنه ، وساحشد من الروم عدد شعر رأسى ، وأصل بهم الزقاق !! » · غير أنه لم يكن قادرا على ترك فرسانه القشتاليين يكابدون الضيق ويعانون الموت فى غياهب سجون اشبيلية ، ومن ثم سأل المعتمد أن يوافيه بالشروط التى يطلبها لقاء اطلاق سراحهم ، فطلب المعتمد منه أن يرد عليه حصن (٥) « المدور » فلما صار فى يده أفرج عن الفرسان (٦) الذين ما كادوا يصلون الى موطنهم حتى قام ألفونس فنفذ وعيده بأن خرب قرى « الغرب » وأحرقها ، وأعمل فى الناس القتل والأسر ، وفتك بالمسلمين الذين لم يسعفهم الوقت بالاعتصام بأحد الأماكن الحصينة ، وظل مقيما على حصار أشبيلية ثلاثة أيام ، خرب فيها كورة «شذونة» وبلغ الساحل الرملى على مقربة من « طريف » ، ثم دفع جواده فخاض ضحضاح الماء وقال : « الآن وطئت شط الزقاق ! » ·

واذ بر بيمينه وأرضى كبرياءه زحف على رأس جيشه الى مملكة طليطلة (٧) ·

وقدر لجيش الفونس أن ينتصر في طليطلة أيضا مما دفع المتوكل الى اخلاء البلد له ، وفتح سكان العاصمة أبوابها للقائد الذى نهب منهم أموالا جساما قدمها لألفونس الذى قال له فى برود عجيب : « هذا غير كاف ! » ، فقدم اليه القـادر مرة أخرى ثروة أبيـه وجده ، فقال له الفونس : « وهذا ما يكفينى ! » ، فقال له القادر : « أمهلنى أحمل اليك غيره » فقال الملك : « لك ما طلبت ، لكن أسلمنى بعض القلاع هنا » .

فنزل القادر على أمره ، وهكذا تمزق ميراث القادر ، واستنزف كل ما لديه من الثروة لكن ترى ما الذى كان مستطيعا عمله .. ؟ .

لقد كان يعرف أن سيف الفونس البتار مصلت على عنقه يحزه ان بدرت منه أدنى بادرة من العصيان ، لذلك راح « القادر » يعطى الامبراطور الذهب بعد الذهب ، ويسلمه الحصون تلو الحصون ، الا أن ذلك كله لم يقنع ألفونس فاضطر القادر ان يسرف فى الضغط على رعيته حتى خلت المملكة من سكانها ، وذلك أنهم أدركوا أن لا قبل لهم باحتماله فهاجروا زرافات الى بلاد ملك « سرقسطة » ، غير أن ذلك كله لم يشفع للقادر عند ألفونس بل كان يزداد فى الالحاح عليه بما يطلب منه ، حتى اذا أقسم القادر له أن قد خوى وطابه عاث الامبراطور فسادا فى أرباض طليطلة وظل القادر فترة من الزمن وهو شديد التمسك بعرشه المنخوب ، الا أنه تخلى فى النهاية عن تمسكه الذى لا جدوى منه ، ومن ثم ذهب الى حيث كان ألفونس فى انتظاره فأنبأه بتخليه عن طليطلة له ، ولكنه اشترط عليه شروطا كان أهمها ما يلى (٨) :

« أن يؤمن من فيها من المسلمين على أنفسهم وأموالهم وذويهم وبنيهم . ومن أحب منهم التنقل لم يمنع منه ، ومن أحب المقام لم يلزمه سوى أداء الجزية على عدد من عنده من الأشخاص ، وان رجع بعد رحيله نزل عما كان بيده من عقار دون تعرض عليه فى كثير » .

« وأن يترك لهم المسجد الجامع » .

« وأن يتكفل بارجاع القادر الى بلنسية » .

وقبل الامبراطور [ألفونس السادس] هذه الشروط ، حتى اذا كان يوم ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ م [= ٤٧٨ هـ] دخل ألفونس عاصمة المملكة القوطية القديمة (٩) .

واذ ذاك لم يعد ثم شيء يعادل كبرياءه الا خمول شأن الأمراء المسلمين وضآلة قدرهم وتفاهة شأنهم . فقد بادروا جميعا تقريبا الى بعث رسلهم لتهنئته على ما أصاب من الفتح العظيم ، وبعثوا اليه بهداياهم ، وأنهوا

اليه رغبتهم فى أن يشاركهم فى بلادهم ، وأن يكونوا عمالا له بها ، وجباة يجبون اليه أموالها ·

على أن ألفونس « حاكم أهل الملتين » كما لقب نفسه فى رسائله لم يمن مطلقا بكتم احتقاره الذى دفعوه للشعور به نحوهم ، من ذلك ان حسام الدولة [بن رزين] صاحب « السهلة » نهض اليه بنفسه حاملا هدية عظيمة القدر سعى بها للتقرب اليه ، وكان الامبراطور [ألفونس] حين دخوله عليه يتلهى بمشاهدة قرد يطفر امامه ، فقال ألفونس لحسام الدولة ساخرا به : « جزيتك على هديتك بهذا القرد ! » فلم يشعر الأمير المسلم بادنى غضاضة ، ورأى فى هذه الهدية دليل الود ، وأصبح يراها جنته مما كان يحذر من ألفونس من خلعه من ولايته التى بيده (١٠) ·

بعد ان فرغ ألفونس من طليطلة جاء دور « بلنسية » ·

كان يتنازع السلطة فى بلنسية ولدا عبد العزيز ، ثم ظهر حزب ثالث أراد أن يسوقها الى ملك سرقسطة ، كما قام فريق رابع كان يعمل لنقلها الى المقتدر ، وكانت الغلبة لهذا الفريق الأخير ، والواقع أن القادر كان له كل ما يساعده على أن تكون بلنسية له ، اذ كان يشد أزره من الخلف جيش قشتالى بقيادة القائد الكبير « ألفار فاينز » وهو يكلف أهل بلنسية ستمائة دينار يوميا ، وقد زعم أهلها للقادر ألا حاجة له الى هذا الجيش طالما هم مخلصون له ، باقون على خدمته ، الا أن القادر لم يكن من البلاهة بالدرجة التى تحمله على الوثوق بهم والركون الى أقوالهم لعلمه بمدى مقتهم له ، وأن الأحزاب القديمة لم تزل تطمع فى الوثوب عليه ، ومن ثم استبقى القشتاليين ، كما عمد الى فرض ضريبة باهظة اثقلت كاهل المدينة وما حولها ، وكان قصده من هذا دفع أعطيات الجند ، كذلك استلب مبالغ ضخمة من الأشراف ، غير أن أعمال الاضطهاد المروع لم تكن كافية فى نظر « ألفار فاينز » اذ أخذ يلح على القادر بدفع رواتب الجند المتأخرة الحاحا أفضى بملك بلنسية الى أن يجد نفسه ذات يوم وقد أصبح على شفا الافلاس ، وحينذاك لم ير بدا من أن يعرض على القشتاليين الاقامة فى مملكته نظير اقطاعهم أراضى شاسعة ، فقبلوا عرضه وجلبوا العبيد للفلاحة وزرع تلك المساحات الشاسعة من الأرض ، كما أثروا الثراء الفاحش من وراء الغزوات التى دأبوا على شنها على البلدان المجاورة سلبا ونهبا ، كما ازداد عددهم بمن انضم اليهم من أوشاب العرب ؛ الى جانب من انخرط تحت لوائهم من العبيد وسفلة القوم وطريدى العدالة ممن نبذ الكثيرون منهم الاسلام ، وكان هؤلاء وهؤلاء جموعا وفيرة العدد ، واشتهرت هذه العصابات بارتكاب الشرور لما طبعت عليه من الفظاظة والاسراف فى قتل الرجال وهتك أعراض النساء ، وطالما باعوا

الأمير المسلم لقاء رغيف من الخبز أو كأس من الخمر أو رطل من السمك ، وكان الأمير اذا عجز عن افتداء نفسه أو امتنع عن ذلك وثبوا عليه فقطعوا لسانه وسملوا عينيه وتركوه للكلاب تنهشه (١١) ٠

على أن واقع الأمر أن بلنسية كانت اذ ذاك فى قبضة ألفونس لوجود الجزء الأكبر من أرضها فى حوزة القشتاليين ، وكان ضم هذه المدينة الى أملاك ألفونس مرهونا بكلمة تخرج من فمه رغم أن القادر كان لا يزال يلقب بملكها ٠

وكان يبدو أيضا أن مدينة « سرقسطة » كانت هى الأخرى على وشك الضياع ، اذ قام الامبراطور [ألفونس] بمحاصرتها وأقسم لتدينن له (١٢) ٠

كان هناك فى الطرف الآخر من اسبانيا أحد قواد الفونس واسمه « غرسية جينز » وقد أقام مع قوة من الفرسان فى حصن « الليط » على مقربة من » لورقة » ، واتخذ الاغارة على مملكة « المرية » (١٣) عملا موصولا ظل يدأب عليه ، ولم يهمل شأن غرناطة فقد حدث فى ربيع ١٠٨٥ م [= ٤٧٨ هـ] أن تقدم القشتاليون حتى بلغوا قرية « نبرة » التى تقع على مسيرة فرسخ شرقى غرناطة وقاتلوا مسلميها (١٤) ٠

كان الخطر محدقا بالمسلمين فى كل مكان ، واستحكم الضيق فلم يعد أحد يجسر على المقارنة بين المسلمين والمسيحيين ، فكان خمسة من الأولين دون واحد من النصارى ، وقد حدث قبل ذلك بقليل أن خرجت نخبة منتقاة من الجند قوامها أربعمائة رجل من أهل « المرية » فلم تلبث أن ولت الأدبار أمام ثمانين من القشتاليين (١٥) ، وأصبح من الواضح أنه اذا ترك عرب اسبانيا وشأنهم لما كان أمامهم الا أن يسلكوا أحد طريقين : أما الاستسلام للامبراطور [ألفونس السادس] أو الهجرة جميعا ٠

والواقع أن الكثيرين منهم مالوا للأخذ بفكرة مغادرة البلاد ، وفى ذلك يقول أحد الشعراء :

يا أهل أندلس حثوا مطيكمو فما المقام بها الا من الغلط (١٦)

ومع ذلك فقد كانت الهجرة أمرا مستصعبا على نفوسهم ، شديد الايلام لها ، ولم يقدموا عليها الا فى كثير من الألم والمشقة ، غير أنهم لم يكونوا قد فقدوا كل شىء اذ لا زال فى استطاعتهم تلقى الامدادات من أفريقية التى أمل البعض أن يكون خلاص الأندلسيين مما هم فيه على يد أهلها ، ومن ثم اتفق الرأى على مكاتبة بدوها ٠ ولكن ظهر من يعارض هذا

الرأى ويسفهه ، ذاهبا الى أن فطاطلة هؤلاء البدو أعظم من شجاعتهم ، وخاف الأهاون أن يمضى الافريقيون ـ حين تطأ أقدامهم أرض الأندلس ـ فينهبون المسلمين ويسلبونهم ما بقى فى أيديهم بدلا من محاربتهم النصارى (١٧) ٠

لذلك فكروا فى الاستغاثة بالمرابطين وهم بربر الصحراء الذين قاموا اذ ذاك بتمثيل أول دور لهم على مسرح الدنيا ، وكانت هدايتهم الى الاسلام على يد مبشر من « سجلماسة » ، واتسمت فتوحاتهم بالسرعة الفائقة ، وامتدت امبراطوريتهم ـ ابان العصر الذى نتكلم عنه ـ حتى شملت جميع الأراضى الواقعة فيما بين بلاد السنغال والجزائر ٠

كان الفقهاء أعظم الناس ترحيبا بفكرة استدعاء المرابطين الى الأندلس ، أما الأمراء فقد طال ترددهم تجاه هذه المسألة ، وكان فريق منهم ـ كالمعتمد والمتوكل ـ تربطه بيوسف بن تاشفين ـ ملك المرابطين ـ روابط الود ، حتى طلب منه هذان الاثنان فى مناسبات عدة أن يساعدهما فى نضالهما ضد المسيحيين ، غير أن الأمراء على وجه العموم دون استثناء المعتمد والمتوكل كانوا لا يميلون كثيرا الى زعيم هؤلاء المحاربين الغلاظ المتعصبين من أهل الصحراء ، ورأوا فى يوسف بن تاشفين منافسا خطيرا أكثر مما رأوا فيه نصيرا لهم ، على أنه لم تعد هناك أمامهم مندوحة عن طرق سبيل النجاة الذى بقى أمامهم حين أخذ الخطر يتفاقم شدة يوما بعد يوم ، ولم يغب ذلك الأمر عن بال المعتمد فقد حدث أن نبهه ابنه الرشيد الى الخطر الجسيم الذى يعرض نفسه باستدعائه أولئك المرابطين لوطء اسبانيا ، فقال له المعتمد : « والله ٠٠٠ انه لأحب الى أن ألقى الله هكذا من أن ألقاه وقد حالت الأندلس دار كفر ، وانه لأولى بى أن أكون راعى الجمال من أن أكون راعى الخنازير » (١٨) ٠

ولما استقر رأى المعتمد على هذه الخطة أفضى بها الى جارية « المتوكل » صاحب « بطليوس » و « عبد الله » ملك غرناطة (١٩) ، وسألهما أن يشاركاه فى هذا الأمر وأن يرسلا قاضييهما الى أشبيلية ، ففعلا ما طلبه منهما ، اذ أرسل المتوكل الى أشبيلية أبا اسحق بن مقانا « قاضى بطليوس ، وبعث عبيد الله اليها أبا جعفر القلعى » قاضى الجماعة بغرناطة ، وانضم اليهما [أبو بكر عبيد الله] بن أدهم قاضى الجماعة بقرطبة والوزير أبو بكر بن زيدون ، فأبحر هؤلاء الأربعة الى الجزيرة الخضراء ، وأدركوا يوسف بن تاشفين ودعوه باسم ملوكهم للنهوض بجيشه الى الأندلس (٢٠) ، وكان الواجب يقتضيهم ذكر الشروط التى لا ندرى شيئا ما عنها ، بل ان كل ما نعرفه هو أنه كان على يوسف أن يقسم ألا يحاول الاستيلاء على أملاك الأمراء الأندلسيين وأن يقيم على هذه اليمين (٢١) ٠

وبعد أن فرغ الرسل من ذلك راحوا يختارون ليوسف البقعة التى يرسو فيها ، فاقترح ابن زيدون أن تكون جبل طارق ، الا أن ابن تاشفين آثر الجزيرة الخضراء ، واقترح أن يتخلى له أصحابها عنها ، فأجابه وزير المعتمد أن اجابة هذا الطلب خارجة عن سلطته ، ومن ثم فترت همة ابن تاشفين فى معاملة السفراء واتسمت اجاباته لهم بالغموض والابهام ، فعادوا الى بلادهم وهم يجهلون الناحية التى استقر رأيه على النزول فيها ، ومع أنه لم يعدهم وعدا باتا بالحضور الا أنه لم يذكر لهم أنه محجم عنه .

وترتب على هذا أن احتك الشك فى صدر الأمراء الأندلسين ، واشتد بهم الكرب شدة دلت على مدى شكوكهم فى نواياه .

أما يوسف بن تاشفين فقد جمع فقهاءه الذين جرت العادة ألا يبرم أمرا دون مشورتهم ، وسألهم أن يمحضوه النصح فيما ينبغى عليه عمله ، فأجمعوا على أن واجبه يحتم عليه ـ قبل كل شيء ـ أن ينهض لمقاتلة القشاليين ، ثم يحق له بعد ذلك الاستيلاء على الجزيرة الخضراء ان كان لا يزال فى حاجة اليها ، ورفض القوم التخلى له عنها ، فلما تزود يوسف بهذه الفتوى أصدر أمره الى كثير من قواته بركوب البحر من « سبتة » فملأوا مائة سفينة وأقلعوا شطر الجزيرة الخضراء التى وجدت نفسها ـ على حين فجأة ـ محاطة بجيش كثيف يجاوز كل ما يمكن أن تسعه أرضها أو توفر له المئونة ، وأوقع فى يد حاكمها « الراضى » اذ لم يكن يدور بخلده أن يرى ما هو جار أمامه ، ولم يرفض تقديم الطعام للمرابطين ، لكنه كان فى الوقت ذاته مستعدا لدفع القوة بالقوة ان دعت الحال لاستعمال القوة . أضف الى ذلك أنه كتب الى أبيه يسأله الرأى ، وأرسل كتابه مدرجا على ذيل حمامة يممت شطر أشبيلية ، ولم يطل انتظاره للرد فقد وافاه رد المعتمد على جناح السرعة ، ذلك انه على الرغم مما ينطوى عليه مسلك يوسف من الازعاج والاثارة الا أنه رأى استحالة التراجع ، ورأى أيضا أن الواجب يقتضيه ألا يقابل السوء بالسوء بل بالاحسان ، ومن ثم أشار على ولده باخلاء الجزيرة الخضراء والارتداد (٢٢) الى « رندة » واذ ذاك أبحرت الى الجزيرة الخضراء قوات جديدة ، ثم جاء يوسف بنفسه فى النهاية .

كان أول ما اهتم به يوسف وشغل نفسه به هو العمل على تقوية حصون المدينة وامدادها بالميرة والذخائر الحربية واقامة حامية كبيرة بها ، فلما فرغ من ذلك كله رحل الى أشبيلية على رأس معظم عسكره ، فخف للقائه المعتمد وهو بين كبار وأعيان موظفى دولته ، فلما صار فى حضرته حاول تقبيل يده فأبى عليه يوسف ذلك وعانقه عناقا دل على الود المكين ، ولم ينس المعتمد الهدايا التى جرت العادة باهدائها فى مثل هذا الموقف ، فقدم عددا وافرا منها الى ابن تاشفين المرابط ليصل جنده ببعضها ، غير

ان الهدايا برهنت ليوسف برهانا صادقا على عظم ثراء بلاد الأندلس ٠

وأقام القوم على مقربة من أشبيلية حيث انضم الى المرابطين حفيدا « باديس » وهما عبد الله أمير غرناطة وتميم صاحب « مالقة » ، وكان الأول في ثلاثمائة فارس ، والثاني في مائتين ، كما بعث المعتصم صاحب « المرية » فريقا من الفرسان بقيادة أحد أبنائه معتذرا عن عدم القدوم بنفســه لخوفه من مجاورة بدو « الليط » ، ثم سار الجيش بعد ذلك بثمانية أيام في طريق « بطايوس » حيث انضم اليه المتوكل بجنده ، وتابع الجميع الزحف الى طلىطلة (٢٣) ، الا أنهم ما كادوا يشرعون في السير حتى صادفوا العدو ٠

كان ألفونس لا يزال محاصرا « سرقسطة » حين تناهى اليه الخبر بان المرابطين قد أرسوا باسبانيا ، وقد ظن ألفونس أن ملك « سرقسطة » يجهل خبر وصـــــول الافريقيين ، ومن ثم بعث الى « المستعين » يخبره باستعداده لرفع الحصار عن المدينة ان دفع اليه مبلغا كبيرا من المال ، غير أن الأمير كان قد علم هو الآخر مثله بالنبأ العظيم ، فرد عليه بأنه لن يعطيه شيئا حتى ولو كان درهما واحدا ، واذ ذاك عاد ألفونس الى « طليطلة » بعد أن بعث الى « الفار فاينز » وقواده الآخرين ينهي اليهم أمره بالحضور والانضمام اليه بمن معهم من العسكر ٠

فلما التأم شمل جيشه ـ وفيه كثير من الفرنسيين ـ أخذ في الزحف ليقاتل في بلاد العدو ، والتقى بالمرابطين وحلفائهم عند قرية قريبة من « بطليوس » ، وعلى كثب من ناحية يسميها المسلمون « زلاقة » ويعرفها النصارى باسم Sacralias

لم يكن ألفونس قد فرغ بعد من ضرب معسكره حين جاءته رسالة من يوسف بن تاشفين يدعوه فيها الى الاسلام أو دفع الجزية ، وينذره بالحرب ان هو أعرض عن عرضه ، فاستشاط ألفونس غيظا واحتد حدة عمياء من هذه الرسالة وأناط بأحد عماله العرب الرد عليها معلنا أنه لم يكن يتوقع مثل هذه العروض الجارحة المهينة من المسلمين الذين دأبوا على دفع الجزية له منذ عدة سنوات ٠ أضف الى هذا أنه كان تحت يده جيش قوي من المحاربين يستطيع معاقبة العدو وردعه ٠

لم يكد هذا الجواب يصل الى ديوان الرسائل الاسلامي حتى بادر أحد الأندلسيين الى الرد عليه ، فلما وقف يوسف على الرد رأى أن الكاتب قد أطال في الجواب ، فاكتفى هو بأن كتب على هامش كتاب الامبراطور هذه العبارة الموجزة : « سترى ما سيكون » ثم رده اليه (٢٤) ٠

وشرع يوسف بن تاشفين بعد ذلك في تحديد يوم الوقعة حسبما

كانت العادة تجرى ابان ذلك الوقت ، واتفق الرأى على أن تكون يوم الخميس الثانى والعشرين من أكتوبر ١٠٨٦ م [= ٤٧٩ هـ] وفى ذلك اليوم بعث ألفونس برسالة الى المسلمين يقول لهم فيها : « الجمعة لكم والأحد لنا ، فليكن الزحف يوم السبت » (٢٥) فلم يعارض ابن تاشفين .

لكن المعتمد رأى المكيدة فى خطة المرابطين . وادرك أنه اذا بدأ الهجوم نلقى هو هجمة العدو الاولى لوجود جند الأندلس فى المقدمة ، بينما يكون المرابطون فى الخلف مختفين وراء الجبال ، ومن ثم احتاط للأمر حتى لا يباغت بالهجوم على غرة ، وراحت طلائعه ترصد حركات العدو ، ولم يستكن المعتمد بل ظل يعمل ويرقب ، ودأب على استطلاع الخبر من منجميه ، ولما دنت اللحظة الحاسمة الرهيبة أصبح مصير اسبانيا متوقفا على نتيجة المعركة الموشكة على الوقوع .

كان القشتاليون يتفوقون على عدوهم من الناحية العددية ، اذ ذهب المسلمون للقول بأنهم فى خمسين أو ستين ألف مقاتل (٢٦) ، على حين أن خصومهم كانوا لا يجاوزون عشرين ألفا (٢٧) .

لم يكد الفجر يشرق حتى رأى المعتمد أن مخاوفه أخذت فى التحقق ، فقد أنبأه عيونه أن الجيش النصرانى أخذ فى الاقتراب منه ، فتحرج موقفه واستحكم الخطر عليه مخافة أن تدور الدائرة عليه قبل أن يتمكن المرابطون من موافاته فى ساحة القتال ، فبعث الى يوسف بن تاشفين يطلب اليه أن يسرع فى القدوم عليه بجميع جنده ، والا فليرسل اليه نجدة كبيرة ، فلم يبادر يوسف الى اجابة سؤاله لأنه كان قد دبر خطته وما كان له أن يتخلى عنها ، ولم يكن يوسف يهمه كثيرا مصير الأندلسين حتى لقد قال : « اتركوهم قليلا للفناء ، فكل من الأعداء » .

هرب الأندلسيون حين لم يجدوا فى الميدان أحدا سواهم ، ولم يبق غير الأشبيليين الذين اشتدت حماستهم حين أبصروا أميرهم وقد جرح فى وجهه ويده ، فلم يمنعه ذلك من اقامة البرهان على أنه رجل صدق فى اللقاء ، وفارس لا يشق له غبار ، فاستبسلوا هم أيضا فى مقاومة العدو حتى جاءت لنجدتهم كتيبة من المرابطين اعتبروها ترجحا لكفتهم .

اشتد عجب الأشبيليين حينما أبصروا العدو يقاتل ثم يرتد فجأة الى الوراء ، وكان عجبهم هذا ناجما من أن النجدة التى وصلتهم لم تكن كبيرة بالدرجة التى تمكنهم من كسب الموقعة ، بيد أن حقيقة ما جرى هو أن ابن تاشفين أبصر التحام الجيش القشتالى بالأشبيليين ، فرأى أن يعمد الى مهاجمة القشتال من الخلف ، وحمل بمعظم قواته على معسكر الفونس ،

وجرت حينذاك مذبحة مروعة فى الجند القائمين بحراسة المعسكر فأضرم يوسف النار فيه وكر على القشتاليين من الخلف وأخذ يدفع أمامه جمهورا غفيرا من جندهم الفارين ، ووجد ألفونس نفسه بين عدوين ، ولما أدرك أن الجيش الزاحف عليه من الخلف أكبر عددا من الجيش المواجه له فقد اضطر لتوجيه قواته الرئيسية ضد يوسف ، فاشتجرت الأسنة وأقبلت الآجال تفترس الرجال ، وأصبحت الحرب سجالا بين الفريقين ، هـذا ويوسف يجرى بين صـفوف جنده ويصيح بهم « الشجاعة يا مسلمين الشجاعة ... من قتل خطب الجنة !! » .

أما الأندلسيون الذين انقلبوا على أعقابهم فقد عادوا يجمعون صفوفهم من جديد ، ونهضوا ثانية الى ساحة المعركة لمعاونة المعتمد ، كمـا قام يوسف من ناحيته فكر على القشتاليين بحرسه السودانى الذى أبقاه حتى هذه اللحظة بعيدا عن الحرب ، فجاء هذا الحرس بالأعاجيب ونجح أحدهم فى الاقتراب من ألفونس وطعنه بخنجره فى فخذه طعنة دامية .

وأرخى الظلام سدوله ولا زال الفريقان يحارب الواحد منهما الآخر قتالا عنيفا كتب بعده النصر للمسلمين ، وامتلأت ساحة المعركة بالنصارى ما بين قتيل وجريح ، ولاذ سواهم بالهرب ، وما كانت نجاة ألفونس ذاته مع خمسمائة من رجاله الا بعد جهد شديد ، وتم ذلك كله يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م [= ٤٧٩ هـ] .

ومع ذلك فانه لم يقدر للقوم أن يجنوا من هذا النصر المؤزر ما كان مأمولا ، ذلك أن ابن تاشفين كان قد اعتزم التوغل فى البلاد لكنه رجع عن عزمه حين بلغه نبأ موت ابنه البكر الذى تركه وراءه بسبتة مريضا ، ومن ثم اكتفى بترك فريق من الجند يبلغ ثلاثة آلاف رجل تحت امرة المعتمد ، وانكفأ هو عائدا الى أفريقية مع بقية قواته .

الفصل الثالث عشر

ابن تاشفين وامراء الأندلس

الفونس السادس يتابع العدوان رغم هزيمته فى زلاقـة • المعتمد وابن رشيق • السيد القمبياطور • اختـلاف وجهات النظر عنـد العامة والمثقفين الى ابن تاشفين• تمرد العامة على أمرائهم يخدم أهداف ابن تاشفين• القاضى القليعى ييسر لابن تاشفين سرا غزو الأندلس • وشاية المعتصم أمير المرية بالمعتمد ووشاية المعتمد بابن رشيق عند ابن تاشفين • عبد الله أمير غرناطة يهم بقتل العليعى فتمنعه أمه من ذلك فيفر القليعى الى غرناطة ويكاتب ابن تاشفين ضد عبد الله • رجال عبد الله يعلنون ولاءهم لابن تاشفين فيكاتب عبد الله الفونس للقدوم لمسـاعدته فيخذله الفونس • استعجال أهل غرناطة قدوم ابن تاشفين الذى يقترب من غرناطة فيهرع للقائه عبد الله بايحاء من أمه • اسقاط ابن تاشفين الكثير من الضرائب واستيلاؤه على كل ما فى القصر • تقرب المعتمد وغيره من الأمراء الى ابن تاشفين الذى يرجع الى بلاده بعد استصدار فتوى بفسق أمراء الأندلس •

ابن تاشفين وأمراء الأندلس

ترتب على وصـــول (١) المرابطين الى اسبانيا أن وجد اولو الأمر والنهي في قشتالة أنفسهم مضطرين لاخلاء « بلنسية » ورفع الحصار عن « سرقسطة » ، وتمخضت هزيمة هؤلاء الأخيرين في « زلاقة » عن حرمانهم من فريق من خيرة محاربيهم حتى ليقول المسلمون انه هلك في هذه الوقعة منهم عشرة آلاف رجل ، ويقول آخرون بل أربعة عشر الف محارب (٢) . أضف الى هذا أن الأمراء الأندلسيين تخلصوا من القيد المخجل الذي كان يفرض عليهم دفع الجزية السنوية للامبراطور ألفونس الذي تلاشى الخوف من هجومه على الغرب منذ أن قام الجند الذين تركهم يوسف بن تاشفين للمعتمد للدفاع عن حصون تلك النواحي ، ولا شك أن هذه نتائج طيبة يحق أن تغتبط بها نفوس أهل الأندلس ، فلا عجب ان عمت الفرحة جميع رحاب القطر ، وتردد اسم يوسف على كل الشفاه والألسن ، وراح الناس يمتدحون رحمته ويثنون على شفقته ، ويعظمون مقدرته الحربية ، ويحيوه باعتباره مخلص الأندلس ومنقذ الملة الاسلامية ، واعتبروه قائد عصره المجلي ، ولم يكف القوم ـ لاسيما رجال الدين عن الثناء عليه فقد كان في نظرهم أكثر من رجل عظيم ، واعتبروه مرسلا من قبل الله ، ومؤمنا يجدي التبرك به (٣) .

لكن على الرغم من الانتصارات التي أحرزها المسلمون الا أنها لم تكن بالحاسمة ، أو لا أقل من أن ذلك هو ما رآه القشتاليون فلم يداخلهم اليأس من عودة أمورهم الى مجاريها رغم ما تكبدوه من الخسائر الفادحة ، وأيقنوا تمام اليقين أنهم يجلبون الخطر على أنفســـهم ان هم حولوا هجماتهم عن ناحية (بطليوس) وأشبيلية ، لكنهم عرفوا الى جانب ذلك أيضا أن في شرقي الأندلس مجالا للفوز ليس من العسير عليهم أن ينزلوا عليه فيعيثون فيه خرابا ويلحقون به كثيرا من التدمير ويكون في قدرتهم الاستيلاء عليه ، ذلك أن ولايات الشرق الصغيرة وهي بلنسية ومرسية و « لورقة » و « المرية » كانت في الواقع أضعف ولايات شبه الجزيرة على الاطلاق ، وكان للقشتاليين في وسطها مركز بالغ القوة يجعل الاقليم تحت رحمتهم ، ونعني بهذا المركز حصن « الليط » الواقع بين مرسية ولورقة ، والذي لا تزال أطلاله شاخصة الى اليوم ، وهو رابض على جبل شامخ بلغت قمته عنان السماء ، ويضم حامية تقدر باثني عشر أو ثلاثة

عشرة ألف رجل ، ناهيك بشـــدة مناعته على من يرومه ، وقد اتخذه القستاليون مركزا يغيرون منه على الأقاليم المحيطة بـه ، فحاصروا (٤) المرية و « لورقة » و « مرسية » ، فكان كل شيء يشير الى أن كل شيء سيئول الى الوقوع فى أيدى القســـتاليين ان لم يتدارك الله أمر هذه النواحى .

ولقد أدرك « ابن اليســـع » صـــاحب لورقة عجزه عن مقاومة الناحية ، ومن ثم راح يقامر بما يملك وذلك لأن أكثر المدن تعرضا لهجمات العدو ـ وهي مرسية لورقة ـ كانت تابعة له .

ولقد أدرك « ابن اليســـع » صـــاحب لورقة عجزه عن مقـاومة قستاليى « الليط » ، فبادر الى الاعتراف بسيادة المعتمد عليه مؤملا أن يصير له بذلك عونا (٥) .

أما « مرسية » فكانت لا تزال تحت حكم الثائر « ابن رشيق » الذى كان المعتمد يتحرق للقصاص منه تحرقا حمله على أن ينهض بحملة على الأقاليم الشرقية ، راميا من وراء ذلك الى هدفين ، أولهما أن يضع حدا لغزوات النصارى ، وأما ثانيهما فرغبته فى أن يرد ابن رشـــيق الى طاعته ، وحينذاك ضم قواته الى القوات التى استودعه اياها يوسف وسار الى « لورقة » التى ما كاد يبلغها حتى تناهى اليه خبر وجود كتيبة بها قوامها ثلاثمائة قشتالى على مقربة منها ، ومن ثم أمر ابنه « الراضى » الذى يؤثر الأدب على القتال أن ينهض على راس ثلاثة آلاف فارس أشبيلى لقتالها ، فاعتذر « الراضى » لأبيه متذرعا بمرضه ، فاشتد غضب المعتمد ، ومن ثم عهد بالقيادة الى ولد آخر له اسمه « المعتمد » . غير أن تفوق القشتاليين على الأندلسيين ظهر مرة أخرى ، فقد لحقت الأشبيليين هزيمة نكراء على الرغم من أن عددهم كان عشرة أمثال عدد خصمهم (٦) .

هكذا تبين للمعتمد اخفاق محاولاته التى كان ينشد من ورائهـــا اخضاع « مرسية » ، وكانت علة اخفاقه تتمثل فى ان « ابن رشيق » نجح فى أن يستميل اليه جماعة المرابطين الموجودين فى الجيش الأشبيلى ، فلم يجد المعتمد بدا حينذاك من الانصراف الى عاصمته فاشلا (٧) .

تجلى للعيـــان اذ ذاك أن الأندلسيين ـ قبل وقعة زلاقة وبعدها ـ لا يستطيعون الدفاع بمفردهم عن أنفسهم ، وأن مآلهم للاستسلام ان لم ينهض يوسف مرة أخرى لانقاذهم ، كمـــا ازدحم بلاط ابن تاشفين بالوافدين عليه من فقهاء وأشراف « بلنسية » ومرسية ولورقة وبازة ، وشكى البلنسيون اليه من « رودريك القمبياطور » المعروف « بالسيد » الذى ادعى أنه المدافع عن « القادر » بعد أن أجبره على دفع مرتب شهرى ثابت له قدره عشرة آلاف دينار ، ثم أخذ يعيث فسادا وتخريبـــا فى نواحى المملكة ، زاعما أنه يستهدف ارجاع العصاة الى طاعة الملك (٨) .

ولقد أسهب سكان النواحي الأخرى من أهل مرسية ولورقة و « بازة » في ذكر المظالم التي أنزلها بهم القشتاليون من أهل الليط ، وعلى هذا انعقد الاجماع على أنه لا محيص للأندلس من الوقوع في أيدي النصارى ان لم يهب يوسف الى نجدتها (٩) ٠ والظاهر أنه لم يكن لتوسلات هؤلاء القوم أثر كبير في نفس ابن تاشفين اذ وعدهم بعبور المجاز حين تسنح له الفرصة ، ولكنه لم يقم جديا بعمل الاستعدادات اللازمة لمثل هذا العبور ولعله كان ينتظر أن يفد عليه الأمراء ذاتهم وان لم يقل ذلك جهرا ٠

حينذاك عزم المعتمد على الذهاب اليه بذاته ٠

ولقد أخذت شكوك المعتمد في نوايا يوسف الخفية في التلاشي بالتدريج ، أو على الأقل أخذت في الضعف ، ذلك أنه اذا استثنينا احتلال ابن تاشفين للجزيرة الخضراء لم نجد أنه قام بأي عمل من الأعمال التي يمكن أن تثير سخط الأمراء الأندلسيين عليه أو يؤكد مخاوفهم من ناحيته ، بل لطالما صرح قبل أن تطأ قدماه أرض الأندلس أنه كان مبالغا في تصوره لثرائها وجمالها ، فلما جاءها وجدها ـ كما قال ـ دون ما أمل وأقل مما تخيل (١٠) ٠ فكان هذا القول من جانبه باعثا للطمأنينة في نفس المعتمد الذي رأى الخطر المسيحي المحدق بوطنه وقد تفاقم وازداد شدة ، لذلك كان هذا الأمر حاملا له على أن يجمع العزم على أن يذهب بنفسه الى يوسف ، فمضى اليه فتلقاه السلطان أشرف لقاء وأطيبه ، وقال له : « ما السبب الذي حملك على أن تقدم الينا بنفسك ؟ وهلا كتبت بحاجتك ؟ » فقال له المعتمد : « جئتك احتسابا وجهادا وامتعاضا للدين ، وقد أجرى الله الخير على يديك ، وحظك مما جئت به الأوفر ، وقد اشتد ضرر النصارى على حصن الليط وعظم أذاه بالمسلمين لتوسطه في بلادهم ، ولا جهاد أعظم منه أجرا ، ولا أثقل في الميزان وزرا » ٠ فقال يوسف : « سأتحرك وأجوز المضيق » ٠

ما ان رجع المعتمد عبر المجاز مع جنده وأرسى بالجزيرة الخضراء في ربيع سنة ١٠٩٠ م حتى بادر فاتصل المعتضد واستدعى الأمراء الأندلسيين للجهاد والانضمام اليه في محاصرة « الليط » ، فاستجاب لندائه « تميم » صاحب مالقة ، وعبد الله ملك غرناطة ، والمعتصم أمير المرية ، وابن رشيق أمير مرسية ، وغير هؤلاء ممن هم دونهم أهمية ٠ وبدأ الحصار ، فصنع النجارون وبناؤو مرسية آلات الحرب ، الا أنهم لم يتقدموا كثيرا ، وكانت عدة المدافعين عن حصن « الليط » ثلاثة عشر آلاف رجل من بينهم ألف فارس ، استبسلوا في صد الهجمات التي شنت عليهم ، كما كان الحصن شديد المنعة ، فراحت عبثا جهود المسلمين في الاستيلاء عليه عنوة ، ومن ثم اتفقوا على قطع القوت عنه (١١) ٠

لكن المحاصرين انشغلوا بمصالحهم الذاتية أكثر من انصرافهم الى الحصار ذاته ، فكان معسكر المسلمين مركزا للمكائد اذ أخذ الكثيرون منهم يحركون أطماع يوسف الذى لم يكن صادقا فيما زعمه من أن الأندلس لم توافق هواه ، بل الحقيقة هى أن هذا القطر وقع موقع الرضى من نفسه فطمع فى الاستيلاء عليـه ، وكان مدفوعا الى ذلك بحب الفتح وبعوامل أخرى كريمة ، اذ كان قلبه عامرا بالايمان وبكل ما يعود بالنفع على الملة ، ولم يكن من العسير عليه تحقيق رغبته فى الفتح لميل الكثيرين من أهل الاندلس لاعتناق الرأى القائل باستحالة نجاة الأندلس من براثن العدو المسيحى ان لم ينضم الأندلسيون الى دولة المرابطين ، وهو رأى لم تكن الطبقات العليا فى المجتمع تميل للأخذ به ، وذلك لأن أرقى القوم ثقافة كانوا يرون أن يوسف ـ الذى لا يتقن العربية ـ لا يعدو أن يكون جلفا بربريا ، والواقع أنه كثيرا ما أقام الدليل على جهله وقلة ثقافته ، فقد حدث أن سأله المعتمد عما اذا كان قد فهم الأشعار التى امتدحه بها شعراء أشبيلية فقال له : « لا أعلم ، ولكنهم يطلبون الخبز » .

ولما عـاد الى افريقية جاءته رسـالة من المعتمد تضمنت بيتين من قصيدة معروفة ذائعة لأبى الوليد بن زيدون (١٢) (تيبول الأندلس) وقد وجهها الى محبوبته ولادة ، وفيهما يقول :

بنتم وبنـا ، فمـا ابتلت جوانحنـا
شـوقا اليـكم ولا جفت مآقينـا

حـالت لفقدكمـو أيامنـا فغـدت
سودا ، وكانت بكم بيضـا ليالينـا

فلما سمعها ابن تاشفين قال : « يطالب منا جوارى سودا وبيضا ، » فقيل له : يا مولانا ، ما أراد الا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارا ، لأن ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلا ، لأن ليالى الحزن ليالى سـودا » ، فقال : « والله جيد . اكتبوا له ان دموعنا تجرى عليـه ، ورؤوسنا توجعنا من بعده » (١٣) .

لم يكن فى الامكان التجاوز عن مثل هذه الأمور فى قطر كالأندلس عرف أهله بالكلف بالأدب وحب الشعر ، أضف الى هذا أن رجال القلم كانوا جد راضين بمكانتهم ولا يحبون أن يستبدلوا بها أبدا غيرهـا . كذلك كانت قصور الأمراء الصغار ندوات ثقافية وحلقات أدبية ، ونعم الأدباء بعطف الأمراء الذين بالغوا فى حسن معاملتهم ، وانقطعت كل شكوى لدعاة الفكر الحر فاطمأنوا الى ما هم فيه ، كما اسـتطاعوا لأول مرة ـ بفضل رعاية معظم الأمراء لهم ـ أن يجهروا قولا وكتابة بما يجول فى

اذهانهم دون آن يخافوا الحرق أو يخسوا الرجم (١٤) . فلا عجب ان كانوا هم أشد الناس انصرافا عن الرغبة فى حكم المرابطين لهم ، ذلك الحكم الذى لابد وأن يجعل السلطة فى يد رجال الدين .

لكن اذا لم يكن قد أتيح ليوسف كثير من الأنصار بين الطبقات العليا والمستنيرة فقد توفر له العدد الجم منهم بين العامة التى كانت على وجه العموم شديدة التذمر لما هى فيه وحق لها أن تتذمر ، فقد كان لكل بلدة ــ مهما صغرت ــ بلاطها الخاص بها الذى يحفظ لها حقوقها وان كلفها الكثير لدأب معظم الأمراء على الاشتطاط فى الاسراف اسرافا يقرب من الحماقة ، والذى ربما كان فى الامكان تبريره لو أنه كان مؤديا الى الطمأنينة والهدوء واستتباب الأمن ، الا أن واقع الأمور كان على غير هذه الصورة ، فقد كان الأمراء فى العادة أضعف من أن يتمكنوا من حماية رعيتهم من تعدى جيرانهم المسلمين باله المسيحيين ، وافتقد الناس الطمأنينة والراحة فلم يعودوا آمنين على أنفسهم ولا على ما يملكون ، ويجب أن نعرف بأن الحالة اذ ذاك كانت شديدة الوطأة صعبة الاحتمال ، ومن الطبيعى جدا أن تتطلع الطبقات العاملة للقضاء على هذا الوضع الذى لم يعرفوا السبيل الى الافلات منه ، وأخذت صدورهم تجيش بالثورة ، فكانوا ينصتون فى سرور الى أبيات الشاعر الغرناطى « السميسر » اذ يقول :

ناد الملـــــوك وقل لهـــم	ماذا الذى أحدثتمـــــوا ؟
اسـلمتموا الاســـــلام فى	أسر العـدا ، وقعدتمـــــوا
وجب القيـــــام عليكمـــو	اذ بالنصـــــارى قمتمـــوا
لا تنكروا شـــق العصــــا	فعصــــا النبى شققتمـــوا

غير أنه لما كانت الثورة لا تؤدى الا الى زيادة الموقف سوءا فقد كان من الواجب التريث والاعتصام بالصبر كما يقول الشاعر ذاته فى بيتيه التاليين :

رجونـــــاكم فمــــا انصفتمونــــا	وأملناكمـــــوا فخذلتمونـــــا
سنصبر والزمــــان له انقـــلاب	وأنتم بالاشـــارة تفهمونا (١٥)

ثم آن للأمور أن تتبدل وأصبح فى القدرة القيام بالثورة على الأمراء الضعاف ، وشجع على ذلك استظلال البلاد فى الأندلس بظل حاكم عادل قــوى عظيم تمكن من الظهــور على المسيحيين ظهورا بينا [ذلك هو ابن تاشفين] فكان ظهوره على النصارى فوق كل ظهور ، وكان انتصاره عليهم فوق كل انتصار ، وكان العناية الالهية بعثته لرد الأندلس الى سابق مجدها ورخائها ، وأصبح الخير كل الخير يتمثل فى الخضوع لسلطانه ، وتخلص الناس فى الوقت ذاته من الضرائب الجائرة الباهظة التى كانت

تثقل كاهلهم ، فقد الغى ابن تاشفين فى بلاده كل ضريبة لم يقض بها القرآن ، واعتقد الجميع أنه لابد صانع بالأندلس مثل هذا الصنيع أيضا ٠

هذا هو ما فطن له الشعب وتصوره ٠

وكان الشعب مصيبا فى ما فطن له وتصوره من عدة وجوه ٠ لكنه نسى أن الحكومة لا تستطيع التنازل عن الضرائب التى تقضى بها الضرورة ، وفاتهم أن الأندلس ـ اذ تربط مصيرها ببلاد المغرب ـ انما تعرض نفسها الى التأثر بنتائج الثورات التى يمكن ان تشب فى تلك المملكة ، وتناسوا أن احتلال المرابطين للأندلس انما هو احتلال أجنبى ، كما أنه سيطرة شعب على شعب آخر ، ثم ان جند يوسف ينتمون الى جنس كان الأسبان ينظرون اليه على الدوام على أنه دونهم منزلة ويضعونه فى مرتبة دنيا ، وليس من المستبعد أن يؤدى عدم معرفتهم النظام الى ايقاع البلد فى كثير من المشكلات ٠

كانت ولايات الأندلس يختلف بعضها عن بعض فى الميل الى هؤلاء الأجانب ، ذلك أن أهل غرناطة من العرب والأندلسيين كانوا يجمعون على مداومة لعن ظالميهم البربر ، كما كثر الناقمون عليهم فى بلاد المعتمد (١٦) ، أما المرية فقد خلت من الكارهين لهم ، اذ توفر لها أمير محبوب قريب كل القرب من النفوس ، هذا الى جانب تقواه وعدله ورأفته ، فكان يعامل شعبه معاملة تنطوى على الحنان الأبوى ٠ وجماع القول انه كان المثل الكامل لكثير من الفضائل المستحبة ٠

ومع ذلك فقد كان ليوسف فى كل مكان أنصاره من العلماء والفقهاء والقضاة ورجال لدين وأهل الشرع الذين هم أخلص الناس له وأشدهم تأييدا لدعواه ، وأصدقهم وقفة الى جانبه ، اذ لم تكن خسارتهم تعدل أية خسارة لو تسنى النصر للمسيحيين ٠

ثم انه ـ من ناحية أخرى ـ لم تكن لهم مكانة عند أولئك الأمراء الذين شغلوا أنفسهم بالدراسات البعيدة عن الدين ، والذين انغمسوا فى شهواتهم فلم يكونوا يلقون السمع الى عظات الواعظين ، بل راحوا يمدون عطفهم ويبسطون حمايتهم جهرا على المشتغلين بالفلسفة ٠ فأما يوسف فكان على النقيض من ذلك ، اذ كان مثالا للعبادة ثم انه لا يقضى أمرا من أمور الدولة دون أن يباحث فيه رجال الدين وينزل على مشورتهم ، فلا جرم ان هم عطفوا عليه غاية العطف ، وأحبوه غاية الحب ، وقد عرف هؤلاء الرجال ـ أو لعلهم تنبؤوا ـ أن ابن تاشفين راغب كل الرغبة فى خلع الأمراء الأندلسيين من أجل صالحه هو ذاته ، ومنذئذ لم يعودوا يفكرون الا فى تشجيع مطامعه والتأكيد له بمطابقتها للدين ٠

كان من أشـــد المتحمسين لهذه الفـكرة قاضي الجماعة بغرناطـة « أبو جعفر القلعي » العربي الأصل الذى كان شديد الكراهية للبربر المحتلين لبلده ، والواقع أنه لم ينجح فى كتم مشاعره نحوهم ، ولم يخف على باديس أن انقراض دولته سيكون على يدى هذا الرجل ، ولطالما دبر قتله « لكن حماه الله بالعلم ، وغل يد باديس عنه ، وأغمد سيفه ليقضى الله أمرا كان مفعولا » كما يقول أحد المؤرخين العرب ٠

لقد ساهم هذا القاضي مع الجند الذين حاصروا « الليط » ، وتعددت مقابلاته السرية مع يوسف الذى عرفه قبل هذه المرة ، اذ كان أحـد السفراء الذين وكلت اليهم ــ منذ أربع سنوات ــ مهمة استنهاض همة هذا المرابط لنجدة أهل الأندلس . وبقى غرض هذه المقابلات سرا اذ كان ضمير يوسف يأبى عليه أن يحنث فى يمين قطعها على نفســه ، ولكن القاضي كان يبذل جهده للتغلب على تلك الوساوس (١٧) ، فذكر له ان الفقهاء الأندلسيين قادرون على ان يحلوه من يمينه ، وأنه من اليسير عليه أن يستصدر منهم فتوى يعددون فيها الخطايا والكبائر التى ارتكبهـــا الأمراء ، ثم يخلصون من ذلك كله الى أن هؤلاء الملوك قد فقدوا كل حق لهم فى العروش التى يجلسون عليها ٠

كان الناس يعرفون فى هذا القاضي عالما تقيا ، كما تركت حججه أثرا بارزا فى نفس يوسف بن تاشفين ٠ أضف الى ذلك أن دســائس « المعتصم » ملك المرية عنده ضــد « المعتمد » ــ الذى هو أقوى أمراء الأندلس ــ أدت الى شدة كراهيته لابن عباد ٠

أشرنا آنفا الى أن « المعتصم » [محمد بن محمد بن محمد بن صمادح] كان أميرا عظيما ، لكن على الرغم من فطنته وما أثر عنه من طيب المعشر الا أنه كان شديد الموجدة على « المعتمد » ولعل غيرته الدنيئة وحدها هى التى كانت تحمله على كراهيته اياه كراهية هيمنت على نفسه ٠ وعلى الرغم ممــا تدل عليــه الظواهر من الوفاق بين « المعتصم » وبين ملك اشبيلية الا أن « ابن صمادح » عكف على افساد ما بين المعتمد وابن تاشفين الذى قربته اليه وسائله الدنيئة فى اغتياب غيره ، رغم ان المعتمد لم يساوره الشك فيه أبدا ٠ وحدث فى ذات يوم أن أظهر له ملك « المرية » خوفه من طول اقامة يوسف فى الأندلس فأجابه المعتمد فى لهجة تنطوى على الزراية بأهل الجنوب وقال : « لو عوجت له باصبعى ما أقام بهـا ليلة واحدة هو ولا أصحابه ، وكأنك تخاف غائلته ؟ ، وأى شىء هـذا المسكين وأصحابه ؟ انما هم قوم كانوا فى بلادهم فى جهد من العيش ، وغلاء من السعر ، جئنا بهم الى هذه البلاد نطعمهم حسبة والتجارا ، فاذا شبعوا أخرجناهم الى بلادهم » ٠

كانت هذه الأقوال وأمثالها سلاحا بتارا في يد « المنصم » الذى أنهاها الى يوسف بن تاشفين فاستبد به الغضب ، ومن ثم أصبح المشروع الغامض تصميما لا رجعة فيه ، وهكذا نجح المنصم فيما حاوله ، ولكنه لم يقدر ما قد يترتب على هذا النجاح من العواقب الوخيمة ، ولم « يدر أنه ساقط فى البئر التى حفر ، وقتل بالسلاح الذى شهر » (١٨) .

كان عدم التبصر أمرا شائعا بين جميع الأمراء الأندلسيين ، فقد جرحوا أنفسهم كلهم عند يوسف الذى جعلوا منه فيصلا يقضى بما يراه فى المنازعات التشاجرة فيما بينهم ، وبينما كان ملك «المرية» يسعى فى تغيير قلب ابن تاشفين على ملك أشبيلية كان المعتمد نفسه يعمل على اسقاط « ابن رشيق » أمير مرسية ، ولكى يدرك مآربه فانه لم يكن يكف عن الايعاز الى يوسف بأن ابن رشيق حليف ألفونس وأنه أدى خدمات جليلة لنصارى « الليط » ، وأراد المعتمد أن يبن له حقه فى امتلاك مرسية فأوضح له وجوب تسليمه الخائن الذى سلب منه هذه المدينة ، فعهد يوسف الى الفقهاء فى التثبت من هذا الأمر وبيان الحقيقة ، فذهبوا الى تأييد المعتمد فيما قال عن ابن رشيق ، واذ ذاك ألقى يوسف القبض عليه وأسلمه الى ملك أشبيلية على ألا يقتله ، وقد أدى هذا القبض الى عواقب وخيمة فقد غضب أهل « مرسية » وغادروا المعسكر ورفضوا منذ ذلك الحين أن يمدوا الجيش بما يحتاجه من العمال والمئونة . مما أدى الى وقوع المحاصرين فى أشد الضيق اذ لم يعودوا يجدون ما يطلبونه ، وبينما هم فى انتظار الشتاء اذا بهم يسمعون بوصول « ألفونس » على رأس جيش مؤلف من ثمانية عشر الف مقاتل لنجدة المكان ، فرأى يوسف فى بادىء الأمر أن يترصده فى جبال « تيريزا » غربى « توناتو » ثم يلتحم به فى القتال ، الا أنه سرعان ما رجع عن هـذه الخطة وارتد الى « لورقة » مخافـة أن يركن الأندلسيون الى الفرار مثلما فعلوا من قبل فى وقعة « زلاقة » . ثم انه كان يعتقد أن « الليط » لم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها مما لابد وأن يحمل القشتاليين على الجلاء عنها واخلائها ، وقد برهنت الأحداث على صدق هذا الرأى ، اذ لم يكد « ألفونس » يرى أن تحصينات الحصن تكاد تكون مهدمة وأن الدفاع عنه موكول الى حامية قوامها مائة رجل حتى أضرم النار فيه وحمل المحصورين بها الى قشتالة (١٩) .

وحققت الحملة هدف القوم وان كان تحقيقا منقوصا غير كامل تعوزه الروعة ، فقد أقام يوسف على حصار « الليط » أربعة أشهر دون أن يتمكن من الاستيلاء عليه ، كما أن ارتداده عنه ــ حين سماعه باقتراب ألفونس ــ كان أشبه ما يكون بالفرار ، ومع ذلك فلم ير الفقهاء فى ما حدث ما يقلل من العطف عليه والتعلق به ، وقالوا ان عدم توفيق الأمير المرابـط فى الحصول هذه المرة على نتائج طيبة مثل التى حصل عليها منذ أربع سنوات

انما يرجع الى موقف الأمراء الأندلسيين الذين كانت مكائدهم وغيرتهم من بعضهم وشقاقهم الدائم فيما بينهم حجر عثرة في سبيل الحاكم العظيم ومنعه من كل ما قد يستطيع عمله لتحقيق مهمته على الوجه الأكمل لو أنه انفرد وحده بالأمر من دونهم ، ومجمل القول ان الفقهاء كانوا أشد حماسة من كل وقت سبق ، وكان لابد لهم أن يكونوا كذلك لأن الأمراء أخذوا في مضـــايقتهم منذ أن وقفوا على خبر مكائدهم ، وقد دلهم على ذلك أبو جعفر القليعي « قاضي الجماعة بغرناطة » ٠

كثر اتصال القاضي أبو جعفر بابن تاشفين حين كان في معسكر مولاه المنصوب على كثب من فسطاط يوسف ، وكاشفه « القليعي » بمغبة الأمور ، غير أن خوف عبد الله [بن باديس] من مجيء يوسف أقعده عن اتخاذ التدابير الحازمة ضد المتآمر ، لكنه ما كاد ينكفيء الى غرناطة حتى استقدم اليه أبا جعفر وأنبه على خيانته ، وعيره بتآمره عليه ، واشتد غضبه حتى انه أمر حرسه بقتله ، الا أن حسن طالع أبي جعفر القليعي دفع أم عبد الله [بن باديس] للانكباب على قدمي ولدها واستحلافه للابقاء على حياة هذا الرجل التقي ، وكان عبد الله شديد الطاعة لأمه فرجع عما قضاه ، واكتفى بسجن القاضي في احدى غرف القصر ٠

وقد أدرك القاضي أنه في هذه الحجرة محاط بأشـخاص شديدي الايمان بالخرافات ، ومن ثم دأب على الصلاة وتلاوة القرآن حتى رددت أرجاء القصر كلها رجع صـــدى صوته الجهوري ، وأصغى الجميع الى ابتهالاته الدينية فالتزموا الصمت حتى لا يصدر منهم ما يزعجه ، كما أنهم في الوقت ذاته لم يكفوا عن أخبار الأمير أن نقمة الله سوف تحل به سريعا ان لم يعجل باطلاق سراح هذا الرجل الذي يعد مثلا حيا للتقوى والعبادة ، وكانت أم عبد الله أكثر من غيرها حماسة له واستطاعت بتوسلاتها لابنها وتخويفها اياه أن تنجح في حملـــه على اطلاق سراح أســـيره ٠

لزم القاضي الهدوء في غرناطة بعد أن تلقى هذا الدرس القاسي ، ولكنه اغتنم فرصة الظلام في احدى الليالي وخرج تحت جنح الظلام قاصدا « القلعة » Alcala ثم سار منها الى قرطبة حيث لا يخشى أحدا ما بها ، ولكنه كان يتحرق للثار ، لذلك كتب الى يوسف ابن تاشفين كتابا يصور له فيه ما لقيه على يد عبد الله [بن باديس] من المعاملة السيئة ، وألح عليه الا يتهاون أكثر من ذلك في تنفيذ المشروع الذي طالما تباحثا فيه معا (٢٠) ، كما بعث الى غيره من القضـــاة والفقهاء الأندلسيين يسألهم اصدار فتوى ضد الأمراء عامة وضد حفيدي باديس خاصة ٠

لم يتوان القضاة والفقهاء عن الفتوى بأن أميري غرناطة ومالقة قد فقدا كل ما قد يكون لهما من الحقوق بما ارتكباه من الكبائر ، لا سيما

للأسلوب الخشن الذى عمد اليه أكبرهما فى معاملته القاسية ، ولكنهم لم يجرؤوا على الافتاء بأن بقية الأمراء قد فقدوا حقوقهم هم أيضا ، ومن ثم اكتفوا بأن رفعوا ملتمسا الى يوسف تاشفين أفهموه فيه أن واجبه يقتضيه دعوة جميع مأراء الأندلس للرجوع الى الشرع ، وألا يجمعوا من الضرائب الا ما يقضى به القرآن (٢١) ٠

قام ابن تاشفين ــ بناء على هاتين الفتوتين ــ فأوصى الأمراء بوضع الضرائب ومنع السخرة ورفع جميع ما فرضوه على رعاياهم (٢٢) ، ثم زحف على غرناطة على رأس فريق من جيشه بعد أن أمر ثلاث كتائب أخرى باللحاق به هناك ، ومع ذلك فانه لم يعلن الحرب على عبد الله الذى لم يعرف مقاصد يوسف يقينا بل رجما وظنا ، ولكن استبد به الخوف اذ لم يكن على شاكلة جده باديس الذى كان نشيطا رغم جهله ٠

وكان عبد الله على جانب من الالمام بالآداب ، قادرا على أن يترجم بالعربية عما يريد ، حتى انه كان يقرض الشعر ٠

وكان الى جانب ذلك حسن الخط ، وقد بقيت نسخة من خط يده محفوظة بغرناطة زمنا طويلا ، لكنه كان فى الوقت ذاته رعديدا مترفا متهاونا عاجزا عن تصريف أموره ، وكان من أولئك الرجال الذين لا تحبهم النساء أبدا ، اذ يضطرب لمرأى السيف ، ولا يعرف العزم ولا الحزم ، بل يهرع الى استشارة كل من حوله كلما حزبه أمر من الأمور ٠

لذلك جمع عبد الله [بن باديس] مجلس مشـــــورته وبدأ فطلب الوقوف على رأى « المؤمل » العجوز الذى أدى كثيرا من الخدمات الجليلة لجده ، وحاول المؤمل « من جهته أن يثبته ويدخل الطمانينة الى نفسه ، فنفى ما يقال عن مرامى يوسف العدوانية ، وأشار عليه أن يبرهن هو من جانبه لابن تاشفين على ثقته به واطمئنانه اليه وذلك بالنهوض الى لقائه ، لكن « المؤمل » رأى عزوف عبد الله عن الأخذ بهذا الرأى ، ومن ثم اضطر لأن يبرهن له على أنه من المستحيل عليه مقاومة المرابطين ٠

والحق أنه لم يعد جادة الصــــواب فيما قال نظرا لقلة عدد جند عبد الله ، الى جانب ارتيابه فى أحسن قواده ــ وهو « مقاتل البربرى الأحمر » المعروف بالـEl-Royoحتى أدى به الى اقصائه عما بيده (٢٣) ٠

وقد أيد جميع شيوخ المجلس رأى « المؤمل » غير أن عبد الله كان يشك فى ولائه له ، ويرى أنه ليس دون أبى جعفر القاضى خيانة له ، واخذ يلومه على أنه تركه وفر هو بنفسه لينجو ، والواقع أن مخاوفه كانت تقوم على أساس من الصحة ٠ ونحن وان كنا لا ندرك شيئا عما اذا كان اهتمامه بمصالح يوسف صادرا عن صدق أم كان رياء الا ان الثابت المؤكد

هو أن هذا الحاكم الذى اكتسب عطف الأمة واستمالها اليه بفضل مواهبه انما كان يعتمد على مساعدته له ·

لم ير عبد الله فيما أشـــار به عليه « المؤمل » الا شركا ينصب لاصطياده ، ولما كان واثقا من سوء القصد وراء مشــاريع ابن تاشفين وتاكد عنده ما فى صدره من النوايا الضارة به فقد جاهر بعزمه على مقابلة القوة بالقوة ، ثم انفجر فى « المؤمل » ورفاقه سبا وتهديدا ، فدل بعمله هذا على قلة تبصره اذ لابد أن تؤدى هذه الحركة من جانبه الى نفور القوم منه وانصرافهم عن تأييده والتعصب ليوسف · وهذا هو الذى وقع فعلا ، فقد غادروا غرناطة ليلا ويمموا شـطر مدينـة « اللج » التى ما كادوا يبلغونها حتى أعلنوا ولاءهم لملك المرابطين ·

غير أن القوات التى بعثها عبد الله ضدهم أرغمتهم على الرجوع الى غرناطة فطيف بهم فى شـــوارعها كما يطاف بالمجرمين الأوغاد ، الا أنهم استردوا حريتهم بفضل تدخل يوسف ، فقد أرغم هذا الحاكم الافريقى أمير غرناطة على اطلاق سراحهم ، ولم يجرؤ عبد الله على عصيانه ، لأنه كان لا يزال يتوجس خيفة من مقاصد يوسف نحوه ، وبينما كان يحاول تجنب العداء السافر معه الا أنه كان مثابرا على الاستعداد للحرب ، فأخذ ينفذ الرسل واحدا تلو الآخر الى ألفونس يلتمس منه المجىء لمعاونته ، وراح يغدق الأموال على الجميع ، واستطاع أن يجند جمعا كبيرا من التجار والحاكة والعمال وشتى صنوف الناس ، لكن ذلك كله لم ينفعه قيد انملة ، ولم يستجب ألفونس لدعوته ، وكره الغرناطيون ولايته ، وأخذوا يترقبون وصول المرابطين بفارغ الصبر ، كما كان يخرج فريق منهم كل يوم قاصدين الانضمام الى جند يوسف ·

شعر عبد الله باستحالة المقاومة فى مثل هذه الظروف ، فلما كان يوم الأحد العاشر من نوفمبر سنة ١٠٩٠ م [= ٤٨٣ هـ] جاء يوسف حتى صار على مسيرة مرحلتين من غرناطة فجمع عبد الله من جديد مجلس مشورته يسألهم أن يرشدوه الى ما يفعل،فصارحوه بوجوب التخلى عن فكرة المقاومة ، كما أن أم عبد الله ذاتها ــ وكانت تشير عليه كثيرا ويؤكدون أنها كانت تبنى آمالا ولكنها واهية على أن يتزوجها يوسف ــ قالت لولدها: « امض فسلم على ابن عمك وترضه » (٢٤) ، فاستصحبها معه وخرجا فى موكب فخم ، وسار الصقالبة أمامه يفسحون له الطريق « وولدان الروم حول ركابه ، وهؤلاء الجند جميعا بعمائم الشرب ويركبون أحسن الخيل الفارهة المزينة بالحلى » ·

حين وصل عبد الله الى حضرة يوسف ترجل ملتمسا منه أن يتناسى ما قد يكون فى نفسه من الغضب عليه ، فهش له يوسف وبش ، وأكد

له أنه نسي ما قد يكون في صدره من النقمة عليه ، وساله أن يذهب الى فسطاط دله عليه حيث يلقى كل ما يليق به من الاجلال ، فنزل عبد الله على أمره ، لكنه ما كاد يطأ الأرض حتى كبلوه بالسلاسل •

لم يلبث زعماء غرناطة أن وفدوا على معسكر ابن تاشفين الذي تلقاهم أجمل لقاء ، وأكد لهم ألا يخافوا شيئا قط من جهته ، وأنه ليس عليهم الا قبول الأسرة التي سوف تحل محل أسرة عبد الله ولم يكد يأخذ عليهم الايمان بالطاعة له حتى أذاع مرسوما أسقط به جميع الضرائب التي لم ينص عليها القرآن ، ثم دخل المدينة وسط هتافات الناس ، ونزل القصر ليأخذ ما به من الأموال التي جمعها « باديس » آكداسا ، فكانت مبالغ ضخمة يحار الطرف فيها ولا يحصيها العد ، كما ازدانت الحجرات بالحصر والطنافس والستائر النفيسة الغالية ، وأينما قلب المرء ناظريه بهره مرآى الزمرد والياقوت والماس واللؤلؤ والأواني الخزفية والفضية والذهبية ، وأخص ما عثروا عليه مسبحة من أربعمائة لؤلؤة ، زنة كل واحدة منها مائة مثقال ، فذهل المرابط من كل هذه الكنوز الضخمة ، وكان قبل دخوله غرناطة أعلن أن كل ما بها ملك له ، غير أن ما طبعت عليه نفسه من الترفع غطى على طمعه ، فأظهر غاية الود ومنتهى الكرم فقسم كل ما وقع في يده بين جنده ، غير مستبق من كل ذلك شيئا لنفسه . ومع ذلك فقد كان القوم يعرفون أن ما عرض على الأنظار لم يكن كل شيء ، وعرفوا أن أم عبد الله تخفي أشياء نفيسة ، فعمدوا الى الشدة في حملها كي تدلهم على النواحي التي خبأتها فيها ، فدلتهم الا أنهم كانوا لا يزالون يشكون في صدق اعترافاتها ومن ثم أصدر يوسف أمره الى « المؤمل » الذي عينه حارسا على القصر وعلى أموال عبد الله أن يحفر الأساس ومجاري البناء (٢٥) •

ربما كان للأمراء الأندلسيين عذرهم اذا ما تقطعت أسباب الصلة بينهم وبين يوسف بعد أن رأوا ما أنزله بعبد الله ، الا أنهم لم يفعلوا شيئا ، بل لقد خف المعتمد والمتوكل الى غرناطة لتهنئة ابن تاشفين ، كما بعث اليه المعتصم ولده عبيد الله بدلا منه •

فواعجبا ••• !!

أبلغت الغفلة بالمعتمد حدا طمع معه أن يتنازل يوسف عن غرناطة لولده « الراضي » عوضا عن الجزيرة الخضراء التي سلبها منه ؟

ان كان الأمر على هذا النسق فما أضعف معرفته بالأمير الأفريقي وتنبيهه لمعاريض كلامه ! فقد حسبه قادرا على التنازل عن مملكة غرناطة ، لكن سرعان ما أيقظ ابن تاشفين الأمراء من غفلتهم وأوضح لهم ما صعب

عليهم فهمه ففاتهم ادراكه اذ تلقاهم بفتور ، ولم يجب بشيء ما عن تلميح المعتمد الى غرناطة ، كما أنه عمد الى « عبيد الله بن المعتصم » فزج به فى السجن ، وكان لابد لمثل هذا المسلك من ازالة الغشاوة عن عيون الأمراء ، وأحس المعتمد بالخطر الشديد فقال للمتوكل : « والله لابد له أن يسقينا من الكأس التى سقى بها عبد الله بن بلقين » . ولم يلبث الأميران أن استأذناه فى الرحيل ، متذرعين بأنه قد تناهى اليهما أن القشتاليين عاودوا الكرة من جديد على بلادهما ، فلما أذن لهما بالرحيل انكفأ على عجل الى مملكتيهما حيث أشارا على غيرهما من الأمراء من حكام أسبانيا بالنهوض جميعا واتخاذ ما يتحتم عليهم اتخاذه لمقاومة الأمير المرابطى الذى لم تعد نواياه بخافية على أحد ما ، او سرا مكتوما ، وقد نجحت هذه الخطة اذ اتفق الأمراء فيما بينهم على ألا يمدوا المرابطين بالجند ولا المئونة ، وتعاهدوا فيما بينهم على التحالف مع ألفونس (٢٦) .

وعاد يوسف الى الجزيرة الخضراء بقصد الابحار ، وترك لقواده مهمة شاقة غير هينة ، تلك هى اسقاط الأمراء الأندلسيين عن عروشهم ، واستولى أثناء زحفه على كورة مالقة الصغيرة التى انتزعها من يد تميم أخى عبد الله ، وكان تميم أميرا ضعيفا لا يخشى شره ، ثم نبه يوسف على الفقهاء ــ وقد دنت الساعة الفاصلة ــ أنه ينتظر منهم فتوى صريحة ، فبادروا الى اجابته الى ما رغب ، ومن ثم أعلنوا أن الأمراء الأندلسيين « فسقة ، ودعار كفرة » ، وانهم بهذا النهج قد أفسدوا الأمة « وجعلوها لا تعبأ بكل ما هو مقدس » ، يشهد على صحة ذلك قلة المترددين على المساجد للصلاة ، أضف الى هذا أن الأمراء فرضوا ضرائب غير مشروعة ولا زالوا متمسكين بجبايتها رغم أن ابن تاشفين أمر برفعها وازالتها ، وأنهم قد ارتكبوا الكبيرة التى ليس بعدها كبيرة حين حالفوا ملك قشتالة : الذى هو ألد أعداء المسلمين ، مما ترتب على ذلك كله سقوط شرعية استمرارهم فى حكم المسلمين ، وأعلن الفقهاء أيضا أن يوسف بن تاشفين أصبح فى حل من جميع أيمانه وعهوده والتزاماته نحو هؤلاء الحكام ، ولم يعد خلعهم عن عروشهم من حقه فحسب بل صار واجبا عليه ، وختموا فتواهم بما يلى :

« ان هم الا قوم لا تحل طاعتهم ، ولا تجوز امامتهم ، لأنهم فساق فجرة ، فاخلعهم عنا ، فان كانوا عاهدوك فهاهم قد ناهضوك ، وأرسلوا الى اذ فونش أن يكونوا معه عليك حتى يوقعوك بين يديه ، ويعود أمرهم اليه ، فبادر بخلعهم ، ونحن بين يدى الله المحاسبون ، فان أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون ، فانك ان تركتهم ــ وأنت قادر عليهم ــ أعادوا بلاد الاسلام الى الروم ، وكنت ــ انت المحاسب بين يدى الله تعالى » .

هذه هي روح تلك الفتوى الخالدة التي تضمنت ـ الى جانب هذا ـ عددا كبيرا من الاتهامات ضد جماعة معينة من الأمراء ، ولم يستثنوا من ذلك الرميكية فاتهموها بانها أغرقت زوجها في بحار من اللذة لا انتهاء لها ، وأنها هي السبب الرئيسي في انصراف الناس عن التعبد ونهج الطريق القويم ٠

واهتم يوسف غاية الاهتمام بهذه الفتوى ، وأراد توكيد أهميتها فعمد الى التصديق عليها من فقهائه الأندلسيين ، كما بعث بها الى أشهر علماء مصر وآسيا ليؤكدوا رأي علماء المغرب ٠

الفصل الرابع عشر

اليهود والنصارى زمن المرابطين

صعوبة موقف المعتمد بعد مقتل ولده الفتح واستيلاء ابن تاشفين على قرطبة وتهديده لأشبيلية • قوات الفونس السادس التي أرسلها نجدة للمعتمد • دخول المرابطين لاشبيلية باتفاق مع الكارهين للمعتمد • تصدى المعتمد لوحشية الغزاة ومصرع ولده مالك أمام عينيه • الفاتح يأبى بأبى الا أن يستسلم المعتمد من غير قيد ولا شرط ، ويطالبه أن يسلمه ولديه الراضى والمعتد ثم قتله الراضى • استسلام المرية وبقية مدن الأندلس باستثناء سرقسطة • والسهلة • صرف النصارى من جيش سرقسطة ودخول المرابطين • على بن يوسف يخلف أباه يوسف ابن تاشفين • الفقهاء فى عهده • الغزالى • دوافع المطالبة باسلام اليهود • تأقلم المرابطين للحياة الأندلسية • ظهور الموحدين • زحف الفونس ملك آراجون على الأندلس • استيلاء الفونس السابع على بعض الأماكن الاسلامية • فساد أمور الأندلس وكراهية الناس لحكم المرابطين • تكاتف الأهالى مع الفونس السابع •

من اليسير على المرء أن يرجم بطبيعة الحرب التى كانت على وشك الشبوب ، فهى حرب ترمى الى المحاصرة ولا تعمد الى الاشتباك فى المعارك ، وقد استعد لها الفريقان فأخذ أحدهما فى الهجوم على الأماكن الحصينة وقام الآخر بصده عنها ، أما جيش المرابطين الذى كان بقيادة « سيرين ابن أبى بكر » - أحد أقارب يوسف فقد انقسم الى عدة أقسام مضى أحدها لمحاصرة « المرية » ، بينما حملت بقية الأقسام على حصون « المعتمد » التى استسلم منها فى شهر ديسمبر سنة ١٠٩٠ م [= ٤٨٣ هـ] حصن طريف (١) ، ثم شرع بعد فترة وجيزة عسكر يوسف - الذين واتاهم النصر سريعا - فى محاصرة قرطبة وكان يحكمها « الفتح بن المعتمد » الملقب بالمأمون ، ولم تقو عاصمة الخلافة القديمة على الاستمرار طويلا فى المقاومة ، اذ سرعان ما أسلمها سكانها الى المرابطين ، وحاول الفتح اذ ذاك أن يشق له طريقا بحد السيف بين جموع العدو والخونة ، لكنه غلب على أمره لكثرة هؤلاء فتكالبوا عليه وحزوا رأسه ووضعوها على سنان حربة وساروا بها يوم (٢) [السادس والعشرين من مارس ١٠٩٠ م [= ٤٨٣ هـ] وقد ازدهاهم النصر ، ثم سقطت (٣) « قرمونة » يوم العاشر من مايو سنة ١٠٩١ م [= ٤٨٤ هـ] وحينئذ أصبح فى الاستطاعة الشروع فى محاصرة مدينة أشبيلية التى وجدت نفسها وقد زحف عليها جيشان فى آن واحد أحدهما من الشرق والآخر من الغرب ، وكان نهر الوادى الكبير يفصل الجيش الثانى عن المدينة التى كانت منيعة من هذا الجانب على من يرومها بفضل وجود الأسطول .

أصبح موقف المعتمد اذ ذاك شديد الخطورة لكن بقى له أمل واحد ذلك هو اعتماده على مساعدة الفونس السادس له ، فقد قطع المعتمد له على نفسه أشهى الوعود ان هو خف لنجدته ، واستعد الفونس لمعاونته وبر بكلمته له ، فأرسل « ألفار فاينز » الى الأندلس على رأس جيش كبير ، غير أن سوء طالع المعتمد شاء أن يلقى « الفارو » الهزيمة على كثب من « المدور » على يد القوات التى أرسلها « سير » لصده ، فوقع هذا النبأ على ملك أشبيلية وقوع الصاعقة ، الا أن اليأس لم يداخله أيضا هذه المرة ، فقد أعانته نبوءات عرافيه وتكهناتهم وأمدته بالقوة ، وكانوا اذا بشروه استبشر وظن أنه ناج ، ولست أدرى بأى معجزة تكون نجاته .

ولما أشاروا الى الخاتمة وقالوا ان هناك أسدا يقبض على فريسته قد انحل بأسد فعهد بالدفاع الى ولده الرشيد (٤) ٠

الا أن الكارهين له الناقمين عليه الراغبين فى تسليم المدينة للعدو تباحثوا فى هـذه المسألة وتآمروا عليـه فيما بينهم ، وأظهروا التمرد والعصيان . فعرفهم المعتمد وكان فى استطاعته الفتك بهم كما أشار عليه بذلك الكثيرون ، الا أنه كره أن يختم عهده بعمل ينطوى على الفظاظـة واكتفى بمراقبتهم ، لكن تبين له أن مراقبته اياهم لم تؤد الى الحد من نشاطهم ، اذا لم يعدموا الوسيلة التى مكنتهم من الاتصـال بالقائمين بالحصار فساعدوهم فى نقب السور ، واستطاعت جماعة من المرابطين دخول المدينة من هذه الثغرة يوم الثلاثاء الثانى من ديسمبر [١٠٩١ م فلـم يـكد هـذا الخبر يتنـاهى الى سـمع « المعتمـد » حتى استل سيفه وبادر الى امتطاء جواده دون أن يلبس درعه أو يحمل مجنه ، وكر على البادئين بالبغى وهو فى نفر من المخلصين له ، فرماه فارس مرابطى بسهم مرق من تحت ابطه ومس قميصه ، واذ ذاك أخذ سيفه بكلتا يديه وضرب الفارس ضربة قطته نصفين ، ودفع بقية الأعداء الذين اضطروا الى التماس النجاة فى التعجيل بالهرب ، وسرعان ما سدت الثغرة فى الحال ، لكن اذا كان الخطر قد بعد مؤقتا فانه لم يلبث أن عاد من جديد حين نجح المرابطون ـ بعد الظهر ـ فى حرق الأسطول مما أوقع الذعر فى قلوب المحصورين ، وكان ذعرهم بليغا اذ أدركوا استحالة الاستقرار فى المدينة بعد تدمير السفن ، ولم يعودوا يجهلون أنه لم يمنع عدوهم من الهجوم عليهم الا انتظاره لمقدم « سير » على رأس امداداته ، كذلك دب الجزع بين السكان الذين لم يعد لهم شاغل سوى العمل على ما فيه انقاذ حياتهم ، فوثب البعض منهم فى النهر محاولين عبوره سباحة ، وقذف غيرهم بأنفسهم من فوق الأسوار حتى لقد دخل بعضهم الميازيب ٠

وجاء « سير » فى هذه الأثناء وشرع فى الهجوم يوم الأحد ٧ سبتمبر [١٠٩١ م] وقد استبسل الجند القائمون بحراسـة المتاريس أعظم استبسال ، غير أن العدو تكاثر عليهم ، وتمكن المرابطون من دخول المدينة وأخذوا فى نهبها واقتراف شتى ضروب الجور والموبقات بها ، وبلغت شراهتهم حدا عظيما حتى لقد جردوا الأشبيليين من آخر ما عليهم من الثياب ، ولم يتركوا لهم سبدا ولا لبدا ٠

كان المعتمد لا يزال فى القصر وقد أخـذت نسـوته فى العويل والصياح ، وتوسل اليه أصـحابه أن يستسلم لكنه لم يكن يميل أبدا الى الاستسلام ، لأن بدنه كان يقشعر كلما فكر فيما يلقاه من التجريس والتشـهير ان هو استسلم ، فهو لا يرهب الموت الذى طالما تحداه ٠

واستولت عليه هذه الفكرة فى هذه اللحظة فترجم عنها فى شعر له يقول فيه :

لما تماسكت الدموع	وتنهنه القلب الصديع
قالوا : الخضوع سياسة	فليبد منك لهم خضوع
والذ من طعم الخضوع	على فمى السم النقيع
ان تستلب عنى الدنا	ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه	لم تسلم القلب الضلوع
قد رمت يوم نزالهم	ألا تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى القميص	عن الحشا ، شىء دفوع
وبذلت نفسى كى تسيل	اذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر ، لم تكن	بهواى ذلى والخشوع

عاد المعتمد مرة أخرى يتحدى الموت الذى ظهر كالما كان يتجنبه ، فجمع عسكره ثم كر كرة اليائس المستميت على احدى كتائب المرابطين التى اقتحمت القصر ، وأخذ فى مطاردتها حتى كبها فى النهر ، ولقى فى هذه الوقعة ابنه « مالك » مصرعه ، أما هو فلم يصبه شىء بل انه لم يجرح ، ولما عاد الى قصره مر بخاطره أن يقتل نفسه ، لكنه كره أن يغضب الله بهذا الاثم المنكر فرجع عما بدى له ، ثم جمع عزمه فى النهاية على الاستسلام ٠

حين لف الظلام الكون بسرباله بعث المعتمد بابنه الرشيد الى « سير » ليتفقا على الشروط فراح أمله هباء منثورا ، اذ لم يفلح الرشيد فى ماارتجاه من التحدث اليه ، بل أنبأه القوم أن الواجب يقتضى أباه التسليم بلا قيد أو شرط ٠

لم يعد أمام المعتمد من سبيل غير ما فرض عليه ، ومن ثم عزم على نهج ما لابد له من نهجه ، فودع عائلته ورفاقه فى السلاح الذين اشتد عويلهم عليهم وبكاؤهم من أجله ، وأسلم هو وولده الرشيد نفسيهما للمرابطين الذين أخذوا فى نهب القصر كما نهبوا المدينة من قبل ، وأفضوا الى « المعتمد » أن دمه ودماء أسرته مرهونة بأن يبعث الى ولديه « الراضى بالله » القائم بحراسة حصن « رندة » والمعتد بالله « القائم بحراسة حصن « مرتلة » يأمرهما بالمبادرة الى الاستسلام لقوات المرابطين التى تحاصرهما ، فأذعن المعتمد لما أملى عليه ، ولما كان يعرف أن ولديه على غراره : أنفة وحمية ، فقد أقسم عليهما بوجوب النزول على مشيئته ، وأفهمهما أنهما بذلك يشتريان حياة أمهما واخوتهما وأخواتهما ٠ وضمت الرميكية توسلاتها اليه وخشيت أن يرفض ولداها الاستسلام وكانت محقة فى ذلك لأن الراضى ـ على الخصوص ـ كان كارها أشد الكره

للتسليم رغم معرفته بمصير عائلته المحتوم من جراء اصراره على المقاومة التى أراد الاستمساك بها لأنه كان لا يزال قادرا على الامتناع « برندة » التى عهد الى القائد « جرور » بمحاصرتها فظل على بعد منها دون أن يجرؤ على الدنو من هذا المعقل الأشب القائم على قنة جبل شـامخ شـديد الانحدار ، كما أنه لم يكن يأمل أبدا أن يتغلب عليها بالسلاح ٠

الا أن عاطفة البنوة تغلبت فى النهاية على قلب « الراضى » فقبل النزول من الحصن واتفق اتفاقا مشرفا له ، ثم فتح أبواب معقله للمرابطين ، غير أن « جرورا » لم يكن يقيم وزنا للعهد الذى قطعه على نفسه ، فقد اغتال « الراضى » بالله عقابا له على احجامه الطويل ورفضه الاستسلام ٠ أما المعتد بالله الذى بادر الى الاذعان فقد كان مصيره دون مصير أخيه سوءا وان تكن شروط استنزاله من حصنه قد تجوهلت تماما فاستأصل الفاتح جميع أمواله وكل ما يملكه (٥) ٠

عجل سقوط أشبيلية باستسلام « المرية » ، فقد أشار المعتصم وهو على فراش الموت على ولده البكر « عز الدولة » بالذهاب الى بلاط أصحاب « بوجة » التماسا للنجاة حالما يصله خبر استسلام أشبيلية التى لم تكد تستسلم حتى استجاب « عز الدولة » لرغبة أبيه الأخيرة ، ومن ثم دخل المرابطون « المرية » تخفق فوقهم الأعلام ، وتدق بين أيديهم الطبول (٦) ، وما لبثوا غير قليل من الزمن حتى استولوا على مرسـية و « دانيـة » وشاطبة (٧) ٠

بعد أن فرغ المرابطون من ذلك كله وجهوا قواتهم ضـد مملكة « بطليوس » التى رأى صاحبها « المتوكل » منذ حصار أشبيلية أن يحالف المرابطين دفعا لخطرهم ، بل ان البعض ليذهب للقول بأنه عاونهم فى الاستيلاء على عاصمة « المعتمد » (٨) ، غير أن حلفاءه المزعومين شرعوا أخيرا يعيثون فسـادا فى أراضيه ، مما حمله على الارتماء بين ذراعى (ألفونس ، واشـترى حمـاية هـذا الملك بالتخلى له عن لشـبونة و « سنترا » (٩) فأدى هذا العمل من جانبه الى تذمر رعيته منه وحملهم على دعوة المرابطين للمجىء اليهم ٠

حينذاك قام « سير » ـ وكان قد أصبح حاكما على أشبيلية ـ فأنفذ فى مستهل سنة ١٠٩٤ م [= ٤٨٧ هـ] جيشا لمحاربة المتوكل استطاع به غزو الاقليم بما فيه العاصمة ، وامتاز هذا الفتح باليسر والسرعة اللتين لم تدعا لألفونس مهلة من الزمن يستطيع فيها النهوض لمساعدة حليفه « المتوكل » الذى وقع فى أيدى العدو ، كمـا وقعت فى قبضـته قلعة « بطليوس » التى كان المتوكل قد اعتصم بها هو وأسرته ٠

حين أصبح « المتوكل » فى قبضة « سير » لم يتورع الأخير عن اللجوء الى ضروب القسوة كى يدفعه للكشف عن النواحي التي خبأ فيها أمواله ، فلما تم له ذلك أخبره أنه سائر به وبولديه « الفضل » و « العباس » الى أشبيلية ٠

لم يصدر ذلك الاستنزال الى أشبيلية عن نية حسنة من جانب « سير » بل حمله عليه تصميمه على التخلص من هؤلاء الأمراء ، لكنه كان يخشى أن يؤدى قتلهما - ان تم بالمدينة - الى عواقب وخيمة بها ، ومن ثم أمر القائد الناهض بالكتيبة بقتلهم حين يصبحون ظاهر البلد ، فلما بعد القوم عن « بطليوس » أمر القائد كلا من المتوكل وولديه بالاستعداد للموت قتلا ، ولم يحاول الأمير المنكود الحظ استرحام قاتله ادراكا منه لعدم جدوى هذه المحاولة ، بل كان كل ما سأله اياه هو أن يبدأ بقتل ولديه حتى تكون آلامه وهو يشاهد مصرعهما قادرة على محو آثامه ، فأجابه القائد الى طلبه ، فلما رأى المتوكل رأسي ولديه تتدحرجان بين يديه ركع مصليا صلاته الأخيرة ، لكن الجند لم يدعوه يتم صلاته فضربوه ضربة فصلت رأسه عن جسده (١٠) ٠

ولما كانت سنة ١١٠٢ م استولى المرابطون على بلنسية وهى المدينة التى دانت منذ ثماني سنوات للسيد ، وقد أخفق المرابطون فى محاولتهم انتزاعها منه ، بل استمرت فى يد أسرته فقد بقيت أرملته « شيمين » Chiméne مقيمة بها سنتين بعد موته عام ١٠٩٩ م حتى استدعت ألفونس لمساعدتها ، فرأى أن بلنسية بعيدة كل البعد عن أراضيه ، وألا جدوى له من نزاعه مع المسلمين من أجلها وأن الخير له فى التخلى عن هذه الفكرة ، وقد تم له ما أراد ، الا أنه لم يشأ أن يترك للمرابطين منها غير أطلال دارسة ، فعمد رجاله القشتاليون الى اضرام النار بها وهم يغادرونها (١١) ٠

لم يبق فى اسبانيا الاسلامية بعد ذلك غير امارتين لم تضما بعد الى المرابطين هما « سرقسطة » التى كان يحكمها « المستعين » من بنى هود ، و « السهلة » التى هى من أملاك « بنى رزين » الذين اعترفوا بسلطان يوسف عليهم ، لكنهم ما لبثوا أن عزلوا عنها (١٢) ٠

لقد كان المستعين أسعد طالعا من بنى رزين اذ عرف السبيل الى اكتساب عطف المرابطين عليه وتأييدهم اياه بفضل ما كان يصلهم به من الهدايا النفيسة ، ومن ثم أتيح له الاحتفاظ بعرشه ، الا أن الأمور تبدلت بعد موته فى ٢٤ ينساير سنة ١١١٠ م فقد خلفه ابنه « عماد الدولة » الذى أنكر سكان « سرقسطة » الاعتراف به الا اذا صرف الجند المسيحيين العاملين فى جيشه ، ولكن كان هذا الشرط الذى اشترطه

سكان سرقسطة أمرا يصعب تحقيقه ، وسببه أن النصارى كانوا يؤلفون منذ قرن من الزمان خيرة قوات جيش « سرقسطة » ، كما كانوا أقوى الدعائم التى يرتكز عليها العرش ، فاذا سرحهم « عماد الدولة » لم يأمن أن تثب عليه رعيته ، ولا يأمن أن لا تتوانى عن المبادرة الى تمليك البلد للمرابطين ٠

ومهما نكن الأمور فقد رضى الأمير بالعهد الذى قطعه القوم له على أنفسهم ، لكنه لم يكد يصرف الجند النصارى حتى خفت رعيته الى الاتصال بعلى بن يوسف بن تاشفين الذى كان يحكم اذ ذاك بعد أبيه الذى كان قد مات قبل هذا التاريخ بثلاث سنوات وأنبأته بتسريح النصارى من الجيش ، وذللت له أمر الاستيلاء على المملكة ، فلما علم « عماد الدولة » بمسلكهم وبما بيتوه له عاد من جديد الى استعمال المسيحيين مما أترع كأس غضب رعيته منه حتى الثمالة ، فأخبروا عليا بما جرى والتمسوا منه المعونة ٠

حينذاك سأل علي فقهاء مراكش ان كان يحق له اجابة هذا الملتمس فأكدوا له أن ذلك حق واجب عليه أداؤه ، ومن ثم بعث الى والى « بلنسية » يأمره بالزحف على « سرقسطة » فصدع صاحب بلنسية لأمره ، وكان « عماد الدولة » رأى أنه لن يصبح آمنا فى عاصمته فغادرها الى قلعة رويطة ، الا أنه قبل رحيله عنها كتب الى على بن يوسف بن تاشفين كتابا مؤثرا يستحلفه فيه ـ بحق الصداقة التى كانت تربط بين أبويهما ـ أن يتركه فى بلده طالما هو لم يفعل شيئا اذا يدفع عليا للزحف لقتاله ٠

وكان لهذا الكتاب أثره فى نفس على فقد تذكر ما كان أبوه قد أوصاه به وهو على فراش موته بأن يترفق مع بنى « هود » ، ولذلك بعث على [بن يوسف] الى حاكم بلنسية يأمره بالرجوع عن « سرقسطة » ، الا أن هذا الأمر وصل متأخرا بعد أن كان المرابطون قد دخلوها (١٣) ٠

بذلك دخلت جميع ولايات الأندلس الاسلامية تحت لواء سلطان مراكش ، وبهذا تحقق ما كان يتطلع اليه الشعب والفقهاء الذين لم يندموا على قيامهم بالمعاونة الجدية فى سبيل نجاح الثورة ، ولو أننا أردنا أن نجد مثيلا لما كان يتمتع به رجال الدين من السلطان فى ظل حكم المرابطين لتحتم علينا الرجوع الى الوراء الى زمن القوط ، ذلك أن الأمراء المرابطين الثلاثة الذين ولوا الحكم فى الأندلس واحدا بعد الآخر ، وأعنى بهم يوسف وعليا [١١٠٦ ـ ١١٤٣] وتاشفين [١١٤٣ ـ ١١٤٥] كانوا شديدى التدين فأحاطوا الفقهاء بمظاهر الاجلال ، وأسبغوا عليهم وارف ظلهم ، وكانوا لا يقدمون على عمل من الأعمال من غير رضائهم ،

وان كان « على اشد الجميع ميلا للفقهاء ، وكان القدر أخطأ اذ جعل هذا الرجل يولد فى مهاد الملوكية على حين أن طبيعته هيأته لحياة السكينة والتأمل الروحى ، وأعدته للرهبانية والاعتكاف فى الصحراء ، فلم يعرف عنه فى حياته الا الصوم والصلاة • ومن الطبيعى ألا يجد هذا الحاكم غير الثنــاء عليه من الفقهــاء الذين أخذوا يسـيرونه وفق ما يشتهون ، وأصبحت مقاليد الحـكم فى أيديهم وراحوا يتصرفون فى جميع وظائف الدولة ، وكانت لهم كل الحظوة عنده ، فامتلكوا الثروات الطائلة (١٤) • وقصارى القول أنهم جنوا الثمرات التى كانوا يأملونها من وراء فتـح الأندلس على يد المرابطين ، بل انه ليس من الاسراف فى شىء ان قلنا ان ما جنوه كان فوق ما كانوا يطمعون فيه •

لكن اذا كانت الحوادث قد حققت آمالهم فقد حققت أيضا مخاوف الجماعة التى كانت كارهة لحكم الطبقة الدينية وجند الصحراء ومراكش المتبربرين • كما كان هناك ما يدفع الأدباء والشعراء والفلاسفة الى الشكوى المريرة •

لا مشاحة فى أن كثيرا من الأدباء الذين كانوا يعملون فى دواوين الأمراء الأندلسيين قد شغلوا بعض الوظائف فى ديوان رسائل السلطان الجديد ، الا أنهم لم يجدوا أنفسهم يتبوؤن المكانة الجديرة بهم ، ووجدوا أنهم غير مطمئنين الى وجودهم وسط الفقهاء المتعصبين والجند الغلاظ ، وأدركوا أن حاشية الأمراء الأندلسيين كانوا شيئا يخالف كل المخالفة ما أصبحوا يعيشون معهم اليوم •

أجل •• ان المرء ليرى أن هؤلاء القوم اضـطرتهم الحاجة لكسب قوتهم الى مداهنة الأمراء المرابطين ، والى اهدائهم مؤلفاتهم وكانوا ينظرون بشىء من الأسى والاعجاب العظيم الى الأمراء المتأدبين الذين حكموا الأندلس من قبل ، كما وجد فى القوم من لم يستطع أن يكتم سخطه الشديد على هؤلاء الحكام الجدد ومثال ذلك الكاتب الذى ما كاد يتسلم الأمر بأن يكتب على لسان السلطان كتاب تأنيب لجيش بلنسية بسبب هزيمته أمام ملك « أرغونة » حتى استسلم هذا الكاتب لما تضـطرم به نفسه من الكراهية ، فجاء فى كتابه بأمثال هذه العبارات « أى بنى اللئيمة ، وأعيار الهزيمة ، الى متى يزيفكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ، فليت لكم بارتباط الخيول ضأنا لها حالب قاعد • لقد آن أن نوسعكم عقابا ، والا تلوثوا على وجه نقابا ، وأن نعيدكم الى صحرائكم ، ونطهر الجزيرة من رحضائكم » •

وما بنا من حاجة للقول بأن هذا الأسلوب قد أحنق السلطان فجازى الكاتب بأن صرفه عما بيده (١٥) •

أما الشـــعراء فلم يعودوا يجدون من يدنى مكانتهم الى السلطان المرابط ، فأخذوا يندبون ضياع الذوق ، ويندون بالهمجية التى اكتسحت بلادهم (١٦) . ومع ذلك فقد ظهرت بينهم جماعة لاقت الأمرين ، اذ راحوا يمتدحون بشعرهم الفقهاء الذين لم يكونوا يخلون من الزهو رغم ما هم عليه من الورع ، وكان أبرزهم فى ذلك كبيرهم « ابن حمدين » قاضى الجماعة بقرطبة ، فقد ادعى أنه عربى الأصل شريف النبعة حتى ليقول فيه القائل (١٧) :

اليك ابن حمدين انتحلت قصـــــائدا
بهـا رقصـت في القضب ورق الحمائم

أنا العبـــد ، لكن بالمـودة يشـــترى
اذا كان غـيرى يشـــترى بالدراهـــم

غير أن الفقهاء ـ ولا نستثنى منهم ابن حمدين الذى كان أثرى أهل قرطبة (١٨) ـ كانوا لا يبسطون أيديهم بالعطاء (١٩) ، ومن ثم انصرف عن مديحهم الشعراء ممن يحترمون أنفسهم ويكرمون فنهم ويربأون به عن مواضع الزلفى والتهمة ، وان عانوا شظف العيش ، ومنهم الشاعر الغزل « ابن بقى » الذى يعد من أحسن من أنجبتهم الأندلس ، فراح ينتقل من بلد الى بلد وقد أعوزه الرغيف (٢٠) ، فقال فى احدى قصائده :

اقمت فيـــكم على الاقتـــار والعـــدم
لو كنت حـــرا أبى النفس لـــم أقـــم

فلا حـــديقتكم يجنى لهـــا ثمـــر
ولاسماؤكمـــــــو تنهـــــل بالديـــم

أنا امـرؤ ان نبت بى أرض أنـــدلس
جئت العـراق فقـــامت لى على قـــدم

مـا العيش بالعـــلم الا حيلة ضـــعفت
وحـرفة وكلت بالقصـد البـرم (٢١)

غير أن العزاء الوحيد الذى بقى للشعراء هو أنه كان فى قدرتهم السخرية من أصحاب السلطان ابان ذلك العصر ، وكتابة الهجاء المقذع الذى يفيض بالسخائم ضد الفقهاء ، حتى ليقول بعضهم فيهم :

أهل الرياء لبســــتموا ناموسكـــــم
كالذئب يدلج فى الظلام العـاتم (٢٢)

غير ان ابداء ما فى النفوس من السخائم وما تنطوى عليه من الحنق على الفقهاء بهذه الصورة لم يكن مأمون العاقبة لأن هذه الطائفة من الناس كانت تعرف كيف تقتص ممن يجرؤون على التعرض لها ، ولسنا فى حاجة لأن نقول ان الفلسفة أصبحت علما محرما ، وقد أخطأ « مالك بن وهيب الأشبيلى » حين أخذ نفسه بالنظر فيها ، الا أنه أدرك ما ينطوى عليه هذا الميل من تعريض حياته للخطر فانصرف عنها وانكب على دراسة الفقه والشريعة ، ولم يندم على مسلكه الجديد الذى قربه من السلطان حتى صار صديقه وموضع سره وثقته ، وان لم يغفر القوم له أبدا خطيئته التى ارتكبها أيام شبابه ، فقد نظم أحد خصومه أبياتا نال فيها منه اذ يقول :

دولـــة لابـــن تاشـــــفين عـــلى طهـــرت بالكمــــال من كل عيب
غـــير أن الشــــيطان دس اليهـــا من حناياه : مالك بن وهيب (٢٣)

ولقد جاوز تعصب الفقهــاء كل حد ، وكان أفق تفكيرهم شــديد الضيق ، هذا الى قلة المامهم بالقرآن والأحاديث النبوية ، فلم يأخذوا أنفسهم بالتعمق الا فى دراسة ما كتبه تلاميذ « مالك بن أنس » الذين عدوهم أئمة معصومين ، ولا يجوز لأحد ما أن يخرج عما وضعوه ، وكان المامهم — والحق يقال — بالشريعة الماما دقيقا ، ولم تجد نفعا تلك المحاولات التى قام بها جماعة من مستنيرى الفقهاء للحد من أفكارهم ، فكان ردهم عليهم أن أخذوا فى اضطهادهم واعتبرهم الناس زنادقة وكفرة ومرتدين (٢٤) ٠

أما الكتاب الذى ألفه الغزالى فى الشرق وهو المعروف باحياء علوم الدين فقد أحدث فى الأندلس دويا عظيما وضجة كبرى ٠

لم يجد الغزالى فى مذهب ما من مذاهب علم الكلام ما يرضى نفسه ، فتشكك فى قيمة تلك المذاهب وتمادى فاصبح ألد أعداء الفلسفة ، وهو يؤكد فى كتابه « احياء علوم الدين » ان علم ما وراء الطبيعة لا ينبغى أن يستعمل الا للدفاع عن الدين الموحى به ، ويقول ان دراسة علم الطبيعة ينبغى اهمالها ان رأى فيها المرء ما يجرح الدين ، غير أن الغزالى بشر بمذهب عاطفى باطنى قوى ، يكاد أن يكون عقيدة يوحى بها القلب ، كما أسرف فى لوم رجال الدين من أهل عصره الذين اكتفوا بالقشور دون اللباب ، ولم يشغلوا أنفسهم بغير المسائل الجدلية التى لا تفيد ألبتة الا فى المنازعات التافهة التى تنشب بين الرعاع (٢٥) ، وبهذا هاجم فقهاء الأندلس فى أضعف نواحيهم فاستبد الغيظ بهم منه ، حتى لقد أفتى ابن حمدين — قاضى قرطبة بتكفير كل من ينظر فى كتابات الغزالى وحكم عليه بالهلاك ، وأصدر فتوى قال فيها بوجوب حرق هذا الكتاب وكل ما يشابهه من الكتب ، وأمضى كل فقهاء قرطبة هذه الفتوى ورفعوها الى

السلطان علي الذى أجاز ما بها ، ومن ثم جعلوا كتاب الغزالى طعمة للنيران في قرطبة وفي شتى مدن الامبراطورية ، وحرم على الناس امتلاك أشباهه والا قتلوا وصودرت أملاكهم وأموالهم (٢٦) ٠

من هذا يفهم أنه لم ينعم بالتسامح في ظل هذا الحكم من كانوا على غير الملة الاسلامية ، وهذا ما حدث مثلا لليهود فقد ابتدع أحد فقهاء قرطبة طريقة رآها خير وسيلة لحملهم على اعتناق الاسلم فزعم أنه عثر بين أوراق ابن مسرة على حديث نبوى يقول ان اليهود كانوا قد قطعوا على أنفسهم عهدا للرسول بأن يسلموا فى ختام القرن الخامس للهجرة ان لم يظهر « المسيح » المنتظر حتى ذلك الحين ، وجاى أن هذا الفقيه لم يكن على شيء من الالمام بالتاريخ الأدبى والا كان أحرص وأبعد عن أن يقول انه وجد ذلك الحديث بين أوراق ابن مسرة ، لأن الناس كانوا يعرفون فى ابن مسرة تهاونه فى شئون الدين تهاونا لا يشك أحد فيه أبدا (٢٧) ٠ غير أن القوم حينذاك لم يعبثوا بتلك المسالة ، وكان الداعى لهم الى ذلك هو أن السلطان يوسف [بن تاشفين] الذى كان موجودا حينئذ فى الأندلس ذهب الى مدينة لاشانة Lucena (وهى مدينة يهودية خالصة لا يستطيع أحد من المسلمين السكن بها) وكان غرض ابن تاشفين من ذلك الذهاب هو دعوة اليهود لتنفيذ العهد الذى قطعه أسلافهم على أنفسهم ، فدب الذعر الشديد بين يهود « لوسينا » ، لكن بقى أمامهم لحسن حظهم سبيل واحد للنجاة هو ان هذا العمل لم يكن صادرا عن وجدان صادق وايمان خالص بقدر ما هو صادر عن التطلع الى ما يملكه اليهود من المال ، لأنهم كانوا أثرى الناس فى العالم الاسلامى وكانت الحكومة تعتمد عليهم فى سد النقص فى الناحية المالية فان ظهر هذا النقص عمدت الى فرض الضرائب غير الشرعية ، ولم يجهل اليهود هذا الأمر فبعثوا الى ابن حمدين قاضى قرطبة يلتمسون منه الدفاع عنهم لدى السلطان ، فلم يخيب القـاضى ابن حمدين رجاءهم ووعدهم بتحقيق أملهم فيه ، ووفى لهم بعهده ، ولا ندرى عما اذا كان ابن حمدين قد قام بهذا العمل غير مأجور عليه ، ولكن مهما يكن الأمر فانه حث السلطان على أن يكتفى بقبول قدر من المال منهم ، وكان فى الواقع مبلغا جسيما ، غير أن الظروف المحيطة باليهود جعلتهم يرون أن التضحية بالمال ــ وان جلت ــ ليست بالكثيرة ازاء تركهم أحرارا وبقائهم على ملتهم (٢٨) ٠

أما المسيحيون ، أو « المستعربون » كما يسمون فقـد لاقوا عنتا شديدا لما كانت تنطوى عليه صدور الفقهاء والجمهور ضدهم من الكراهية العنيفة المتأججة ، وكانوا فى كثير من الجهات لا يزيدون عن فئات صغيرة لكنهم كانوا يؤلفون جمهرة كبيرة من سكان ولاية غرناطة ، وكانت لهم قرب العاصمة كنيسة فخمة شيدها سنة ٦٠٠ م أحد الأشراف القرطبيين

واسمه « جديلا » ، وقد أثارت هذه الكنيسة حقد الفقهاء الذين اعتمدوا بطبيعة الحال على عمل قام به الخليفة عمر بن عبد العزيز اذ كره أن تبقى أية كنيسة أو مذبح للنصارى ، قديما كان هذا البناء أو مستحدثا (٢٩) ، ومن ثم أصدر الفقهاء فتوى نصوا فيها على هدم كنيسة « جديلا » ، ولقيت هذه الفتوى رضاء يوسف ، ومن ثم تمت ازالتها وسويت بالأرض عام ١٠٩٩ م .

والظاهر أنهم فعلوا نفس هذا الفعل ازاء الكنائس الأخرى وان يكن الثابت – على الأقل – أن الفقهاء كبدوا المستعربين المشاق البالغة مما دفع الأخيرين فى النهاية للتوسل الى ملك « أرغونة » بالمجىء لتخليصهم من نير التعصب الذى يواجهونه ، فاستجاب الفونس لتوسلاتهم ، ومن ثم أخذ فى سبتمبر ١١٢٥ م فى الزحف بأربعة آلاف فارس يتبعهم رجالهم المدججون بالسلاح ، والذين أقسموا على الانجيل ألا يترك بعضهم بعضا ، ومع ذلك فلم تحقق حملته العهد الذى قطعته على نفسها .

حقيقة أن هذه الحملة ظلت تعيث فسادا وتخريبا فى الأندلس أكثر من عام ، وأنها تقدمت حتى طرقت أبواب قرطبة ، وانها انتصرت فى « أرنزول » القريبة من « لوثينا » انتصارا رائعا ، لكنهم مع ذلك كله لم تحقق الهدف المنشود الذى جاءت من أجله ، ونعنى به الاستيلاء على غرناطة ، لذلك ما كاد الجيش الأرغونى يرحل حتى أنزل المسلمون بالمستعربين أفظع الأحوال مما ترتب عليه هروب عشرة آلاف منهم فرارا من غضبهم الجنونى ، ولما كانوا يعرفون المصير الذى ينتظرهم فقد طلبوا من ألفونس أن يأذن لهم بالاقامة فى رحاب مملكته فاستجاب لهم ، ومع ذلك فقد بقى منهم فى غرناطة جمهور أكثر ممن هاجروا فصورت املاكهم ولاقوا أسوأ ضروب المعاملة ، فزج بالبعض منهم فى السجون ولقى الآخرون مصيرهم قتلا ، غير أن الغالبية العظمى منهم نقلت الى افريقية حيث تكبدوا أفظع الآلام ونزلوا فى ضواحى ومكناسة ، وكان ذلك سنة ١١٢٦ م وقد تم ذلك كله بمرسوم من السلطان « على بن يوسف » حمله على اصداره ابن رشد جد الفيلسوف المعروف (٣٠) ، وبعد ذلك الحادث باحدى عشر سنة نفى المستعربون مرة أخرى (٣١) ، حتى انه لم يبق منهم بالأندلس سوى طائفة قليلة .

كانت حكومة المرابطين شديدة الوطأة على فريق خاص من الناس ، مسرفة فى اضطهادهم ، لكن المسيحيين واليهود وأصحاب الفكر الحر من علماء المسلمين والفلاسفة والشعراء والأدباء كانوا لا يزيدون عن فئة قليلة ، وان كانت بلا ريب فئة هامة جدا لا يمكن اغفالها ، اذ تضم بين

افرادها جميع أرباب المواهب والكفاءات ، ولكنها لم تكن من الشعب الذى كان يبنى الآمال العراض على الحكومة الجديدة ، والذى كان يطمع أن تقر النظام فى الداخل وتحمى الشعب من الأعداء الذين يهددونه من الخارج ، كما كان هذا الشعب يتطلع اليها بعين الرجاء فى أن تخفف عبء الضرائب وتعمل على زيادة الرخاء العام ٠

فهل تحققت الآمال ؟

ربما أمكن القول انها تحققت زمن يوسف وكذلك فى السنوات الأولى من ولاية خليفته الذى جاء بعده ، فلم يضطرب حبل النظام ابان هذه الفترة وأمنت الطرق (٣٢) ، واستولت الرهبة على القشتاليين فكفوا عن العدوان، ولم يعودوا يفكرون فى المجىء لتخريب بقاع الأندلس (٣٣) ، وألغت الحكومة فى البداية كل ضريبة غير شرعية ٠ ولقد رأينا آنفا كيف التزم اليهود بتمويل بيت المال نيابة عن المسلمين كلما أعوزت بيت المال الحاجة الى المال ، لكننا لا نستطيع أن نجزم كما جزم أحد المؤرخين (٣٤) بأنه لم تكن هناك أى ضريبة باهظة ، اذ الثابت أن يوسف حاول ذات مرة فرض ضريبة حربية ــ أو كما سماها معونة ــ فلم يكن من أهل المرية الذى لم يظهروا أبدا أى ميل للمرابطين الا أن رفضوا دفعها ، وقام أبو عبد الله بن الفراء قاضى الجماعة فى المرية فرد على يوسف بقوله :

« أما بعد ، فما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخرى عن ذلك ، وأن جميع القضاة والفقهاء بالعدوة وبالأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ اقتضاها ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعه فى قبره ، ومن لا يشك فى عدله فان كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته فى العدل فالله سائلهم عن تقلدهم فيك ، وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف أن ليس عنده درهم واحد من بيت مال المسلمين ينفقه عليهم ، فلتدخل المسجد الجامع وتحلف أن ليس عندك درهم واحد ، وحينئذ تستوجب ذلك والسلام » (٣٥) ٠

فهل أدت هذه العبارات النارية الى صرف يوسف عما أراده ؟ أم جعلته يصر على طلبه ؟ ٠

لسنا على بينة من الأمر ، بيد أن هناك ما يحملنا على الظن بأن الضرائب غير الشرعية قد فرضت أيام على [بن يوسف بن تاشفين] اذ يقول أحد المؤرخين (٣٦) فى معرض كلامه عن الروم (ويعنى بهم

المسيحيين) الذين استعملهم على فى وظائف الدولة و انهم قد التزموا بالمغرم » ولا مشاحة فى أنه يندرج تحت هذه العبارة الضرائب التى لم ينص عليها القرآن •

أضف الى هذا ما يذكره أحد ثقات الجغرافيين (٣٧) من ان المرابطين قد فرضوا ضرائب كثيرة على جميع أنواع المتاجر ، ولا اقل من أنهم فرضوها فى عاصمتهم •

ومع ذلك فان الضرائب التى أصبح الشعب يدفعها كانت أقل من الضرائب التى كانت تجبى أيام الأمراء الأندلسيين ، ومن الطبيعى أن تزداد الرفاهية والرخاء بفضل هذا العمل وبفضل السكينة التى أصبحت البلاد تنعم بها وتعمها • والواقع أن الرخاء كان عظيما جدا ، والدليل على ذلك رخص القمح ، كما أصبح الناس قادرين على شراء اللحم بثمن لا يكاد يذكر لتفاهته (٣٨) •

ومجمل القول ان الشعب لم يداخله اليأس اذ ذاك ، لكن كل ما فى الأمر أن لابد وأن يكون قد أخطأ لو أنه اعتقد أن المرابطين قد حصلوا على انتصارات حاسمة على النصارى ، وانهم أعادوا بلاد الأندلس الاسلامية الى سابق عظمتها وبأسها اللذين كانت عليهما أيام عبد الرحمن الثالث والحكم الثانى والمنصور ، ومع ذلك فقد كانت الظروف جد مواتية ، فقد وقعت أسبانيا النصرانية عقب موت الفونس السادس سنة ١١٠٩ م فريسة للفوضى التى ظلت تتناهبها ردحا طويلا من الزمن ، وغشيتها الحروب الأهلية ، الا ان المرابطين لم ينتفعوا بتلك الظروف المتاحة لهم ، فقد ضاعت سدى جميع محاولاتهم فى سبيل استرجاع طليطلة ، ومع أنهم استطاعوا الاستيلاء على بعض مدن كانت دون طليطلة أهمية الا أن النجاح الذى أصابوه لم يكن يعادله سوى ضياع سرقسطة من أيديهم سنة ١١١٨ م •

أما الأمة فلم تطل فرحتها بانتهاء الثورة اذ دب الفساد فى الحكومة . ثم سرى واستشرى بين القادة والجند سريان النار فى الهشيم ، ذلك ان قادة يوسف ـ حين وصولهم الى أسبانيا ـ كانوا قادة أمين لكنهم شجعان متدينون مخلصون لمهمتهم ، يزاولون الحياة على نمط بسيط من العيش ويتبعون أسلوبا ساذجا يوائم الصحراء ، لكن لم تكد تتدفق بين أيديهم أموال الأمراء التى صادرها يوسف حتى فقدوا ميزاتهم السالفة ، ولم يعودوا يفكرون الا فى التمتع بما أصابوه (٣٩) •

كانت الحضارة الأندلسية عندهم شيئا جديدا لم يألفوه ، واصبحوا يخجلون من همجيتهم فطلبوا التعليم والتهذيب ، واتخذوا الأمراء الذين

خلعوهم عن عروشهم مثالا يحتذونه ، ومما يؤسف له أنهم كانوا أبعد من أن يتأثروا برقة الأندلسيين وحسن ذوقهم ولطف معشرهم ، بل كان كل كل ما فيهم مطبوعا بطابع التقليد الأعمى المعوج .

لقد بسطوا حمايتهم على الأدباء وأسبغوا عليهم وارف ظلهم وعطفهم ، وتدربوا على نظم الشعر والتأليف ، الا أنهم فعلوا ذلك كله جهالة واعتباطا وبأسلوب تنقصه الكياسة والذوق ، ومهما يكن ما فعلوه فانهم لم يهضموا الحضارة هضما تاما ، ومن ثم ظلوا على شيء من البداوة ولم يأخذوا من الحضارة الأندلسية سوى جانبها الهش ، ويقال ان أبا بكر بن ابراهيم - صهر علي - الذى بقي مدة من الزمن عاملا على غرناطة ثم سرقسطة - يعد مثالا لهؤلاء القواد الذين حاولوا أن يصبحوا أندلسيين فأخفقوا ولم يفلحوا .

لقد ولد أبو بكر بن ابراهيم في الصحراء وشب على مبادئ بني جنسه الجافة الصارمة ، فلما صار في سرقسطة نسي تلك المبادئ وراح ينسج على منوال « بني هود » ملوك سرقسطة السابقين ويقتفي نهجهم حذوك النعل بالنعل ، ولما كان « بنو هود » يعيشون عيشة الترف فقد طمع أبو بكر في هذه الحياة ذاتها ، ومن ثم أحاط نفسه بالندامى ، وكان اذا جلس للشراب معهم لبس تاجا وعباءة ملوكية ، ولما كانت الفلسفة قد نعمت بعطف بني هود - لاسيما المقتدر والمؤتمن اللذين عالجا الكتابة والتأليف فيها - فقد أراد أن يفعل مثل الذى فعـــلا دون يعبأ بما قد يقوله صهره والفقهاء في شأن ممارسته اياها ، فاولى صداقته وثقته وساق وزارته الى رجل لا يجرى اسمه على ألسنة الأتقياء الا استعاذوا بالله منه ، وهو رجل لا يؤمن بالقرآن بل ينكر كل وحي ذلك هو الفيلسوف الشهير ابن باجة (٤٠) مما أدى الى سخط الكثيرين من جنده عليه وانفضاضهم من حولـــه (٤١) .

وعلى الرغم من أن الجند كانوا أكثر اعتدالا من زعمائهم الا أنهم كانوا مثلهم خلقا ، فقد عرفوا بجرأتهم وسفههم على الأندلسيين وجبنهم أمام العدو ، والواقع أن جبنهم هذا كان كبيرا حتى لقد اضطر الملك أن يتناسى كراهيته للنصارى فضمهم الى جيشه واستقدم قائده ابن ميمون « صياد الآجال » من عند شواطئ غاليسية و « قطالونيا » وايطاليا والامبراطورية البيزنطية (٤٢) .

بلغت وقاحة جند المرابطين مبلغا لا حد له فنظروا الى بلاد الأندلس نظرتهم الى بلد مفتوح مغلوب على أمره ، فراحوا يتمتعون فيها بكل ما يرضي شهواتهم من المال والمتاع والنساء ، وتركتهم الحكومة يفعلون ما يشاؤون ولم تستطع ردهم عن شيء ما ، واتضح ضعفها جليا للعيان ،

وتخلى الفقهاء عن سلطتهم للنساء أو على الأقل أذنوا لهن بمشاركتهم فيها ، وأصبح الملك يأتمر بأمر زوجته « قمر » ، كما أن هناك غيرها من النساء صرن يتصرفن فى الوظائف العليا ويستعملن فيها من أردن ، فان استطاع المرء أن يرضى أهواءهن تجاسر فانطلق يفعل ما يشاء ، حتى صار فى قدرة اللصوص أن يأمنوا أن تمتد اليهم يد العدالة اذا استطاعوا بوسيلة أو أخرى شراء حماية أولئك النسوة لهن ، اذ كان بيدهن خلع الوظائف على من أردن ، وقد جرت عادتهن أن يسقن هذه الوظائف الى رجال ضعاف أشد الضعف · ومجمل القول ان الفساد كان قد دب فى الحكومة التى غدت محتقرة مرذولة يسخر منها الجيش والشعب على السواء لأنها كانت تنسخ اليوم الأوامر التى قضت بها بالأمس ، كما تطلع كبار السادة الى الاستحواذ على العرش ، وكثيرا ما سمعهم الناس يقولون انه لو ألقيت اليهم مقاليد الحكم لحكموا خيرا من الأمير على الضعيف الذى لا يعرف غير الصلاة والصوم (٤٣) ·

ومما زاد الطين بلة قيام ثورة بالرة بافريقية سنة ١١٢١ م وهى التى اضرمها سكان جبال أطلس المراكشية الذين اتسموا بالهمجية وعرفوا بالموحدين فقد هبوا لحمل السلاح ضد المرابطين ، وحرضهم على ذلك التمرد رجلى يدعى الاصلاح ، ويزعم أنه المهدى الذى بشر به النبى [عليه الصلاة والسلام] · وكان لابد لمثل هذه الثورة من القضاء على دولة نخرها الضعف حتى وهى أساسها فاضطربت أحوالها،واختلت أمورها، وكان الجند الذين تستعملهم هذه الدولة ـ باستثناء النصارى ـ أسوأ جند ، حتى لقد كان يكفى منظر العدو وحده لحملهم على الفرار والهزيمة ·

تازمت الأحوال أمام الحكومة فاوقع فى يدها فلم تدر ما تفعل ، غير أنها أرادت أن تمد قليلا فى حياتها التميسة فارجعت للأندلس الجند والسلاح والذخيرة والأقوات (٤٤) ، ولم يفت ذلك العمل انتباه المسيحيين الذين بادروا الى الاستفادة مما هو واقع فعلا ، فقام ألفونس المحارب ملك « أرجون » سنة ١١٢٥ م أعنى بعد أربع سنوات من بدء ثورة الموحدين ـ بالزحف على الأندلس ، وظل أكثر من عام يعيث فيها فسادا ·

كذلك حدث فى سنة ١١١٣ م أن أقام ألفونس السابع ملك قشتالة والملقب بالامبراطور لقب جده ألفونس السادس وأعمل السيف فى نواحى قرطبة وأشبيلية وقرمونة ، وأجرى على أديمها الدم وترك النيران ترعى بها ، كما استولى على « شريش » فخربها هى الأخرى وأحرقها ، وتقدم فى زحفه حتى وصل الى موضع كان يسمى ببرج‌قادش

أو أعمدة هرقل (٤٥) . وأفسد فيه كما افسد جده من قبل زمن المعتمد فقد عاود بعد خمس سنوات تخريب ضواحى « جيان » و « بايزة » و « أونبة » و « أندوشر Andujar ، ثم رجع مرة ثانية سنة ١١٤٣ ، الى قادش وأشبيلية و « قرمونة » ، كما نهب فى العام التالى واحرق جميع بلدان الأندلس الواقعة بين قلعة رباح و « المرية » (٤٦) .

ظل الشعب الأندلسى ينعم بالرخاء مدة سنوات قلائل وذلك بفضل الثورة التى تحمس فى الترحيب بها ، ثم ابتلى بعدئذ بحكومة ضعيفة منحلة ، وزمرة من الجند الضعاف السفاكين الذين لا يخضعون للنظام كما ابتلى بشرطة فاسدة ، يدل على ذلك كثرة اللصوص بالقرى ، كما تعددت غارات قطاع الطرق على الريف ، فشلت الحركة التجارية ، وركدت الصناعة ، وارتفعت أسعار الأقوات حتى لقد أدت الحال الى ما يشبه المجاعة ، ونكبت البلاد بكثير من الغزوات التى لم ير لها مثيل من قبل والتى أخذت تزداد للأسف يوما بعد يوم (٤٧) ، فتلاشت الآمال ، وراح الناس يصبون اللعنات على أولئك المرابطين بعد أن كانوا يعدونهم المنقذين لبـــلادهم وملتهم ، وأخـــذ أهـــل قرطبـــة منذ ســـنة ١١٢١ م فى التمرد على الجند الموكول اليهم حماية المدينة لارتكابهم شـــتى ضروب المظالم دون أن تتدخل الحكومة فتضرب على أيديهم حتى يكفوا عما هم بسبيله ، وطرد القرطبيون هؤلاء المتبربرين ونهبوا مساكنهم ، واذ ذاك جاء الملك « على » الى الأندلس بحشد كثيف من أهل أفريقية ، وكان من الضخامة بالصورة التى لم يسبق لسواطىء أسبانيا أن رأت لها قط مثيلا من قبل ، غير ان كيل الغضب كان قد طفح عند القرطبيين فأجمعوا العزم على الاستبسال فى الدفاع عن أنفسهم استبسالا دفعهم اليه اليأس ، فأغلقوا أبواب المدينة وأقاموا المتاريس بالشوارع . الا أن الجانبين لم يكونا متكافئين مما دعا الفقهاء للتدخل لحقن الدماء والحيلولة دون اهراقها، وعلى الرغم مما طبع عليه الفقهاء من أمور كانت تستنكر منهم الا أنهم انضموا هذه المرة الى جانب مواطنيهم ووقفوا فى وجه أصحاب البأس والسلطان ، وأفتوا بأن ثورة أهل قرطبة انما هى ثورة عادلة يقرها الشرع، وبرروا عمل أهلها بأنهم لم يمتشقوا السلاح الا دفاعا عما يملكون ، وذبا عن حرماتهم وحياتهم . وقد أقر على كما هى العادة وجهة نظر الفقهاء ، وجرت مفاوضـــات طويلة انتهت برضـــاء القرطبيين بدفع دية عما نهبوه وحطمـــوه (٤٨) .

أما فى المدن الأخرى فقد أخذ التذمر فى الازدياد ، وراح الناس يحنون الى الماضى الدابر ، ويتمنون رجوعه رغم أنه لم يكن بالماضى الزاهى ، ولكنهم أصبحوا يفضلونه على وضعهم الحالى ويؤثرونه على ما هم فيه من

النكد والمشقة التى ضجروا منها ، وثبت ذلك عندهم حين قرءوا الرسالة التى بعث بها الاشبيليون فى سنة ١١٣٣ م الى سيف الدولة آخر ملوك سرقسطة الذى كان موجودا حينذاك فى جيش ألفونس السابع المرابط أمام أبواب مدينتهم وقالوا له فيها « خاطب عنا ملك النصارى ، وأكد له تأكيدا لا نقض فيه أننا سوف نتخلص من نير المرابطين ، وانا لن نكاد نتحرر منهم حتى ندفع لملك قشتالة جزية أضخم بكثير مما كان آباؤنا يدفعونها لأسلافه ، وأما أنت فسيكون لك الحكم علينا ثم لأولادك من بعدك » (٤٩) ٠

وبعد احدى عشرة سنة من هذا الحادث كان الناس يقولون فى الشوارع والمساجد « لقد استغلنا المرابطون غاية الاستغلال ، فسلبونا أملاكنا ، واحتجنوا أموالنا ، وسبوا نساءنا ، واسترقوا أبناءنا ٠٠٠ فلننهض ضدهم ، ولنطاردهم ، ولنعمل على الفتك بهم » ٠

وقال آخرون : « ينبغى علينا قبل كل شىء أن نتحالف مع امبراطور « ليون » وندفع له الجزية كما دفعها له آباؤنا من قبل » ٠ فيجيبهم آخرون : « أجل ٠ ان كل ما تقولون هو الصواب على شرط أن نتخلص من المرابطين ! » ٠

هكذا راح الناس يتمنون على الله نجاح الخطط التى دبروها ، وقامت جميع بلاد الأندلس قومة رجل واحد للوثوب على مضطهديها والتخلص منهم ، وكان القضاة والفقهاء (٥٠) على رأسهم جميعا ٠

اننا لم نذكر تاريخ هذه الثورة ولا تاريخ فتح الأندلس على يد الموحدين الذين حلوا محل المرابطين فى بلاد مراكش ، وذلك لأن المحاولة التى وضعناها نصب أعيننا هى دراسة تاريخ الأندلس المحتلة ، ولو أننا تناولنا الحقبة التى كان فيها هذا القطر ولاية من ولايات دولة أخرى فاننا بذلك نكون قد جاوزنا الحدود المرسومة لموضوعنا ، ونحن نفعل ذلك لأننا نعتقد أن واجبنا يتلخص فى أنه ينبغى علينا أن نبين فى جلاء كيف أن الأندلس لم تكن ناعمة البال حين احتلها المرابطون ، وأنها راحت تندب أمراءها الذين افترت عليهم أشد الافتراء وتخلت عنهم وقت الخطر تخليا كان هو الخيانة ٠٠

وقبل أن نختم هذا الموضوع نرى أنه بقى أمامنا واجب واحد لازال يقتضينا أن نبثه ، ذلك هو عرض سيرة المعتمد أثناء أسره ٠

الفصل الخامس عشر

سيرة المعتمد ونهايته

نفي المعتمد الى طنجة ولقاؤه بالشاعر الحصرى • كرم المعتمد لا يبارحه حتى فى متربته• نفيه بعدئذ الى مكناسة • ثم سجنه فى اغمات • تدهور حال زوجته وبناته والتماسهن العيش بصناعة الغزل • شعر المعتمد فى وصف حاله ومآل أهل بيته • حزنه الشديد على مرض الرميكية وسؤاله الطبيب ابن زهر لعلاجها • المعتمد يجد عزاءه فى ما يبعثه اليه الشعراء من قصائدهم وزيارة بعضهم له • عبد الجبار بن المعتمد يقف ضد المرابطين • ابن حمديس الشاعر يتوقع عودة المعتمد لملكته وشعره فى ذلك • وفاة المعتمد ودفنه • خلاصة القول فى المعتمد وحب الناس له • افتخار اللخميين به • شعر ابن الخطيب فى مدحه بعد زمن طويل •

سيرة المعتمد ونهايته

رغم الفضائل الجمة التي يشهد بها الفقهاء ليوسف [بن تاشفين] الا أن حقده على المغلوبين لم يكن يبارحه ، فقد اتبع مع الأمراء الأندلسيين الذين وقعوا في أسره أسلوبا شديد الفظاظة ممزوجا بالمقت لهم ، وان يكن قد أحسن معاملة حفيدي باديس اذ رد عليهما حريتهما على ألا يبرحا بلاد المغرب ، وأجرى عليهما معاشا ضخما ، حتى لقد خلف عبد الله لأولاده من بعده ثروة طائلة ، لكن يوسف كان مدفوعا الى هذه المعاملة بحبه لحفيدي باديس – وهما من نفس جنسه – ثم انهما كانا رجلين رخوي المغمز ، هشي المكسر لا يخشى شرهما ، بل كانا يعملان على التلطف اليه (١) . أما غيرهما من الأمراء – أمثال الراضي والمتوكل وفضل وعباس – فقد رأينا ما حل بهم على يده ، كما لاقى المعتمد أسوأ المصير وان لم يقدم يوسف على قتله بل أبقاه حيا .

ما كادت اشبيلية تسقط في يد ابن تاشفين حتى أمر باستنزال « المعتمد » الى طنجة ، وكان في وداعه وقت ركوبه البحر هو وأهل بيته حشد كثيف من الأهالي زخرت بهم ضفاف الوادي الكبير ، وقد وصف الشاعر « ابن اللبانة » هذا المنظر في احدى مراثيه فقال (٢) :

نسيت – الا غداة النهر – كونهمو
في المنشآت كأموات بالحاد

والناس قد ملأوا البرين واعتبروا
من لؤلؤ طافيات فوق ازباد

حط القناع فلم تستر مخدرة
ومزقت أوجه تمزيق أبراد

يا ضيف : أقفر بيت المكرمات فخذ
في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

ويا مؤمل واديهم ليسكنه
خف القطين وجف الزرع بالوادي

ضلت سبيل الندى بابن السبيل فسر
لغير قصد ، فما يهديك من هادى

لبث المعتمد بضعة أيام بطنجه وكان بها اذ ذاك الشاعر الحصرى الذى سلفت له الاقامة ردحا من الزمن فى بلاط أشبيلية ، فرفع الى المعتمد مجموعة من القصائد القديمة التى سبق أن امتدحه بها ، وان كان من بينها واحدة مستحدثة يطلب فيها أن يصله بأية صلة رغم معرفته أن المعتمد لم يعد فى حال تمكنه من وصله بأى عطية • والواقع أن ملك أشبيلية السابق لم يكن قد تبقى فى يده من ثروته سوى ستة وثلاثين منقالا كان قد أخفاها فى خفه ، وطبعتها قدماه بدمه ، غير أن ما جبل عليه المعتمد من الكرم والجود دفعه للمبادرة الى التنازل عن هذا القدر من المال ، فوضعه فى كاغد وكتب معه أبياتا يعتذر بها الى « الحصرى » من ضآلة الصلة ، غير أن ذلك الصعلوك الوضيع لم يشكر للمعتمد يده عليه بل سكت عنه • فلما اتصل خبر هذه العطية بزعانفة شعراء « طنجة » وما حولها توافدوا على المعتمد زرافات ووحدانا يرفعون اليه قصائدهم يلتمسون نداه ، الا أنه كان للأسف خالى الوفاض ولم يعد يملك ما يستطيع أن يرفدهم به فقال (٣) :

شعراء طنجة كلهم والمغرب
ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب

سالوا العسير من الأسير وانه
بسؤالهم لأحق ، فاعجب واعجب

لولا الحياء وعزة لخمية
طى الحشا ، ساواهموا فى المطلب

قد كان ان سئل الندى يجزل ، وان
نادى الصريخ ببابه اركب : يركب

ثم سير به من « طنجة » الى « مكناسة » ، وبينما هو فى الطريق اذا به يصادف جماعة خارجين للاستسقاء فقال (٤) :

خرجوا ليستسقوا فقلت لهم دمعى ينوب لكم عن الأنواء
قالوا : حقيقا فى دموعك مقنع لكنها ممزوجة بدماء

ظل المعتمد بمكناسة بضعة أشهر (٥) حتى أمر يوسف باستنزاله الى بلدة « أغمات » (٦) القريبة من مراكش ، وبينما القوم سائرون به

خاطبه ابنه الرشيد بالأبيات التالية ، وكان المعتمد قد رفض رؤية ولده « بسبب لا ندريه » ، وكان ساخطا عليه :

يا حليف الندى ورب السماح	وحبيب النفـوس والأرواح
من تمـام النعمى على التماحي	لمحـة من جبينـك الوضـاح
قـد غنينـا ببشره وسناه	عن ضيـاء الصبـاح والمصبـاح

فرد عليه المعتمد بقولــه (٧) :

كنت حلف الندى ورب السماح	وحبيب النفـوس والأرواح
اذ يمينى للبذل يوم العطايـا	ولقبض الأرواح يوم الكفـاح
وشـمالى لقبـض كل عنـان	يقحم الخيل فى مجال الرماح
وأنـا اليوم رهـن أسر وفقر	مستباح الحمى ، مهيض الجناح
لا أجيب الصريخ ان حضر الناس	ولا المعتفـين يـوم السماح
عاد بشرى الذى عهدت عبوسا	شغلتنى الأشجان عن أفـراح
فالتماحى الى العيون كريـه	ولقـد كان ترفـة اللمـاح

حين بلغ المعتمد « أغمات » أخذوه الى السجن حيث عانى به أقسى ضروب الحياة وآلامها ، وشغلت الحكومة نفسها بأمره فكانت طورا تقيده بالسلاسل ، وطوارا تطرحها عنه ، ولكنها لم تهتم أبدا بتدبير معاشه ، ومن ثم فقد قاسى المعتمد هنا هو وأسرته شظف الحياة ، ودفعت الحاجة زوجه وبناته لاحتراف صناعة الغزل ليكتسبن من ورائها ما يمسك عليهن أودهن ، أما هو فقد كان نظم القريض سلواه ، وقد حدث أن أطل من كوة مطبقه الضيق فأبصر سربا من القطا مسرعا فى طيرانه فقال (٨) :

بكيت الى سرب القطـا اذ مـررن بى
سـوادح لا سـجن يعـوق ولا كبـل

ولم يـك والله المعيــد حسـارة
ولكن حنينا أن شـكلى لها شـكل

فاسرح ، لا شملى صديع ، ولا الحشـا
وجيع ، ولا عينـاى يبكيهمـا ثـكل

هنيئـا لهـا ان لم يفـرق جميعهـا
ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهـل

وأن لم تبت مثلى تطـير قلوبهـا
اذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل

لنفسي الى لقيـــا الحمام تشــوف
سواى يحب العيش فى ساقه حجـــل
الاعصــم الله القطـــا فى فراخهـــا
فـــان فـــراخي خانهــا الماء والظـــل

كان المعتمد يصور في قصائده ماضيه الأثيل وقصوره الرائعة التي شهدت جوانبها سعادته ، وبكى في هذه الاشعار أولاده الذين اغتالتهم يد القتل ، وقد نظم فى عيد الفطر الأبيات التاليـــة (٩) :

فيما مضى كنت بالأعيـــاد مسرورا
فساءك العيـــد فى أغمـــات مأســورا

ترى بنــاتك فى الأطمـــار جائعـــة
يغزلن للنـــاس ، ما يملكن قطميرا

بــرزن نحـــوك للتسـليم خاشعـــة
أبصارهـــن حسـيرات مكاســـيرا

يطأن فى الطــين والأقــدام عاريـــة
كأنهـــا لم تطـــأ مســـكا وكافـــورا

لا خد الا تشـــكى الجـــدب ظاهـــره
وليس الآمـــع الأنفـــاس ممطـــورا

أفطرت في العيـــد لاعـــادت اســـاءته
فـــكان فطـــرك للأكبـــاد تفطـــيرا

قـــد كان دهرك ــ ان تامـــره ــ ممتثـــلا
فـــردك الدهـــر منهيـــا ومأمـــورا

من بات بعـــدك فى ملك يسر بـــه
فانمـــا بـــات بالأحـــلام مغـــرورا

لم تكن رميكية التعيسة قد خلقت لمكابدة هذه الحياة القاسية الجافة فاشتدت بها العلة حتى خيف عليها ، وجزع المعتمد عليها جزعا بالغا اذ لم يكن بأغمات من يجرؤ على الاقدام على معالجتها ، غير أن حسن طالعه قيض لـــه أن يكون بمراكش فى ذلك الحين أبو العـــلاء بن زهـــر (١٠) « الطبيب المعروف الذى كان المعتمد قد اتخذه فى أخريات سنيه ــ قبل ثل عرشه ــ طبيبه الخاص ، وكان المتضد قد نزع منه أملاك أسرته (١١) فردها عليه المعتمد ، ومن ثم كتب اليه المعتمد يرجوه القيام بعلاج الرميكية

مما ألم بها فوعده ابن زهر بالمجيء ، ودعى فى كتابه اليه بطول البقاء والأجل ، فكتب اليه المعتمد يشكره ويقول :

دعا لى بالبقاء ، وكيف يهوى ... اسير أن يطول به البقاء
أليس الموت أروح من حياة ... يطول على الشقى بها الشقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتى ... عوارى قد أضر بها الحفاء ؟
حوادم بنت (١٢) من قد كان أعلى ... مراتبه ـ اذا أبدو (١٣) ـ النداء
وطرد الناس بين يدى ممرى ... وكفهمو ، اذا غص الفناء
وركض عن يمين أو شمال ... لنظم الجيش ان رفع اللواء
يعنيه أمام أو وراء ... اذا اختل الأمام او الوراء
ولكن الضمير اذا دعاه ... ضمير خالص ، نفع الدعاء
جزيت أبا العلاء جزاء بر ... نوى برا ، وصاحبك العلاء (١٤)

ولعل المعتمد كان يجد بعض العزاء والسلوى لنفسه فيما يجيئه من كتب الشعراء وفى زيارات من غمرهم احسانه من قبل وسخت عليهم يداه ، وكان الكثيرون منهم قد رحلوا الى « أغمات » ، ومن بينهم « محمد الحجارى » الذى كان قد قال فى المعتمد شعرا نفحه من أجله قدرا كبيرا من المال استطاع به أن يفتح متجرا در عليه أخلاف النعم ، وتفيأ بسببه ظل الرفاهية ، وقد اعترف المعتمد له بخطئه الجسيم اذ استدعى يوسف الى بلاد الأندلس ، وكان مما قاله له : « أنا الجانى على نفسى ، والحافر بيدى رمسى » .

ولما جاء هذا الشاعر الى وداعه وهو يتأهب للعوده الى « المرية » حيث يقيم أنكر المعتمد على نفسه أن يدعه يرحل دون أن يصله بشىء ما وان صغر ، غير أن رقة نفس الحجارى حملته على رد هديته وارتجل أمامه هذين البيتين (١٥):

أليت لا أقبل احسانكم ... والدهر فيما قد عراكم مسى
ففى الذى أسلفتموا غنية ... وان يكن عندكم قد نسى

غير أن ابن اللبانة (١٦) كان أشد أصدقائه اخلاصا له وتعلقا به .

فقد قدم ابن اللبانة ذات مرة الى « أغمات » يبشر المعتمد بثورة أهل الأندلس واتفاق الوطنيين منهم على القيام بمؤامرة لتقويض أركان حكم يوسف الذى لم يحبوه أبدا ، وأفضى ابن اللبانة الى المعتمد بأن القوم يدبرون احلال المعتمد مكان يوسف على العرش (١٧) . وكان حقا ما ذكره الشاعر فقد اشتد تبرم الطبقات المستنيرة بالحكومة واشتد سخط الناس عليها ، لكن الحكومة لم يخف عليها ما دبره الناس فأخذت حذرها واحتاطت

لنفسها ، اذ ألقت القبض على رعيل كبير ممن يساورها الشك فيهم لاسيما في « مالقة » ـ الا أن المتآمرين من أهلها ـ وعلى رأسهم ابن خلف الوطني الكبير ـ اغتنموا فرصة الظلام وفروا من السجن وانطلقوا الى حصن « منت ميور » (١٨) فاحتلوه وسرعان ما انضم اليهم عبد الجبار ـ أحد أولاد المعتمد ـ الذي بقي بالأندلس مع أمه ، وكان الناس يظنونه الراضي قتيل « رندة » فسودوه عليهم ، وسارت الأمور وفق ما يشتهون ، فقد جنحت سفينة حربية مغربية الى جوار الحصن فاستولى أهل الحصن وأخذوا ما بها من الذخيرة والمئونة والسلاح ، وانضمت اليهم في تمردهم هذا : « الجزيرة الخضراء » و « أركش » التي ذهب اليها عبد الجبار سنة ١٠٩٥ م [= ٤٨٨ هـ] وشن منها عدة غارات حتى بلغ أبواب عاصمة مملكة أسلافه القديمة (١٩) .

ما أن سمع المعتمد بنبأ ثورة ابنه حتى اشتد به الحزن اذ أقلقه خطورة المشروع الذي هو مقدم عليه وخاف أن يلقى عبد الجبار من المصير المنكود ما لقيه معظم أولاده ، الا أن الأمل سرعان ما حل بفؤاده فاستشف من حجب الغيب امكان عودته الى بلده واستعادته عرشه (٢٠) ولم يكتم التصريح بهذا أمام أصدقائه ، من ذلك مثلا ما كتبه الى الشاعر ابن حمديس الذي كان قد عاد الى المهدية بعد زيارة قام بها الى المعتمد ، فقد بعث اليه بقصيدة استهلها بقوله (٢١) :

غريب بأرض المغربين أسير   سيبكى عليه منبر وسرير

وفيها يقول :

مضى زمن والملك مستأنس به
وأصبح منه اليوم وهو نفور

فياليت شعرى هل أبيتن ليلة
أمامى وخلفى روضة وغدير ؟

بمنبتة الزيتون مورثة العلا
تغنى حمام أو ترن طيور

وأحيى ابن اللبانة ميت الآمال فى نفس المعتمد ، فلما كانت الليلة التي اعتزم في غداتها العودة الى الأندلس جاءه منه عشرون مثقالا وثوبان ، فرد الشاعر اليه هديته وقال له (٢٢) :

رويدك سوف توسعنى سرورا   اذا عاد ارتقاؤك للسرير
وسوف تحلنى رتب المعالى   غداة تحل فى تلك القصور

تزيــد على ابن مروان عطــا. بهـا ، وأنيـف ثم على جـرير
تـأهب أن تعـود الى طلـوع فليس الخسف ملتزم البدور

وعاد المعتمد يرسف فى الأغلال بأمر يوسف اذ :

رأوه ليثا فخافوا منه عاديـه عذرنهم ، فلعدوى الليث عادات

ومع ذلك فلم يزل المعتمد يعيش وفى قلبه الآمل الريان الذى كان هناك من يعمل على ايراقه واذكائه ، وذلك لكثرة عديد أنصار عبد الجبار ، أولئك الأنصار الذين أقلقوا بال الحكومة أشد القلق ، وقد استطاع هذا الحزب أن يبقى آكثر من عامين ، بل ان هذا الحزب ذاته لم يسقط الا بعد أن قبض الموت المعتمد بعد علة طويلة لازمته وأضعفت (٢٣) قواه سنة ١٠٩٥ م [= ربيع الأول سنة ٤٨٨] ، وكان اذ ذاك فى الخمسين من عمــره (٢٤) ٠

دفن ملك أشبيلية الراحل فى مقبرة « اغمات » ، وحدث فيما بعد فى أحد أعياد الفطر أن قدم الشاعر الأندلسى ابن عبد الصمد فطاف بقبره سبع مرات طواف الحجيج بمكة ، ثم ركع وقبل الأرض التى ثوى تحتها جثمان المحسن اليه وأنشد مرثيته فيه ، فتأثر الناس بعمله وفعلوا فعله وهم يبكون (٢٥) ٠

ويقول أحد مؤرخى (٢٦) القرن الثالث عشر : « رزق المعتمد من الناس حبا ورحمة ، فهم يبكونه الى اليوم » ٠ والواقع أن المعتمد كان أذيع أمراء لأندلس صيتا وأنبههم ذكرا ، لأن كرمه وشجاعته وبطولتـه كانت هذه كلها كفيلة برفعه فى أعين المتحضرين الذين جاءوا بعد جيله ، كما حزن لمصيره المنكود من رقت قلوبهم فعطفوا عليه وشجاهم خطبه ٠ أما العامة فقد آكبرت فيه مخاطراته المستعذبة ٠

واذ كان المعتمد شاعرا فحلا فقد أحبه البدو الذين يؤهلهم امتلاكهم ناصية اللغة ومعرفتهم بجيد الشعر لأن يكونوا أصدق حكما من أهـل المدن وأولى منهم بالفصــل فى هذه الناحية ٠ ودونك ما يرويـه الناس بصدد هذه المسألة ، ذلك أنه فى احدى السنوات الأولى من القرن الثانى عشر كان احد أهالى اشبيلية يضرب فى الصحراء ووصل الى خيام بدو من اللخميين فاقترب من احدى خيامهم وطلب القرى من شيخهم الذى قرت نفسه اذ يمارس احدى الفضائل التى تقدرها أمته كل التقدير ، فحبا الضيف بكرمه وعطفه ، ومضى على المسافر يومان أو ثلاثة وهو مقيم بين اللخميين ، ثم كانت ليلة عز فيها النوم عليه فخرج من الخباء يستروح نسيم الليل ٠

كانت الليلة رائعة فاتنة ، وهبت الأنسام عليلة فهدأت من جيشان نفسه ، وكان القمر فى قبة السماء الصافية الزرقة ، المرصعة بالنجوم ، وهو وانى الحركة فى كبرياء ويرسل أشعته فيضىء الصحراء الجليلة التى اشرفت نواحيها كأنها المرآة المصقولة ... والصحراء أكمل ما تكون صورة للصمت والهدوء ، فذكر هذا المنظر الطارق الأشبيلى بقصيدة كان قد نظمها مولاه القديم فراح ينشدها وفيها يقول :

ولقد شربت الراح يسطع نورها	والليل قد مد الظلام رواء
حتى تبدى البدر فى جوزائه	ملكا تناهى بهجة وبهاء
لما أراد تنزها فى غربة	جعل المظلة فوقه الجوزاء
وتناهضت زهر النجوم يحفه	لالاؤها فاستكمل اللالاء
وترى الكواكب كالمواكب حوله	رفعت ثرياها عليه لواء
وحبيبة فى الأرض بين مواكب	وكواعب جمعت سنا وسناء
ان نشرت تلك الدروع حنادسا	ملأت لنا هذى الكؤوس ضياء
واذا تغنت هذه فى مزهر	لم تأل تلك على الزمان عناء (٢٧)

ثم راح الأشبيلى ينشد غيرها أطول منها كان المعتمد قد نظمها لصرف ما فى نفس أبيه من الغضب الشديد عليه لهزيمته هو وجيشه فى مالقة بسبب اهماله .

ما كان الأشبيلى يفرغ من انشاده شعر المعتمد حتى رفع ستار الخيمة التى يجلس مأمها ويرز اليه رجل ليس فيه الا ما يوحى بانه شيخ قبيلته وكذا منظره الوقور وقال له فى لهجة فصيحة سليمة العبارة مما عرف به البدو .

« يا حضرى : حياك الله ، لمن هذا الكلام الذى اعذوذب مورده ، واخضل منبته ، وتحلت بقلائده الحلاوة بكره ، وهدر بشقشقة الجزالة شعره ؟ » .

فأجابه : هو لملك من ملوك الأندلس يعرف بابن عباد !!

فقال الشيخ : أظن أن هذا الملك لم يكن له من الملك الا حظ يسير ونصيب حقير ، فمثل هذا الشعر لا يقوله من شغل بشىء دونه !!

فقال الأشبيلى : لقد عظمت رياسته ، واتسعت رقعته .

فسأله الشيخ : وممن الملك أن كنت تعلم ؟ .

فرد عليه قائلا : هو فى الصميم من لخم ، وفى الذؤابة من يعرب .

فسأله الشيخ : أتقول من لخم ... ويحك فلخم قبيلى ؟ » .

واستبدت النشوة بالشيخ أن يجد لقبيلته مجدا جديدا يضيفه الى أمجادها القديمة ونادى بأعلى صوته نداء أيقظ الهاجع من هجعته ، ثم قال لقومه : « هلموا ... هلموا » .

وسرعان ما وثب الجميع على أقدامهم ، وتبادروا اليه ، فلما رآهم شيخهم قال لهم : « يامعشر قومي ، اسمعوا ما سمعته ، وعوا ما وعيته ... فانه لفخر لكم ، وشرف تلاصق بكم » .

ثم التفت الى الأشبيلي وقال له : « ياحضري ... أنشد كلمة ابن عمنا » .

فاستجاب الأشبيلي لرغبة الشيخ وطرب جميع البدو من سماع هذا الشعر طرب شيخهم به ، ثم قص عليهم شيخهم ما سمعه من هذا الغريب عن أصل بني عباد وحلفائهم وأقاربهم منذ أن نجموا من القبيلة ، فكانوا أسرة لخمية تذرع الصحراء بقطعانها ، ثم ضربت خيامها في البقعة الرملية التي تفصل مصر عن بلاد الشام ، ثم حدثهم بعدئذ عن المعتمد الشاعر المفلق والفارس البهمة وملك أشبيلية القوي ، فلما فرغ الرجل من حديثه طغى عليهم السرور وداخلتهم العزة والكبرياء ، وركبوا من فرحتهم متون خيولهم وجعلوا يتلاعبون عليها بقية الليل حتى شف الصباح ، وحينذاك عمد الشيخ الى عشرين من أحسن ابله دفعها هدية للطارق الغريب ، وحذا الجميع حذوه ، كل حسب قدرته ، فما كان رأد الضحى الا وعند الاشبيلي مائة بعير ، وبعد أن بالغ القوم في تعظيمه ومجاملته واكرامه كادوا أن يأبوا عليه أن يغادرهم حتى ينشد أشعار الملك السابق الذي سموه بابن عمهم وخلطوه بأنفسهم (٢٨) .

وبعد ذلك بقرنين ونصف قرن من الزمان وقد استحالت أسبانيا الشكاكة الى بلد متعصب حدث أن خرج أحد الحجاج حاملا عصاه ومسبحته، وعبر مملكة مراكش للقاء نساكها وزيارة الأماكن المقدسة بها .

أما هذا الحاج فهو « ابن الخطيب » كبير وزراء غرناطة الذي ما كاد يصل الى بلدة « أغمات » الصغيرة حتى اتجه الى مقبرتها حيث يرقد المعتمد وزوجته تحت أكمة علاها شجر العناب ، فلما أبصر ابن الخطيب قبريهما وقد بانت عليهما هيئة التغرب ومعاناة الخمول لم يستطع أن يمسك دمعه ، وارتجل هذه الأبيات :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات
رأيت ذلك من أولى المهمات

لم لا ازورك يا أندى الملوك يدا
ويا سراج الليالي المدلهمات
وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه
الى حياتى لجادت فيه أبياتى
أناف قبرك في هضب يميزه
فتحته كم حفيات التحيات
كرمت حيا وميتا ، واشتهرت علا ،
فأنت سلطان أحياء وأموات
ما كان مثلك فى ماض ، ومعتقدى
أن لن يرى الدهر فى حال ولا آتى (٢٩)

★ ★ ★

حواشي الفصل الأول

(١) كانت البيرة حتى ذلك الوقت عاصمة هذه الولاية ، غير أن ما أصابها من جراء الحروب الأهلية دفع أهلها للهجرة منها والتماس سبل الحياة في غرناطة سنة ١٠١٠ م (= ٤٠١/٤٠٢ هـ) .

(٢) راجع ابن حيان في الذخيرة ، ج ١ ورقة ١٥٧ أ ، ب ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ١٩٤ – ١٩٦ ، وعبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٤٢–٤٣ ، وترجمته ص ٥١ – ٥٢ .

(٣) راجع ابن حيان في الذخيرة لابن بسام ، ج ١ ورقة ١٢٩ أ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ١٢٤–١٣٥ ، ١٩٦ .
Abbad., t. II, p. 32, 205.

(٤) Dozy : Abbad., t. I, p. 221.

(٥) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ١٩٥ .
Abbad., t. I, p. 220; Cf. aussi Caussin de Perceval : Essai sur l'histoire des Arabes avant l'istami me, t. II, p. 212, 422.

(٦) كان « عباد » هو الجد الرابع لاسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن قريش بن عباد .

(٧) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ١٩٣ ، ١٩٤ .
Abbad., t. I, pp. 220, 381 et suiv. et t. II, p. 173.

(٨) Cf. Abbad., t. I, p. 221.

(٩) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٦٥ ، وترجمته ص ٧٩ – ٨٠ .
Abbad., t. I, p. 22.

(١٠) Abbad., t. I, p. 22.

(١١) جرت عادة الاسبان والبرتغاليين على ابدال حروف « الحاء » العربي بحرف "f" اللاتيني ، انظر في ذلك : Dozy : Glossaire sur Ibn Idhari, p. 23.

ونحب ان نشير هنا الى انه يوجد على ضفة الراين اليمنى وعلى مقربة من « كوب » حصنان هما حصن ليبنشتين Liebenstein وحصن شتيرن بيرنج Sternberg ويسمان بالاخوين Die Brüder

(١٢) ورد خبر فتح « بازو » على يد موسى بن نصير في المقرى : نفح الطيب ج ١ ، ص ١٧٤ .

(١٣) الظاهر ان « سيسناند » Sisenand الذى يشير اليه راهب « سيلوس » فى حولياته .Chron du moine de Silos, c. 90 والذى أصبح حاكم « قنبرة » بعد أن ترك العمل فى بلاط المعتضد الى بلاط « فرديناند » الأول أقول الظاهر أنه كان أحد نصارى حصنى الأخوين ..

(١٤) .Abbad., t. I, p. 7 ويروى المؤرخ العربى هذه القصة فى معرض حديثه عن المعتضد بن القاضى ، وهذا وهم منه .

(١٥) انظر فى ذلك .Dozy : Abbad., t. II, p. 216 . اما المؤرخ المسلم ابن خلدون فيخطىء اذ يذكر فى هذا المجال المعتضد بدلا من أبيه القاضى .

(١٦) ذهب الزبيدى أولا الى القيروان ، ثم مضى منها الى المرية حيث أصبح قاضى

الجماعة بها ، انظر : Dozy : Abbad., t. I, p. 234, note 49.

(١٧) Dozy : op. cit., p. 223.

(١٨) راجع فى ذلك .Dozy : Abbad., t. I, p. 223-225 ، ويورد ابن خلدون ايضا فى نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ــ ٢١٦ ، بعضا من هذه الحوادث ، لكنه يخطىء فيضع اسم « المعتضد » بدلا من اسم أبيه القاضى .

(١٩) راجع ابن حيان فى الذخيرة ، ج ١ ، ورقة ١٨١ ــ ب ، ١٨٢ .

(٢٠) راجع عبد الواحد المراكشى . المعجب ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، وترجمته ص ٤٥ــ٤٦ ، Dozy : Abbad, t. I, p. 222.

(٢١) Abbad., t. II, pp. 127, 128.

(٢٢) Ibid., t. II, p. 34.

(٢٣) Ibid., t. I, p. 222 ; t. II, p. 34.

(٢٤) Abbad., t. II, p. 34.

(٢٥) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ١٩٧ وما بعدها ، وكذلك : Abbad t. I, p. 222.

(٢٦) راجع ابن حيان فى الذخيرة لابن بسام ، ج ١ ص ١٨١ ، ب .

(٢٧) Abbad., t. II, p. 34.

(٢٨) .Ibid., t. I, p. 222; t. II, p. 34 وهناك فريق من المؤرخين يزعمون ان يحيى مات سنة ٤٢٧ هـ ، على حين يذهب غيرهم للقول بأنه مات عام ٤٢٩ هـ ، ويتضح لنا من رواية ابن حيان أن القول الأول أصح القولين ، ذلك ان هذا المؤرخ ــ وقد نقل ذلك عنه ابن عذارى فى البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ١٨٨ــ١٨٩ ، -Abbad., t. II, pp. 89-91

يذكر العبارات الخاصة التى قالها جندى من جنود البربر هو ابو الفتوح (او ابو الفتح) البرزالى الذى كان بين جماعة عادت الى اشبيلية فى عيد اضحى سنة ٤٢٦ هـ ، وقد خرج فى « المحرم من سنة سبع وعشرين وأربعمائة » واشترك فى الحرب التى شنها

جند اشبيلية ضد يحيى قرب أسوار « قرمونة » ، وقد انتهت هذه الواقعة بقتل يحيى ، وعلى هذا الاساس لا يوجد شك فى السنة بل ولا فى الشهر الذى مات فيه هذا الأمير ، ولكنا لسنا واثقين من اليوم الذى مات فيه · غير أن عبد الواحد المراكشى يقول « كان ذلك يوم الاحد لسبع مررن من محرم أعنى فى اليوم الثامن منه سنة ٤٢٧ هـ ، وهذا اليوم الثامن هو يوم الثلاثاء وليس يوم الأحد · أضف الى هذا أن رواية ابن حيان تذهب للقول بأن هشاما الثانى بويع خليفة من جديد بقرطبة » فى شهر المحرم سنه ٤٢٩ » · اما ابن الأثير (كما هو وارد فى (Abbad., t. II, p. 34, L. 0.) فيقول « كان ذلك فى شهر المحرم ٤٢٧ هـ » وذلك لان جهور رضى بهذا مخافة أن يهاجمه يحيى (انظر Abbad t. I, p. 222. ومن ثم كان من الضرورى أن يكون قد قام بذلك قبل موت هذا الأمير · وقد أخطأ ابن خلدون خطأ كبيرا في كلامه عن الدور الذى لعبه محمد بن عبد الله اثناء هذه الحقبة » ·

(٢٩) راجع ابن حيان فى الذخيرة لابن بسام ، ج ١ ، ورقة ١٨١ ، ١٨٢ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ١٨٨ـ١٨٩ ، وعبد الواحد المراكشى . المعجب ، ص ٣٨ ، ٤٣ ، وترجمته ص ٤٦ ، ٥٣ ، وانظر ايضا الحاشية السابقة وكذلك بـ Dozy : Abbad., t. II, p. 33.

(٣٠) راجع عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ٤٣ ، ٤٥ ، وترجمته ص ٥٣ ، ٥٥·

(٣١) راجع ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٥٩ ·

(٣٢) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ١٥٤ ، وانظر الكتاب الذى بعثه « زهير » الى أهل قرطبة ، وهو من تاليف وزيره ابن عباس ·

(٣٣) Abbad., t. II, p. 34.

* * *

حواشي الفصل الثاني

(١) Munk (Journ. Asiat., IV eme serie), t. XVI, pp. 203; 205 ; H. Graetz : Les Juifs d'Espangne, trad., G. Sterne, Paris 1872, p. 129 et : uiv.

(٢) Cronica de Moro Razis, p. 38 ; Cf. Ency. of Islam, t. II, 167.

(٣) راجع ابن حيان في الذخيرة لابن بسام ، ج ١ ورقة ١٢٢ أ .

(٤) Dozy : Introd. à la Chronique d'Ibn Adhari, p. 97.

(٥) Ibid,. pp. 96, 97.

(٦) Cf. Journ. A iat, loc. cit., p. 209 dans la note.

وقد زاد الشاعر في مدحه زيادة أخرجته عن جادة الاسلام ، فشبه كفيه ـ معاذ الله ـ بالركن ، ثم لج فقال بيتا يباعد بينه وبين الحنيفية ، وما نحسب ما قاله هذا الشاعر في مدح صمويل الا مدسوسا عليه .

(٧) Journ. Asiat., loc. cit., pp. 222-224.

(٨) Ibid., p. 209.

(٩) Dozy : Introd. a la Chronique d'Ibn Adhari, pp. 96, 97.

(١٠) ذكر موسى بن عزرا في Journ. Asiat., loc. cit., p. 212, note I. أن اسمه هو ابن أبي موسى ، وفي الواقع أن هذا هو الاسم الذي يخلعه الحميدي على ابن بقنة .

(١١) Abbad., t. II, p. 34.

(١٢) كان من بين الأسرى ابن حزم وابن الباجي صاحب ديوان الرسائل وغيرهما ، راجع ابن بسام : الذخيرة ، طبعة جامعة القاهرة ، القسم الأول ، المجلد الثاني ، ص ١٧٠ ، وحاشية رقم ١٤ ـ (المترجم) .

(١٣) فيما يتعلق بهذه الأحداث راجع ما ورد عن ابن حيان في الذخيرة لابن بسام ، ج ١ ص ١٧١ أ ـ ١٧٥ أ (وفي طبعة جامعة القاهرة ، ص ١٦٦ـ١٨٠) ، وابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ٢٣٧ـ٢٣٩ مادة : « زهير » ، ص ١٢٩ـ١٣٢ ، مادة : « أبو جعفر أحمد بن عباس الانصاري » . وانظر ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ١٦٨ وما بعدها ، والمقري : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ ، Abbad., t. II, p. 34.

(١٤) انظر ما نقله دوزي عن ابن عذاري في الجريدة الأسيوية ، ص ٢١٢ ، وفي هذه العبارة يجب أن نقرأ كلمة « انشد » بضم الهمزة وكسر الشين ، أي مبنية للمجهول كما فعل دوزي .

حواشي الفصل الثالث

(١) Dozy Recherches, 3eme ed., t. I, p. 241.

(٢) Abbad., t. I, p. 51.

(٣) فيما يتعلق بابى الفتوح راجع مقالة ابن الخطيب فى الاحاطة ، ج ١ ص ٢٨٥ـ ٢٨٧ ، وفيها ما ذكره السيوطى فى بغية الوعاة والحميدى . راجع ايضا ما كتبه الضبى فى بغية الملتمس (طبعة كوديرا) عن مجاهد ، ص ٤٥٧ـ٤٥٩ ، رقم ١٣٧٩ .

(٤) راجع الاحاطة ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

(٥) راجع عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ٤٤ ، ٦٥ ، وترجمته ص ٥٤ ، ٦٠ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٠٢ ، وابن الخطيب : الاحاطة ، نفس الجزء والصفحة ، و Dozy : Abbad., t. II, pp. 33, 34, 207, 217.

(٦) راجع الاحاطة لابن الخطيب ، ج ١ ، ص ٢٨٧ـ٢٨٨ .

حواشي الفصل الرابع

(١) ورد هذا التاريخ في الذخيرة لابن بسام ، ج ١ ص ٢٢٤ ·

(٢) ويسميه عبد الواحد المراكشي في المعجب ، ص ٤٧ ، وترجمته ص ٥٧ يموسى بن عفان السبتي ·

(٣) لم يعد لهذه الناحية اليوم وجود فقد اندثرت ، واندثرت معالمها ·

(٤) هكذا أورده دوزي في الأصل الفرنسي ، وقد ورد بهذا الرسم ايضا في ابن عذارى · البيان المغرب ، ج ٢ ، لكن عبد الواحد المراكشي يسميه « سكات » في المعجب ، طبعة مصر ، ص ٤٥ — (المترجم) ·

(٥) يزعم ابن خلدون انه ذهب بعد ذلك الى « كمارش » وأحسب أن الحميدي أولى بالتصديق منه ·

(٦) فيما يتعلق بهذا الوزير راجع ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ص ٢٦٧ مادة « بلجين بن باديس » ·

(٧) فيما يتعلق بالاحداث الواردة في هذا الفصل راجع على الأخص ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢١٦ـ٢١٧ ، ٢٨٩ـ٢٩٢ ، وانظر ايضا عبد الوهاب المراكشي : المعجب ، ص ٤٥ـ٤٩ وترجمته ، ص ٥٤ـ٦٠ ، وابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ١٥٤ـ١٥٥ ، والمقرى : نفح الطيب ، ج ١ ص ١٣٢ ، ٢٨٢ـ٢٨٤ ·

حواشي الفصل الخامس

(١) Dozy Abbad., t. I, p. 245, t. I, p. 48.

(٢) Abbad., t. I, p. 245. وابن عذارى . البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

(٣) Abbad., t. I, p. 243.

(٤) Abbad, op. cit., loc. cit. ، وانظر قصيدة المعتضد في نفس المرجع ، ص ٥٢ .

(٥) Abbad., t. I, p. 244.

(٦) Abbad., t. I, p. 243.

(٧) هذه القصة واردة في عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٦٨ـ٧٠ ، وترجمته ص ٨٣ـ٨٥ .

(٨) راجع عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٦٧ ـ ٦٨ ، وترجمته ص ٨٢ـ٨٣ .

(٩) Abbad., t. I, p. 243-244. ، وابن عبد الواحد المراكشي . المعجب . ص ٦٧ ، وترجمته ص ٨٢ ، وابن بسام : الذخيرة ، ج ١ ، ص ١٠٩ ب ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ج١ ، ص ١٠٩ ب ، وابن عذارى · البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٠٦ .

(١٠) Abbad., t. II, p. 52.

حواشي الفصل السادس

(١) Abbad., t. I, p. 242.

(٢) Ibid., t. I, p. 251 ; t. II, p. 60.

(٣) Ibid., t. II, p. 209, 216.

(٤) ابن حيان في ابن بسام : الذخيرة ، مجلد ١ ، ورقة ١٠٩ أ ، هذا وقد ورد نفس الكلام في ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٣٥ ، أما ابن خلدون (كما ورد في Abbad., t. II, p. 217. فيسمي هذا الامير بعبد العزيز ، ويلاحظ انه في القطعة الواردة في ذيل الجزء الثالث من البيان المغرب ، ص ٣١٢ يقول كاتبها ان خليفة محمد القرموني هو ولده « عزيز » ، وقد تم لاخيه اسحق الامر ٠

(٥) Abbad., t. II, p. 211.

(٦) المقصود بذلك المعتضد صاحب اشبيلية ٠

(٧) Abbad., t. I, p. 247-8.

(٨) راجع ابن حيان في الذخيرة لابن بسام ، مجلد ١ ورقة ١٠٨ ب ـ ١٠٩ أ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٣٥ ٠ وراجع ايضا قصيدة ابن زيدون الواردة في الذخيرة ، ج ١ ص ٩٩ ب ٠

(٩) Abbad., t. I, pp. 248-249.

(١٠) Ibid., t. I, p. 252.

(١١) Ibid, t. I, pp. 252-253. ، وراجع أيضا ابن الآبار في :
Dozy : Recherches, 1ere ed., t. I, p. 286.

(١٢) راجع ابن الابار ٠ الحلة السيراء ، ص ٥٠ـ٥١ ٠

(١٣) راجع ابن بسام : الذخيرة ، ج ٢ ، مادة « ابن عمار » ٠

(١٤) حفظ ابن خاقان لنا في كتابه « قلائد العقيان » (طبعة باريس ، ١٨٦٤ ، ص ٢٠٧) صورة كتاب منسوب لابي محمد بن عبد البر عن اخذ « شلب » ويزعم ابن خاقان أن ابن عبد البر قد كتب هذه الرسالة الى المعتضد بامر الموفق ابي الجيش ، ويقصد به « مجاهدا » امير « دانية » ٠ غير ان مجاهدا هذا مات سنة ٤٣٦ هـ ، على حين أن الاستيلاء على « شلب » تم سنة ٤٤٣ ، او في السنة التالية لها ، ومن ثم فيجب اخذ هذا الخطأ في الاعتبار فيما يورده ابن خاقان ، وليس هناك شك في تاريخ الاستيلاء على « شلب » وانه قد تم بعد فتح « لبلة » و « ولبة » سنة ٤٤٣ هـ ، انظر في ذلك :
Abbad., t. I, p. 252, et cf. II, p. 210). =

= وقبل فتح شنت مرية سنة ٤٤٤ هـ ، انظر فى ذلك السطر الأخير من صفحة ٢١٠ من الجزء الثانى من المرجع السابق ، وكذلك ص ١٢٣ ، ومن ثم فان المعتمد الذى لم يولد الا سنة ٤٢١ هـ لم يكن قادرا على قيادة جيش أبيه قبل سنة ٤٣٦ هـ ، وهى السنة التى مات فيها مجاهد ، وعلى هذا الأساس يجب أن نقول أن ابن خاقان لابد انه كان يقصد عليا خليفة مجاهدا وابنه أو أميرا آخر سواه ٠

(١٥) راجع .Abbad., t. II, pp. 123, 210, 211 والملحق الوارد فى البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ، اما التاريخ الذى يذكره ابن خلدون فهو تاريخ مغلوط ، ويرجح عليه ما ذكره ابن الأبار ٠

(١٦) هؤلاء الأمراء الثلاثة الذين يشير اليهم المؤلف دوزى فى المتن هم ابو نورة بن ابى قرة ، ومحمد بن نوح الدمرى ، وعبدون بن خزرون ٠

(١٧) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٧١ ، وقد مات بمثل هذه الطريقة كثير من الخصيان وحرس احد الأمراء الأغالبة ، راجع أيضا نفس المرجع ، ج ١ ص ١٢٧ وترجمته ص ١٧٨ ٠

(١٨) Abbad., t. II, p. 14.

(١٩) وردت خلاصة هذه الحوادث فى فقرة لابن بسام ذكرها المؤلف « دوزى » فى : Abbad., t. I, pp. 250-251. مع ورود بعض اخطاء تافهة ، كذلك يذكر النويرى (انظر .Abbad., t. II, pp. 129-130 بضع حقائق هامة تتعلق بهذا الموضوع ، غير انه اخطأ اذ قال « قرمونة » بدلا من « رندة » ٠ وان ما يرويه ابن خلدون (شرحه ، ج ٢ ص ٢١٠ ، ٢١٤ـ٢١٥) من الروايات ليظهر فيه الاضطراب وعدم الثبات لاسيما فيما يتعلق بالأسماء والتواريخ ٠ انظر أيضا ابن خلدون فى مقدمة كتاب البيان المغرب لابن عذارى ، ص ٨٦ ، وابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ص ٢٧٠ ٠

(٢٠) Abbad., t. I, p. 248. ويلاحظ ان البيتين الأولين واردان فى المقرى ، على حين اقتصر ابن عذارى فى بيانه المغرب على ذكر البيت الأول وحده ٠

حواشي الفصل السابع

(١) انظر ابن حيان في مقدمة تاريخ ابن عذارى ، ص ٨٦ ـ ٨٨ ، وابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ص ٢٧٠ـ٢٧١ ·

(٢) Abbad., t. II, p. 210.

(٣) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٨٠ من الأصل (= ص ٧١ من الطبعة المصرية) وابن خاقان : قلائد العقيان (طبعة باريس) ١٨٦٤ ، ص ٩٨ـ١٠٠ ، مادة « ابن عمار » ·

(٤) Abbad., t. II, p. 210.

(٥) Abbad., t. I, p. 249, t. II, p. 207. وابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٣١ ، ٢٤٣ ، وابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ١٥٥ ·

(٦) Abbad., t. I, p. 250; t. II, p. 6. وعبد الواحد المراكشي : ص ٦٦ ، وقد أخطأ هذا المؤلف في ذكر التواريخ ·

(٧) هذا التاريخ مطابق لما جاء في مخطوطة « جيانجوس » في عبارة لابن حيان ، انظر نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٥٦ ·

(٨) يمكن للقارىء مراجعة ما يتعلق بمؤامرة اسماعيل بن عباد في دوزي Dozy : Abbad., t. I, pp. 253-259. وابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ وما يليها · ونزيد على ما أورده المؤلف بأن المعتضد حاول أن يبرر قتله لولده ، وذلك في كتاب طويل ·

(٩) Abbad, t. I. pp. 51-54, 301-302; t. II, pp. 60, 63-65.
وراجع أيضا ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٨٣ـ٢٨٥ ·

(١٠) Journ. Asiat., IV eme serie, t. XVI, pp. 210-217, 220.
ودوزي في مقدمته لابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٩٩ـ١٠٢ وابن الخطيب : الاحاطة ، ص ٢٧٢ـ٢٧٣ ، وانظر أيضا :
Dozy : Recherches, 3eme ed., t. I, p. 282 eq.
والملحق به رقم ٢٦ . ص ٥١ـ٥٨ وما قاله ابن الخطيب عن الشاعر اسحق الالبيري في الاحاطة · كذلك توجد مادة جديدة كل الجد في الذخيرة لابن بسام ، ج ١ ص ٢٠٠ ب ـ ٢٠١ ب ، وراجع أيضا ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ـ٢٦٦ ·

حواشي الفصل الثامن

(١) Chronique du moine de Silos (Espagna Sagrada) t. XVII. c. 91-93, cf. Cronic. Compestellanum (Ibid., t. XXIII), p. 327.

(٢) يسميه اسقف سيلوس "Grandaevus"

(٣) Dozy : Recherches, 3 eme ed., t. I, p. 104 et note I.

(٤) أورد Abbad., t. II, p. 152-153. قصيدة للمعتضد تبين مدى ايمانه ، ويصور فيها الناس وقت ذهابهم لصلاة الصبح يقول فيها :

اشرب على نور الصباح	وانظر الى نور الاقاحى
واعلم بانك جاهل	ما لم تصل بالاصطباح

(٥) خبر هذه الوفادة وارد فى حوليات أسقف « سيلوس » فى :
Esp. Sagr., t. XVII, c. 95-100.

(٦) Chron. du moine du Silos, c. 87, 90, Cron. Complutence (Esp. Sagr., t. XXIII,) p. 317-318.

أما فيما يتعلق بتاريخ الاستيلاء على « قنيرة » فراجع :
Ribeiro : Dissertacoes Chronologicas e criticas.

(٧) فيما يتعلق بهذه الوقعة راجع ابن بسام : الذخيرة (الصفحة الأخيرة من مخطوطة جوتة) ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٥٢ـ٢٥٣ ، والمقرى : نفح الطيب ، ج ١ ص ١١١ ، ج ٢ ص ٧٤٨ ـ ٧٤٩ .

(٨) انظر ما جاء به دوزى فى : Op. cit., t. II, pp. 335-353.
حيث يحاول البرهنة على أن تيادة هذه الحملة كانت موكولة الى الفارس النرمندى « وليم دى مونتريل » الذى ذهب الى ايطاليا حوالى منتصف القرن الحادى عشر وانخرط فى خدمة البابوات ، ثم اصبح قائدا عاما للقوات الرومانية ، وتبعا لما يذكره « ايمبه » اسقف مونت كازينو فى كتابه
L'ystoire de li normont, L. I, cap. 5-8, ed. Champollion [illegible]
فان القائد كان « روبرت كرسبين » الذى جمع مسيو هرش بعض التفاصيل عنه فى كتابه : Furschungen zur Deutschicte Geschichte, t. VIII, pp. 202-203.
لكن لو كان هذا الاستقصاء صحيحا فاننا لا نستطيع تفسير لقب « قائد فرسان رومة » الذى يخلعه ابن حيان ــ وقوله حجة ــ على القائد المشار اليه والذى ينطبق تمام الانطباق على « وليم دى مونتربل » وليس على « روبرت كرسبين » ، و يمكن للقارىء بالاضافة الى المراجع العربية المذكورة فى : Dozy Recherches عن مسالة الاستيلاء على « بوبشترو » أن يراجع أيضا ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ وما بعدها ، وكذلك مقال « المجوس » فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٩) راجع النصوص الواردة فى . Dozy : Recherches, pp. XLVI-L.

(١٠) Chron. du moine de Silos, c. 105, 106.

(١١) Abbad., t. II, p. 216. 219, 220.

(١٢) Abbad., t. I, pp. 251-252. ، وعبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ٧٠ ، وترجمته ص ٨٦ ، راجع أيضا ، صفحة ٦٢ من نفس المصدر فى الطبعة المصرية ٠

(١٣) Abbad., t. II, pp. 61-62. ، وراجع ايضا ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ـ٢٨٤ ٠

حواشي الفصل التاسع

(١) راجع عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٧٩ـ٨١ ، وترجمته ص ٩٦ـ٩٨ ، وكذلك ابن بسام في الذخيرة ، .Abbad., t. II, p. 88 .

(٢) تكاد القدرة على الشعر تكون طبيعية ركبت في جميع أهل « شلب » حتى فلاحيهم . راجع في ذلك القزويني : عجائب الآثار (طبعة فستنفلد) ، ج ٢ ، ص ٣٦٤ .

(٣) راجع قصيدة المعتمد عن شلب وهي التي سنورد بعضا منها فيما بعد .

(٤) .Abbad., t. I, p. 384

(٥) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٨١ـ٨٢ (وفي الطبعة المصرية ، ص ٧٣) . وترجمته ص ٩٩ ـ ١٠١ حيث يروى القصة على لسان ابن عمار نفسه ، هذا وقد ذكر ابن بسام في الذخيرة أنه سمعها من كثير من وزراء الشبيلية الذين أدركوا المعتمد ، انظر أيضا : .Abbad., t. II, p. 120

(٦) Abbad., t. II, pp. 150-151 ; p. 225-226.

ولم يلقب أبو القاسم بالمعتمد الا بعد زواجه من الرميكية . وهذا اللقب منظور فيه الى كلمة « اعتماد » ولم تكن له كنية يعرف بها من قبل ، انظر في هذا : Abbad., t. II, p. 69. وقارن هذا بما جاء في نفس المرجع ، ص ٦١ ، كذلك راجع فهرست الجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى .

(٧) Abbad., t. II, p. 234.

(٨) El Conde Lucanor.

(٩) Abbad., t. II, p. 152-153.

(١٠) Abbad., t. II, p. 151.

(١١) Abbad., t. II, p. 68.

(١٢) Abbad., t. II, p. 88.

(١٣) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٧٧ ، ٨١ ، وترجمته ص ٩٥ ، ٩٩ ، وهناك رواية أخرى واردة في .Abbad., t. II, p. 105 تزعم أن ابن عمار قد عاد الى البلاط في حياة المعتضد ، ولكنها رواية يظهر فيها الاختلاق والخطأ .

(١٤) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٨٢ ، وترجمته ص ١٠١ .

(١٥) Abbad., t. I, p. 39, 84.

(١٦) المراكشي : المعجب ، ص ٨٠ ، وترجمته ص ٩٧ ـ ٩٩ .

(١٧) المراكشي : نفس المرجع ص ٨٢ ـ ٨٣ ، وترجمته ص ١٠١ .

حواشى الفصل العاشر

(١) Abbad., t. II, p. 148.

(٢) Ibid., op. cit., loc. cit.

(٣) Ibid., t. II, p. 146.

(٤) Abbad., t. II, p. 224-225.

(٥) عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ٧٣ وترجمته ص ٨٩ ٠

(٦) Abbad., t. I, p. 392.

(٧) عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ٧٣ ، وترجمته ص ٨٩ ٠

(٨) Abbad., t. I, p. 388. وفى هذا المعنى يقول :

سأســـال ربى أن يـديم بى الشـــكوى
فقد قربت من مـسـجعى الرشـا الاحوى

اذا علـة كانت لقــربك علــة
تمنيت ان تـبقى بجســمى وأن تقـوى

(٩) راجع ابن حيان فى الذخيرة لابن بسام ، ج ١ ص ١٥٨ ب ــ ١٥٩ أ ، وابن عذارى . البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٥٥ــ٢٥٦ ٠

(١٠) راجع ابن بسام : الذخيرة ، مجلد ١ ، ورقة ١٥٩ أ ــ ١٦٠ أ ، وابن حيان فى نفس المرجع ، ورقة ١٦٠ أ ــ ب ، وقصيدة ابن القصيرى الواردة فى ابن الخطيب : الاحاطة (مخطوطة باريس) ورقة ١٥١ أ ، ب ، وانظر ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ــ٢٦١ ، وابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ١٥٩ ٠ ويخطىء ابن خلدون اذ يقول أن استيلاء المعتمد على قرطبة كان سنة ٤٦١ هـ ، لأن ابن بسام يقول أن هذا الاستيلاء تم قرب سنة ٤٦٢ هـ ٠ كذلك يخطىء فيما يؤكده من أن أبا الوليد مات قبل هذه السنة ، وقد وقع فى نفس الخطأ عبد الواحد المراكشى ٠ المعجب ، ص ٤٣ وترجمته ص ٥٢ ٠

(١١) Abbad., t. I, p. 46.

(١٢) Abbad., t. I, p. 322; Lucas de Tuy, Chronicon Mundi, p. 100

(١٣) Abbad., t. I, pp. 46-48, 322-324 ; t. II, p. 35, 122.

(١٤) Ibid., t. II, pp. 16, 122, 162. وعبد الواحد المراكشى : المعجب ، =

ص ٩٠ ، وترجمة ص ١١٠ ، ويذكر ابن خلدون فى العبر فى الفصل الذى عقده لبنى جهور (ج ٤ ، ص ١٥٩) أن المعتمد استرد قرطبة عام ٤٦٩ هـ ، لكننى نرى ان من الخير ان نتبع ما قاله عبد الواحد المراكشى الذى ينص على اليوم والشهر .

(١٥) Chronicon Compostellanum (Esp. Sagr.. t. XXIII), p. 327.

(١٦) Abbad.. t. II, p. 89.

(١٧) راجع عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ٨٣ ـ ٨٥ ، وترجمته ص ١٠١ـ١٠٢ ، ويذكر Gassales : Discursos Historicos de Murcia, p. 118.

أن ابا عبد الله لعب الشطرنج ذات يوم مع « بدور فجاردو » ـ حاكم لارقة ، وقد راهن الاسبانى على لارقة والمغربى على المرية ، فكسب الاخير الرهان ، الا أن « بدور » نكث بعهده ولم يوف به .

حواشي الفصل الحادى عشر

(١) راجع ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ١٨٦ــ١٨٨ ٠

(٢) Abbad., t. II, p. 33. ، وابن الابار : الحلة السيراء ، ص ١٨٦ ،
اما التاريخ الوارد فى Abbad., t. II, p. 87. وهو سنة ٤٧٤ هـ فخطأ ٠

(٣) Abbad., t. II, pp. 86, 91- 94.

(٤) Ibid., t. II, p. 36. ولعل ما كان الناس يسمونه اذ ذاك بحصن بلج هو المعروف باسم "Valez-Rubio" ٠

(٥) Abbad., t. II, p. 86-87.

(٦) يشير دوزى فى المتن اعلاه الى قصيدة لابن عمار يقول فيها :

ولا تلتفت قول الوشـــاة ورأيهم ... فكل اناء بالذى فيه يرشـــح

وقوله ايضا فى القصيدة ذاتها :

وماذا عسى « الواشون » ان يتزيدوا ... سوى أن ذنبى واضح متصحح

(المترجم)

(٧) هو ابن الشاعر الفحل ابى الوليد بن زيدون ــ (المترجم) ٠

(٨) ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ١٨٩ ٠

(٩) يقوم حصن « القوط » هذا على مسيرة فرسخ من « مرسية » ، ولا تزال أطلال هذا الحصن باقية الى يومنا هذا ٠

(١٠) Abbad., t. II, p. 87.

(١١) جاء ترتيب هذه الأبيات فى الاصل الفرنسى على غير هذا النسق ، وانما الترتيب فى المتن : هذا هو الوارد فى المرجع العربى وكما نظمه ابن عمار ــ (المترجم) ٠

(١٢) يقصد ابن عمار بذلك نفسه ــ (المترجم) ٠

(١٣) المقصود بذلك المعتمد ــ (المترجم) ٠

(١٤) المقصود بذلك ابن رشيق ــ (المترجم) ٠

(١٥) وذلك فى اكتوبر سنة ١٠٨١ م ٠

(١٦) Abbad., t. II, p. 103-119. ، وابن بسام : الذخيرة ، مادة « ابن عمار » وعبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ٨٥ــ٩٠ ، وترجمته ص ١٠٣ــ١١٠ ٠

حواشى الفصل الثانى عشر

(١) Abbad., t. II, p. 20.

(٢) راجع ما ورد عند Abbad., t. II, p. 17. ، وهناك حوليات عربيه بلنسية مترجمة فى مجموعة Chronica general fol. 39, col. 384.، وانظر ابن ابى ذرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٩ خ وكذلك . Rodrigue de Tolede, t. VI, p. 23.

(٣) يسميه النويرى بشليب دون ذكر كلمة « ابن » – (المترجم) ٠

(٤) Abbad., t. II, pp. 231, 167, 174.

وهذه القصة قائمة على رواية ابن اللبانة ، وهى رواية لا يمكن الشك فى صحتها ، وكان ابن اللبانة احد شعراء قصر المعتمد ٠ كذلك يذكر هذا المؤلف انها حدثت سنة ١٠٨٢م على حين يخطىء غيره من المؤرخين فيذكرون أنها جرت عقب استيلاء الفونس على طليطلة ٠ اما عبد المنعم الحميرى : صاحب الروض المعطار فيروى قصة مختلفة عن هذه القصة كل الاختلاف ، راجع ذلك فى . Abbad., t. II, pp. 238-239.

(٥) يذهب بلاج الى أن هذه المدينة كانت من المدن التى فتحها الفونس ، انظر :
Pelage Avildo (Esp. Sagr.), t. XIV, c. 11.

(٦) Abbad., t. II, p. 175, 231, 286.

(٧) Ibid., t. II, pp. 8, 193 (note 27). ، وابن أبى زرع ٠ روض القرطاس ، ص ٩٢ ، أما التاريخ فهو سنة ١٠٨٢ م كما هو وارد فى المرجع الأخير ٠ اما مؤلف الحلل الموشية كما ورد فى Abbad., t. II, p. 188. فقد وهم اذ اعتبر الحادث سنة ١٠٨٤ ٠

(٨) لم يترجم دوزى فى الأصل الفرنسى نص المعاهدة كما أوردناه كاملا فى المتن أعلاه لتتضح الصورة أمام القارىء – (المترجم) ٠

(٩) Abbad., t. II, p. 18.

(١٠) Abbad., t. II, p. 19. وابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢١١ ٠

(١١) Dozy : Recherches, 3eme ed., t. II, p. 115-122. ، ويلاحظ أن هذه البيانات الأخيرة واردة فى Cronica general, fol. 315, col. 2, fol; 336, col. 3. وفى ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء (الأصل والترجمة) ٠

(١٢) Abbad., t. II, p. 21. ، وابن أبى ذرع : روض القرطاس ، ص ٩٢ ، وابن خلدون (العبر) الترجمة الفرنسية ، ج ٢ ، ص ٧٧ ٠

(١٣) Annales Toledanus (Esp. Sagr.) t. XXIII, (sous l'an 1096).

(١٤) ابن الخطيب : الاحاطة (مخطوطة الاسكوريال) ، مادة « مقاتل » ٠

(١٥) Abbad., t. II, p. 20.

(١٦) راجع المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٦٧٢ ، وهذا البيت هو مطلع مقطوعة مؤلفة من ثلاثة ابيات ، نظمها الشاعر عبد الله بن فرج اليحصبى ، المعروف بابن العسال ٠

(١٧) Annales. t. II, p. 37.

(١٨) Abbad., t. II, p. 8, 139 etc.

(١٩) مات باديس سنة ١٠٧٣ م فتقاسم املاكه حفيداه عبد الله وتميم ، فكانت غرناطة من نصيب عبد الله ، وكانت مالقة من نصيب تميم ٠

(٢٠) يبدو أن المؤرخين الذين يذهبون للقول بأن المعتمد نفسه قد رحل الى يوسف انما يخلطون بين حملة الافريقى الأولى وحملته الثانية ٠

(٢١) Abbad., t. II, p. 27.

(٢٢) انظر ابن الابار فى الطبعة الأولى من كتب دوزى :
Dozy : Recherches, t. I, p. 173, 174 : Abbad., t. I. pp. 169, 176; t II, 1 p. 191-193, 231.

(٢٣) راجع ابن الابار فى المرجع السابق ، وانظر : Abbad., t. II, p. 193.
وعبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٩٣ ، وترجمته ص ١١٢ ٠

(٢٤) رد الخليفة هرون الرشيد ردا قريبا من هذا على رسالة بعثها الى الامبراطور نقفور فوكاس ، غير أن المؤلفين الذين يذهبون للزعم بان ابن تاشفين قد اقتبس بيتا من المتنبى انما يذهبون هذا المذهب البعيد بسبب ما أورده احد المؤرخين الذين كانوا يميلون الى ابن تاشفين ، مع انه كان أضعف من أن يستطيع اقتباس شىء من شعر المتنبى ٠

(٢٥) Abbad., t. II, p. 22. وأبو الحجاج فى ابن خلكان : وفيات الأعيان (طبعة فستنفلد) ، ص ١٦ ٠ وهناك جماعة من المؤرخين يذهبون للقول بأن الفونس اقترح أن يكون القتال يوم الاثنين لأن السبت عطلة عيد اليهود (وذلك بناء على ما نسب اليه من انه قال : الجمعة لكم والسبت عطلة لليهود ، وهم وزراؤنا وكتابنا ، واكثر خدم العسكر منهم فلا غنا بنا عنهم ، والأحد لنا فاذا كان يوم الاثنين كان ما تريده من الزحف) ــ (المترجم) ٠

(٢٦) Abbad., t. II, p. 23, 28.

(٢٧) عبد الواحد المراكشى ٠ المعجب ، ص ٩٣ ، وترجمته ص ١١٣ ٠

(٢٨) اذا استثنينا ما ورد فى مجموعة Cronicon Lusitanum (Esp. Sagr. t. XIV, pp. 416-419). فاننا نرى أن جميع الحوليات اللاتينية قد خلت خلوا تاما من الاشارة الى وقعة زلاقة » ، على أن بعض المراجع العربية أطالت الكلام عنها وانظر فى ذلك = كتاب دوزى

Abbad., t. II, p. 8, 21-23, 36-39 ; 134-136; 196-201.

وعبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٩٣ـ٩٤ ، وترجمته ص ١١٣ـ١١٥ ، وابن أبي زرع . روض القرطاس . ص ٩٤ـ٩٨ ، وابو الحجاج البياسي في ابن خلكان وفيات الأعيان ، كراسة ١٢ ، ص ١٦ ـ ١٧ · على ان القليل من بياناتها يستحق الثقة التامة ، وقد أخطأ بعضها في ذكر التاريخ ، اذ ان التاريخ الحقيقي هو الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ كما هو وارد في الحلل الموشية (طبعة تونس) ص ٤٠ـ٤١ ، وكذلك . Abbad., t. II, p. 197. ، وكذلك في روض القرطاس ، ص ٩٨ حيث يشير الى ان هذا اليوم يوافق يوم ٢٣ اكتوبر سنة ١٠٨٦ وهو التاريخ الصحيح · راجع في ذلك كتاب ذلك كتاب Annales Compl. p. 314-315. غير أن هناك جماعة من المؤرخين لم يقتصر خطؤهم على ذكر الشهر فحسب (اذ يذكرون رمضان بدلا من رجب) بل يزيدون ايخطئون في تحديد السنة · من ذلك مثلا ما يذكره عبد الواحد المراكشي في المعجب ، ص ٩٣ـ٩٤ (وترجمته ص ١١٢ـ١١٥) من أن المعركة سنة ٤٨٠ هـ ، وما يذكره ابن الكردبوس من وقوعها سنة ٤٨١ هـ (راجع في هذا Abbad., t. II. p. 23). وهذه ظاهرة بالغة الغرابة حيال وقعة عظيمة الشهرة حتى لقد كان الناس يؤرخون بها فيقولون « سنة زلاقة » ، بدلا من قولهم « سنة ٤٧٩ هـ » · انظر ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ص ١٢٥ . غير أن الثابت هو انه ليس هناك من تلك الحوليات ما وضع بقلم أحد من عاصروا الوقعة ، اذ ترجع هذه الحوليات الى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر ، واقدمها لا يتجاوز الثاني عشر ، ومن ثم فلا يمكن أن تكون الثقة بها قوية · أضف الى هذا انه في هذا العصر الذي كتب المؤرخون خلاله ما كتبوا أخذ الادباء وأهل البيان انفسهم بوضع رسائل وكتب ينسبونها الى اشخاص تاريخيين ، هذا أمر ثابت المقروح ، كما توجد الادلة القاطعة على ثبوته ، من ذلك مثلا ان صاحب الحلل الموشية يورد الكتاب الذي بعثه المعتمد الى ولده الرشيد في اليوم التالي لتلك المعركة ، وهو كتاب لا يتجاوز سطرين وارد في Abbad., t. II, p. 199. مختلف كل الاختلاف عما أورده صاحب الروض المعطار الوارد في المرجع السابق . Abbad., t. II, p. 240. وكذلك توجد صورة ثالثة لهذا الكتاب ذكرها ابن الخطيب وهي واردة في نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٧ ، وهو لا يقل عن خمسة عشر سطرا ، ومن ثم فلابد أن يكون ثنتان ـ ان لم يكن الثلاثة ـ من هذه الصور قد كتبت في عصر متأخر ، وان الحكمة تقتضينا أن نكون حذرين في تناول الرسائل المسماة بالديوانية والواردة في تلك الحوليات ، كما ينبغي أن نعترف بأن الشك يخامرنا في أصالة معظم الرسائل التي يوردها كتاب الحلل الموشية ، كما نشك كل الشك في الرواية التي يذكرها يوسف في ذكر وقعة زلاقة ، وهي الواردة في روض القرطاس ·

حواشي الفصل الثالث عشر

(١) فى تحقيق تاريخ قدوم المرابطين الى الاندلس كتب المستشرق الفرنسى الاستاذ ليفى بروفنسال ملحقا لهذا الفصل ، وقد ترجمناه واوردناه فى الملحق رقم ١ ص ٢١٣ـ٢١٥ بعد انتهاء فصول هذا الجزء ، فراجعه هناك ـ (المترجم) ٠

(٢) Abbad., t. II, pp. 23, 199.

(٣) عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ٩٤ ، ترجمته ص ١١٥ ٠

(٤) Abbad., t. II, p. 25.

(٥) Abbad., t. II, p. 120.

(٦) Ibid., t. II, p. 25. على انه ينبغى تصحيح هذه العبارة بالاستعانة بما هو وارد فى: Abbad., t. I, pp. 172-175. نقلا عن ابن خاقان ٠

(٧) Abbad., t. II, p. 121.

(٨) Dozy : Recherches 2eme. ed., t. II. p. 128.

(٩) Abbad., t. II, p. 207.

(١٠) عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ٩٢ ، وترجمته ص ١١٢ـ١١٣ ٠

(١١) Abbad., t. II, p. 202 203.

(١٢) هو ابو بكر وزير المعتمد ٠

(١٣) Abbad., t. II, p. 221.

(١٤) انظر صاعدا الطليطلى : طبقات الامم ، وراجع :
Dozy : Recheseches, 1ere ed., t. I, p. 4.

(١٥) انظر الذخيرة لابن بسام ، طبعة كلية الاداب ـ جامعة فؤاد الأول بالقاهرة المجلد الثانى من القسم الاول ، ص ٣٧٤ ـ (المترجم) ٠

(١٦) Abbad., t. II, pp. 131-132.

(١٧) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤١ ـ ٤٣ ، مادة : ابو جعفر احمد بن خلف بن عبد الملك الغسانى القليعى (وهو القلعى فى طبعة القاهرة) ٠

(١٨) عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ٩٦ـ٩٧ ، وترجمته ص ١١٧ـ١١٨ ٠

(١٩) راجع فى ذلك دوزى فى Abbad., t. pp. 39, 121, 203. وابن خلكان وفيات الأعيان ، ص ٢٥ ، ويلاحظ أن كثيرا من التفاصيل التى أوردها ابن أبى زرع فى روض القرطاس ، ص ٩٩ ، وعبد الواحد المراكشى فى المعجب ، ص ٩٢ ، وترجمته ص ١١٢-١١٣ تعوزها الدقة ومطابقة الواقع ، انظر أيضا Gesta Roderici

أما فيما يتعلق بمسألة اليمين فراجع التعليق الذى ترجمناه عن ليفى بروفنسال والذى كتبه لهذا الفصل • انظر فيما بعد ص

(٢٠) ابن الخطيب • الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٢ •

(٢١) Abbad., t. II, p. 211.

(٢٢) ابن خلدون : العبر (الترجمة الفرنسية) ، ج ٢ ، ص ٧٩ •

(٢٣) ابن الخطيب : الاحاطة (مخطوطة الاسكوريال) ، مادة « مقاتل » •

(٢٤) أى أنه بربرى مثله •

(٢٥) راجع ابن الخطيب : الاحاطة ، (مخطوطة الاسكوريال) مادة « عبد الله بن بلجين » و « المؤمل » راجع أيضا • Abbad., t, II, p. 9, 26, 39, 179, 203-204.

وابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ٩٩ ، أما فيما يتعلق بالتاريخ فراجع فى آخر هذا الجزء التعليق الذى كتبه الأستاذ ليفى بروفنسال ، وانظر حاشية رقم ١٩ •

(٢٦) أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ص ٢٦ ، وابن خلدون : كتاب العبر ، ج ٢ ، ص ٧٩ من الترجمة الفرنسية ، وأيضا : Abbad., t. II, p. 180, 204.

حواشي الفصل الرابع عشر

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٩٨ ، وترجمته ص ١١٩ .

(٢) Abbad., t. I, pp. 54-55. أما التاريخ الذي ذكره دوزي في المتن أعلاه فوارد في ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص ١٠٠ ، وفي عبد الواحد المراكشي ، ص ٩٦ ، وترجمته ص ١١٩ ، أما ابن الخطيب (كما في Abbad., t. II, p. 178. فيرى أن أخذ قرطبة تم في شهر اغسطس .

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص ١٠ .

(٤) انظر Abbad., t. II, pp. 42, 232 وابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص ١٠٠ ــ ١٠١ ، Annales Toledanos (تحت سنة ١٠٩٢ وهي خطأ) .

(٥) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٥٨ــ١٠١ ، وترجمته ، ص ١١٩ــ١٢٢ (وفي الطبعة المصرية ، ص ٩٠) ،
Abbad., t. I, pp. 55-51; 303-304, 306; t. II, p. 68, 178, 204, 205, 227, 228, 232.

(٦) ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ١٧٢ ، ١٧٤ ،
Dozy · Recherches (3eme ed.), t. I, pp. 271-272.

(٧) ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص ١٠١ .

(٨) Abbad., t. II, p. 44.

(٩) انظر ما ذكره ابن الخطيب من قول وارد في :
Dozy : Recherches, (1ere ed)., t, I, p. 179.
حيث ينبغي أن نقرأ كلمة « أمير » بدلا من « عصر » ثم قارن هذا بما جاء في :
Cronic Lusit., p. 419 ; Annales Complut., p. 317.

(١٠) ابن الابار وابن الخطيب في :
Dozy ; Recherches, t. I, pp. 175, 179, 180.
وابن خلدون في Hoogvliet, p. 3. هذا وقد صحح نص العبارة في :
Dozy : op. cit., pp. 156-159.

(١١) راجع دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « السيد » والمراجع الواردة هناك .

(١٢) ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ١٨٢ .

(١٣) راجع ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ٢٢٥ ، ويلاحظ أن هذا المؤلف يذكر يوما من أيام الشهر لا يتفق والأسبوع ، انظر أيضا ابن أبي زرع : روض القرطاس ،

ص ١٠٤ ، والحلل الموشية (طبعة تونس) ، ص ٧١ـ٧٢ ، هذا وقد بقي عماد الدولة مالكا لروبيدة Reuda حتى مات سنة ١١٣٠ م ثم تنازل ابنه وخليفته سيف الدولة عن قلعتها بعد ذلك بعشر سنوات لالفونس السابع ·

(١٤) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٢٢ وترجمته ص ١٤٧ ·

(١٥) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٢٧ ، وترجمته ، ص ١٥٣ ·

(١٦) نقل ابن خلكان في قلائد الأعيان (طبعة باريس سنة ١٨٦٤ م) ص ١٨٠ـ١٨١ وذلك في معرض كلامه عن أبي محمد بن الجبير قطعة من رسالة وجهها الى ابن حمدين ·

(١٧) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٩٩ ، ج ٢ ص ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٤٧٢ ·

(١٨) Chronicon Adefonsi Imperatoris (Esp. SCagrè., t. XXI, c. 91.

(١٩) نضيف في هذه الترجمة العربية ما قاله الشاعر ابن البنى في احدى قصائده معرضا بابن حمدين .

يريد ابن حمــدين أن يعتفى وجدواه أنأى من الكوكب

وانظر عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٢٣ ، وترجمته ص ١٤٧ـ١٤٨ ·

(٢٠) انظر ابن خاقان في المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ص ٥٩٠ ·

(٢١) المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ص ٣٠٢ ·

(٢٢) المقرى . نفح الطيب ، ج ٢ ص ٣٠٣ـ٣٠٤ ، وعبد الواحد المراكشي المعجب ص ١٢٣ . وترجمته ص ١٤٧ ·

(٢٣) راجع ابن أبي أصيبعة في المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ص ٣٢٢ـ٣٢٣ ·

(٢٤) فيما يتعلق بالدين في اسبانيا والمغرب ابان هذه الحقبة راجع جولد تسيهر في مقدمته لطبعة كتاب ابن تومرت التي قام بنشرها لوشياني ·

(٢٥) راجع دائرة المعارف الاسلامية والمراجع المذكورة هناك ·

(٢٦) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٢٣ـ١٢٤ ، ١٣٢ ، وترجمته ص ١٤٩ ، ١٦٠ ، والحلل الموشية (طبعة تونس) ، ص ٧٦ ·

(٢٧) راجع الجزء الثاني من هذه الترجمة العربية ، ص ····

(٢٨) الحلل الموشية ، ص ٥٨ ، أما فيما يتعلق بلوسينا وسكانها اليهود فراجع الادريسي (النص العربي Description de l'Afrique et de l'Espagne, p. 205. وترجمته ص ٢٥٢ـ٢٥٣ ·

(٢٩) Journ. Asiat., IV serie, t. XVIII, p. 513.

(٣٠) Cf. Dozy : Recherche , 3eme ed., t. I, pp. 348-363 (Sur l'expedition d'Al-phonse le Batailleur contre l'Andalousie.

(٣١) Chronicon Adefonsi Imperatorio (Espagna Sagrada), t. XXI, c. 64.

(٣٢) ابن أبى زرع روض القرطاس ، ص ١٠٨ .

(٣٣) عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ١١٤ ، وترجمته ص ١٢٧ ، والحلل الموشية (طبعة تونس) ص ٨٩ ، وانظر ايضا . Chronic. Lusit (Esp. Sagrada, t. XIV, p. 326.

(٣٤) ورد هذا القول فى ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ١٠٨ .

(٣٥) راجع المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان ، ص ١٧ ـ ١٨ ، اما قاضى الجماعة هذا فقد مات مقتولا فى وقعة « كتندة » قرب دارقة سنة ١١٢٠ م ، راجع المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ص ٧٥٩ .

(٣٦) الحلل الموشية ، ص ٦١ـ٦٢ .

(٣٧) Idrisi : Description de l'Afrique et de l'Espagne (textes arabe), p. 70, et trad., p. 80.

(٣٨) ابن ابى زرع . روض القرطاس ، ص ١٠٨ والحلل الموشية ، ص ٥٩ .

(٣٩) المراكشى . المعجب ، ص ١٤٨ ، وترجمته ص ١٧٩)١٨٠ .

(٤٠) واسمه الكامل هو أبو بكر محمد بن يحيى المعروف بابن الصايغ ، راجع عنه دائرة المعارف الاسلامية .

(٤١) راجع ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ص ٢٤٢ـ٢٤٦ ، مادة « أبو بكر بن ابراهيم » ، وانظر أيضا ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٣٤٦ـ٣٥٢ .

(٤٢) فيما يتعلق بهؤلاء « الروم » الذين هم فى الواقع « الصقالبة » ، راجع :
Chronicon Adefonsi (Esp. Sagr.,), t. XXI, c. 45-46, 94.
وكذلك الحلل الموشية ، ص ٦١ .

(٤٣) راجع عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٤٨ ، وترجمته ص ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٧٩ .

(٤٤) الحلل الموشية ، ص ٨٩ . اما فيما يتعلق بضياع المرابطين من اسبانيا فراجع :
F. Codera Decedencia y desaparicion de los almoravides en Espana, Saragosse, 1899.

(٤٥) Chron. Adefonsi Imperatoris cf. 13-16. ، أما فيما يتعلق ببرج قادش أو أعمدة هرقل فراجع :
Dozy : Recherches, 3eme ed., pp. 311-312.
والملحق الوارد هناك تحت رقم ٣٥ .

(٤٦) Chronicon Adefonsi Imperatori, c. 60, 82, 88.

(٤٧) راجع الحلل الموشية ، ص ٨٩ .

(٤٨) الحلل الموشية ، ص ٦٣ ، وابن الأثير : الكامل ، ص ٣٩٢ ، ج ١٠ ، وترجمته :
Annales du Magreb et de l'Espagne, p. 525-526.

(٤٩) Chronicon Adefonsi Imperatori, c. 16.

(٥٠) Ibid., c. 89.

حواشي الفصل الخامس عشر

(١) ابن الخطيب : الاحاطة (مخطوط الاسكريال) . مادة عبد الله بن بلقين :

(٢) Abbad., t. I, p. 59-61.

(٣) Abbad., t. I, pp. 313-314 ; t. II, pp. 71, 75, 232.

وعبد الواحد المراكشي . المعجب ص ١٠٢ ، وترجمته ص ١٢٣-١٢٤ .

Abbad., t. I, p. 383.

(٦) انظر الدائرة .

(٧) Abbad., t. II, p. 73-74.

(٨) Abbad., t. I, p. 68.

(٩) Abbad., t. I, pp. 63, 64.

(١٠) فيما يتعلق بابن زهير واسرته راجع دائرة المعارف الاسلامية .

(١١) انظر المقرى . نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

(١٢) يشير المعتمد فى هذا البيت الى ابنة عريف شرطته ، وكانت بنات المعتمد فى أسرهن رحن يغزلن لها الثياب ، اما عريف شرطته هذا فكان هو الذى يزع الناس بين يديه حين بروزه ، ولم يكن المعتمد يرى هذا الشرطى الا فى هذا اليوم فقط ، راجع المراكشى . المعجب ص ٩٨ طبعة مصر - (المترجم) .

(١٣) الكلام هنا على لسان المعتمد ، ويعنى بذلك أنه اذا ظهر المعتمد كانت مهمة هذا الشرطى النداء بين يديه .

(١٤) عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ١٠٩ ، وترجمته ص ١٣١ .

(١٥) Abbad., t. II, pp. 147-149.

(١٦) للتعريف بابن اللبانة الذى يشير اليه دوزى فى اكثر من موضع فى هذا الكتاب نقول انه كان من الشعراء المجيدين ، الى جانب ما امتاز به من صدق الوفاء ، وكان « صديقا » بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى جليل كريم ، ومع أن من [illegible] تماما باظهار هذه الناحية الا انها تتجلى من سيرته التى يعرض لها دوزى بطرف فى فصله هذا الذى نترجمه اعلاه ، اما من الناحية الادبية فحسبنا شهادة المراكشى بانه « نبيل المأخذ حسن المنزع ، جمع بين سهولة الالفاظ ورشاقتها ، وجودة المعانى ولطافتها ، وكان منقطعا

الى المعتمد وان لم يقد عليه الا آخر مدته » ، راجع ما ورد عنه بالاسهاب في « المعجب » ، ص ٩٢ـ١٠٢ من الطبعة المصرية ـ (المترجم) .

(١٧) راجع قصيدة ابن اللبانة الواردة في . Abbad., t. I, p. 319-320.
وشرحها اللاتيني في نفس المرجع ، ص ٣٦٦ وما بعدها .

(١٨) يقع حصن « منت ميور » بالقرب من « مارتلة » ، التى يسميها الاسبان اليوم باسم DESPEPLADO وهى ناحية مهجورة .

(١٩) Abbad., t. I, pp. 228-229 t. II, p. 64.

(٢٠) Ibid., t. I, p. 66.

(٢١) Ibid., t. I, p. 63.

(٢٢) المعجب (طبعة مصر) ، ص ١٠٠ و Abbad., t. I, p. 310-311.

(٢٣) Abbad, t. I, p. 306.

(٢٤) بدأت ثورة عبد الجبار سنة ١٠٩٣ م ، وبعد سنتين من ذلك التاريخ دخل هذا الامير مدينة « اركش » فحاصره بها « سير » حاكم اشبيلية ، وقتل هو نفسه بسهم أصابه اودى به ، غير ان اتباعه ظلوا على ما هم عليه من التمرد ولم يستسلموا الا بعد حين . انظر : Abbad, t. II, pp. 1228; t. I, pp. 64-65.

(٢٥) Abbad., t. I, p. 71.

(٢٦) راجع ابن الابار في : Abbad., t. II, p. 69.

(٢٧) Abbad., t. I, p. 40.

(٢٨) Abblad., t. II, pp. 66, 67.

الملاحق

ملحق رقم ١ : تحقيق تاريخ قدوم ابن تاشفين الى الأندلس بقلم المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال ، كتبه خصيصا للطبعة الجديدة من هذا الكتاب باللغة الفرنسية ·

ملحق رقم ٢ : ثبت بتواريخ ملوك القرن الحادى عشر المسلمين ·

ملحق رقم ٣ : ثبت بأسماء الأعلام والأماكن برسميها العربى واللاتينى ·

ملحق رقم ٤ : المصادر والمراجع التى استعملها المؤلف والمعلق والمترجم العربى

ملحق رقم ١

حين عهدت مطبعة بريل الى الأستاذ ليفي بروفنسال باخراج نسخة جديدة من كتاب دوزى هذا باللغة الفرنسية ، كتب هذا الملحق الذى يحقق فيه تاريخ قدوم ابن تاشفين ، وهو يتعلق بالفصل الثالث عشر من هذا الجزء [المترجم] ·

يقول ليفي بروفنسال :

لقد برر المؤلف (رينهرت دوزى) التاريخ الذى آثره فى تحقيق هذا الفصل فهو يرى أن مجيء يوسف (بن تاشفين) للمرة الثانيـة الى الأندلس كان فى ربيع سنة ٤٨٣ هـ (= ١٠١٠ م) ، أى بعد وقعـة « زلاقة » بثلاث سنوات ونصف سنة ، وحاصر حصن « الليط » فى صيف ذلك العام ، واستولى على غرناطة فى نوفمبر ، غير أن أبا الحجاج البياسى (كما هو وارد فيما ذكره ابن خلكان عن يوسف) وصاحب روض القرطاس ومؤلف الحلل الموشية فيذكرون تاريخا غير هذا التاريخ ، اذ يشيرون الى أن يوسف بن تاشفين جـاء الى الأندلس للمرة الثانيـــة سنة ٤٨١ هـ (= ١٠٨٨ م) وانـه حاصر حصن الليط فى تلك السنة ذاتهـا (١) ، ويقولون انه عاد الى أفريقية فى الخريف ، ثم رجع الى أسبانيا لثالث مرة سنة ٤٨٣ هـ (= ١٠٩٠ م) وحينذاك استولى على غرناطة (٢) ·

وهناك وجهة نظر تخالف هذه النظرة ، اذ يجب أن نلاحظ أن أولئك المؤرخين الذين أخذوا بهذا الرأى ليسوا من المؤرخين القدماء ، فأبوا الحجاج البياسى قد كتب ما كتب فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ثم جاء صاحب « روض القرطاس » بعده بقرن من الزمان فكتب كتابه ، ومثله صاحب « الحلل الموشية » · أضف الى هذا ما يمكن أن ينالهم من التجريح (٣) ·

---

(١) يسميه « بيلاج دوليدو » فى الفصل الحادى عشر باسم حصن Alaet كما انه يعده من بين المدن التى استولى عليها الفرنس ، ولكن بالرجوع الى الى Gestar Roderici نجد انه وارد باسم Halaet ·

(٢) يخطىء ابن ابى ذرع صاحب روض القرطاس خطأ جسيما اذ يتكلم عن حصار طليطلة فى هذه الفترة بالذات ·

(٣) ينال هذا التجريح على وجه الخصوص صاحب روض القرطاس ·

ثم انهم لم يتفقوا فيما بينهم على تحديد الشهر فبينما نجد ابن أبى زرع يؤكد أن مجيء يوسف الى الأندلس للمرة الثانية كان فى شهر ربيع الأول سنة ٤٨١ هـ (= يونيو ١٠٨٨ م) اذا بنا نجد البياسى يقول انه قدمها فى شهر رجب اى فى سبتمبر أو أكتوبر ٠

ومن ناحية اخرى نجد ان أقدم المؤرخين الثقات فى هذا الموضوع ، اعنى مؤرخى القرن الثانى عشر الميلادى يتفقون على أن حصار « الليط » والاستيلاء على غرناطة قد حدثا فى سنة واحدة هى سنة ٤٨٣ هـ (= ١٠٩٠ م) ٠ ومن ذلك مثلا أن ابن « قاسم الأشبيلى » الذى كتب أصدق تاريخ للمعتمد (٤) ـ وهو الكتاب الذى حفظ لنا ابن الأبار بعض أجزاء منه ـ يقول ان يوسف بن تاشفين والأمراء الأندلسيين قد حاصروا الليط (٥) سنة ٤٨٣ هـ ، ويقرر محمد بن ابراهيم (٦) انه منذ قدوم يوسف للمرة الثانية الى الأندلس أخذ فى محاصرة « الليط » والاستيلاء على غرناطة ٠

ويقول ابن الكردبوس نفس هذا القول فى كتابه الاكتفا (٧) ٠ ثم يضيف الى ذلك ان يوسف جاء الأندلس للمرة الثالثة سنة ٤٩٠ هـ (= ١٠٩٧) ٠

ويمكن أن نضيف الى هذه الشهادات الجديرة بالثقة شهادة ابن الأثير (٨) المؤرخ الذى كتب كتابه وهو بالموصل ، ومن ثم لم يكن على علم تام موصول بأخبار الأندلس مما أدى الى وقوعه فى الخطأ حين يقول ان حصار « الليط » والاستيلاء على غرناطة كانا بعد سنة من وقعة « زلاقة » ، أى سنة ٤٨٠ هـ (= ١٠٨٧ م) ٠

اما فيما يتعلق بالتاريخ الدقيق للاستيلاء على غرناطة فان ابن الصيرفى (٩) يقول انه وقع يوم ١٤ رجب سنة ٤٨٣ هـ ، غير أن هناك اعتراضين يجرحان هذا التاريخ أولهما أن ١٤ رجب (= ٢٦ أغسطس)

---

(٤) Cf. Abbad., t. II, p. 92.

(٥) Abbad., t. II, pp. 121-122.

(٦) Ibid., t. II, pp. 8, 9.

(٧) Ibid., t. II, pp. 26, L. 12.

وقد اخطأ المؤلف فى كتابته اذ يجب أن نفهم من كلمة « الغزوة » عنده حملة يوسف ضد « الليط » ٠

(٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٠

(٩) راجع ما كتبه من المعتمد وعن عبد الله بن بلجين ؛

لم يكن يوم أحد بل كان يوم خميس (١٠) • والأمر الثاني هو أنه من المستحيل على يوسف أن يتمكن من الاستيلاء على غرناطه في شهر اغسطس لأنه قد وطأ الأندلس في الربيع وحاصر « الليط » مدة أربعة أشهر حتى دخل الشتاء كما يؤكد مؤلف روض القرطاس • وأظن أنه بدلا من الأحد ١٤ رجب » يجب أن تكون القراءة « الأحد ١٤ رمضان » اى العاشر من نوفمبر ، يؤيد هذا أن يوم ١٤ رمضان يطابق يوم الأحد ، وكثيرا ما يحدث الخلط بين هذين الشهرين ، من ذلك مثلا أن طائفة من المؤرخين يقولون ان وقعة زلاقة جرت في شهر رمضان سنة ٤٧٩ هـ ، على حين أن طائفة اخرى تقول انها وقعت في شهر رجب . ويمكن تفسير ذلك بأن القوم في ذلك الزمان كانوا يستعملون مختصرات للدلالة على الأشهر • وعلى هذا يكون من السهل الخلط بين شهرى رجب ورمضان لاتفاقهما في الحرف الأول من كل منهما • وليس هناك دليل يمكن أن ينقض هذا الرأى حيث يقول البياسي ومؤلف روض القرطاس ان يوسف قد ركب البحر لثاني مرة قبل نهاية رمضان ، أي قبل ٢٦ نوفمبر ، وبذلك يكون قد تيسر له في ستة عشر يوما مقابلة الأمراء الأندلسيين والسفر الى غرناطة والجزيرة الخضراء •

ليفي بروفنسال

---

(١٠) الظاهر ان الأستاذ ليفي بروفنسال اخطأ فى ايراد الشهر الجريجورى ، فاذا اخذنا بان الحادثة وقعت يوم الاحد ١٤ رجب سنة ٤٨٣ هـ فان هذا اليوم والتاريخ لا يطابقهما يوم ٢٦ اغسطس ، ذلك لان يوم ١٤ رجب سنة ٤٨٣ هـ ، كان يوم الخميس ، ومعنى هذا ان الخميس ١٤ رجب يطابقه يوم ١٢ سبتمبر ١٠٩٠م ، وذلك بناء على ما جاء فى جدول السنين بكتاب التوفيقات الالهامية ، ص ٢٤٢ •

(١١) روض القرطاس ، ص ٩٩ ، ويقول صاحب الحلل الموشية انه وقع فى مدة شهر ، غير أن الحصار استمر مدة اطول من هذه بطبيعة الحال •

ملحق رقم ٢

ثبت بتواريخ ملوك القرن الحادي عشر

المسلمين في الأندلس

١ ـ مملكة أشبيلية

بنـــو عبـــاد

١ ـ محمد بن اسماعيل القاضي ١٠٢٣ ـ ١٠٤٢ م (= ٤١٤ ـ ٤٣٤ هـ)

٢ ـ عباد بن محمد المعتضد ٤٣٤ ـ ٤٦٢ هـ (= ١٠٤٢ ـ ١٠٦٩ م)

٣ ـ محمد بن عباد المعتمد ٤٦٢ ـ ٤٨٤ هـ (= ١٠٦٩ ـ ١٠٩١ م)
هذا وقد كان خلع المعتمد عن العرش على يد المرابطين .

٢ ـ مملكة قرطبـة

بنـو جهـور

١ ـ جهور بن محمد بن جهور ٤٢٣ ـ ٤٣٥ هـ (= ١٠٣١ ـ ١٠٤٣ م)

٢ ـ محمد بن جهور ٤٣٥ ـ ٤٥٧ هـ (= ١٠٤٣ ـ ١٠٦٤ م)

٣ ـ عبد الملك وعبد الرحمن ولدا محمد بن جهور ، وقد ظلا في الحكم حتى حوالي سنة ٤٦٣ هـ (= ١٠٧٠ م) ، وقد ضمت قرطبة الى مملكة أشبيلية .

٣ ـ مملكـة مالقـــة

بنـو حمود

١ ـ ادريس بن علي بن حمود (المؤيد) ٤٢٧ ٤٣١ هـ (= ١٠٣٥ ـ ١٠٣٩ م) .

٢ ـ يحيى بن ادريس بن علي (القائم) ٤٣١ ـ ٤٣٢ هـ (= ١٠٣٩ ـ ١٠٤٠ م) .

٣ ــ حسن بن يحيى بن على بن حمـود المستنصر ٤٣٢ ــ ٤٣٣ هـ ١٠٤٠ م) ٠

(= ١٠٤٠ ــ ١٠٤٢ م) ثم نجاء الصقلبى ٤٣٣ هـ (= ١٠٤٢م)٠

٤ ــ ادريس (الثانى) بن يحيى بن على بن حمود العالى ٤٣٣ ــ ٤٣٩ هـ (= ١٠٤٢ ــ ١٠٤٧) ٠

٥ ــ محمد (الأول) بن ادريس (الاول) بن على بن حمـود : المهـدى ٤٣٩ ــ ٤٤٦ هـ (= ١٠٤٧ ــ ١٠٥٤ م) ٠

٦ ــ ادريس الثـانى بن يحيى بن ادريس الأول : السمـــامى ٤٢٦ هـ (= ١٠٥٤ م) ٠

٧ ــ ادريس الثـانى (مـرة أخرى) ٤٤٦ ــ ٤٤٧ هـ (= ١٠٥٤ ــ ١٠٥٥ م) ٠

٨ ــ محمد (الثـانى) بن ادريس الأول : المستعلى ٤٤٧ ــ ٤٤٩ هـ (= ١٠٥٥ ــ ١٠٥٧ م) ٠

ثم تم بعد ذلك ضم مالقة الى مملكة غرناطة ٠

٤ ــ مملكة الجزيرة الخضراء

بنـو حمود

١ ــ محمد بن القاسم بن حمود ٤٢٧ ــ ٤٤٠ هـ (= ١٠٣٥ ــ ١٠٤٨ م)

٢ ــ القاسم بن محمد بن القاسم بن حمود ٤٤٠ ــ ٤٥٠ هـ (= ١٠٤٨ ــ ١٠٥٨ م) ٠

حيث ضمت الجزيرة الخضراء الى مملكة أشبيلية ٠

٥ ــ مملكة غرناطـة

بنـو زيرى

١ ــ زاوى بن زيرى ٤٠٣ ــ ٤١٠ هـ (= ١٠١٢ ــ ١٠١٩ م) ٠

٢ ــ حبوس بن ماكسن ٤١٠ ــ ٤٢٩ هـ (= ١٠١٩ ــ ١٠٣٨ م) ٠

٣ ــ باديس بن حبوس ٤٢٩ ــ ٤٦٦ هـ (= ١٠٣٨ ــ ١٠٧٣ م) ٠

٤ ـ عبد الله بن باديس ٤٦٦ ـ ٤٨٣ هـ (= ١٠٧٣ ـ ١٠٩٠ م) •
ثم ضمت غرناطة الى دولة المرابطين •

٦ ـ مملكة قرمونــة

بنــو برزال

١ ـ محمد بن عبد الله ٤٠٤ ـ ٤٣٣ هـ (= ١٠١٣ ـ ١٠٤٢ م) •

٢ ـ عزيز بن محمد المستظهر ٤٣٣ ـ ٤٦٠ هـ (= ١٠٤٢ ـ ١٠٦٧ م) •
وقد ضمت مملكة قرمونة الى مملكة اشبيلية •

٧ ـ مملكة رنــدة

بنــو افــرن

(بكسر الهمزة وسكون الفاء بعدها راء مفتوحة)

١ ـ أبو نور هلال بن أبي قرة ٤٣١ (؟) ـ ٤٥٠ هـ (= ١٠٣٩ ؟ ـ ١٠٥٨ م) •

٢ ـ باديس بن هلال ٤٤٩ ـ ٤٥٠ هـ (= ١٠٥٧ ـ ١٠٥٨ م) •

٣ ـ فتوح بن هلال ٤٥٠ ـ ٤٥١ هـ (= ١٠٥٨ ـ ١٠٥٩ م) •

٨ ـ مملـكة مـورور

بنــو رمــر

(بفتح الراء المهملة بعدها ميم مشددة مفتوحة)

١ ـ نوح بن أبي طريد ٤٠٤ ـ ٤٣٣ هـ (= ١٠١٣ ـ ١٠٤١ م) •

٢ ـ محمد بن نوح ٤٣٣ ـ ٤٤٩ هـ (= ١٠٤١ ـ ١٠٥٧ م) •

٣ ـ منار بن محمد بن نوح ٤٤٩ ـ ٤٥٩ هـ (= ١٠٥٧ ـ ١٠٦٦ م) •
وقد ضمت مورور الى مملكة اشبيلية •

٩ ـ مملـكة اركش

بنــو خزرون

(بكسر الخاء بعدها زين ساكنة)

١ ـ محمد بن خزرون الأرنياني ٤٠٢ ـ ٤٢٠ هـ (= ١٠١١ ـ ١٠٢٩ م) •

٢ ـ القاسم بن محمد بن خزرون ٤٢٠ ـ ٤٦١ هـ (= ١٠٢٩ ـ ١٠٦٨ م)٠
وقد ضمت مملكة أركش الى مملكة أشبيلية ٠

١٠ ـ مملكة ولبة وسلطيش

البكريـون

عز الدولة عبد العزيز ٤٠٣ ـ ٤٤٤ هـ (= ١٠١٢ ـ ١٠٥٢ م) ٠
وقد ضمت ولبة وسلطيش الى مملكة أشبيلية ٠

١١ ـ مملكة لبلـة

بنـو يحيى

١ ـ محمد بن يحيى البحصبى ، تاج الدين ٤١٤ ـ ٤٣٣ هـ (= ١٠٢٣ ـ ١٠٤١ م) ٠

٢ ـ محمد يحيى ، عز الدين ٤٣٣ ـ ٤٤٣ هـ (= ١٠٤١ ـ ١٠٥١ م) ٠

٣ ـ فتح خلف بن يحيى ، ناصر الدين ٤٤٣ ـ ٤٤٥ هـ (= ١٠٥١ ـ ١٠٥٣ م) ٠
ثم ضمت لبلة الى مملكة اشبيلية ٠

٢١ ـ مملـكة شلب

بنـو مزين

(وشلب بكسر الشين وسكون اللام)

١ ـ عيس بن أبى بكر ، المظفر ٤٤٠ ـ ٤٤٦ هـ (= ١٠٤٨ ـ ١٠٥٤ م)٠

٢ ـ محمد بن عيس ، الناصر ٤٤٦ ـ ٤٥٠ هـ (= ١٠٥٤ ـ ١٠٥٨ م)٠

٣ ـ عيس بن محمد (المظفر) ٤٥٠ ـ ٤٥٦ هـ (= ١٠٥٨ ـ ١٠٦٣ م)٠
وقد ضمت شلب الى مملكة اشبيلية ٠

١٣ ـ مملكة شنت مرية الغرب

بنـو هرون

١ ـ سعيد بن هرون ٤١٧ ـ ٤٣٣ هـ (= ١٠٢٦ ـ ١٠٤١ م).٠

٢ ـ محمد بن سعيد (المعتصم) ٤٣٣ ـ ٤٤٤ هـ (= ١٠٤١ ـ ١٠٥٢م)٠
وقد ضمت شنت مرية الغرب الى مملكة أشبيلية ٠

١٤ ـ مملكة مارتلة

ابن طيفور حتى سنة ٤٣٦ هـ = ١٠٤٤ م ٠
وقد ضمت مملكة مارتلة الى أشبلية ٠

١٥ ـ مملكة بطليوس

سابور وابناه حتى سنة ٤١٣ = ١٠٢٢ م ٠

بنو الافطس

١ ـ عبد الله بن محمد بن مسلمة (المنصور) ٤١٣ ـ ٤٣٧) = ١٠٢٢ ـ ١٠٤٥ م) ٠

٢ ـ محمد بن عبد الله (المظفر) ٤٣٧ ـ ٤٥٦ هـ (= ١٠٤٥ ـ ١٠٦٣ م) ٠

٣ ـ يحيى بن محمد (المنصور) ٤٥٦ ـ ٤٦٠ هـ (= ١٠٦٣ ـ ١٠٦٧ م) ٠

٤ ـ عمر بن محمد (المتوكل) ٤٦٠ ـ ٤٨٧ هـ (= ١٠٦٧ ـ ١٠٩٤ م) ٠

١٦ ـ مملكة طليطلة

يعيش بن محمد بن يعيش ظل في الحكم حتى سنة ١٠٣٦ م = ٤٢٨ هـ ٠

بنو ذو النون

١ ـ اسماعيل بن ذى النون (الظافر) ٤٢٨ ـ ٤٣٥ هـ (= ١٠٣٦ ـ ١٠٤٣ م) ٠

٢ ـ يحيى بن اسماعيل (المأمون) ٤٣٥ ـ ٤٦٨ هـ (= ١٠٤٣ ـ ١٠٧٥ م) ٠

٣ ـ يحيى بن اسماعيل بن يحيى (القادر) ٤٦٨ ـ ٤٧٨ هـ (= ١٠٧٥ـ ١٠٨٥ م) ٠

ثم وقعت طليطلة فى حوزة الفونس السادس ٠

١٧ ـ مملكة سرقسطة

(ا) بنو تجيب

(بضم التاء وفتح الجيم وسكون الياء)

١ ـ المنذر بن يحيى ٤٠٨ ـ ٤١٤ هـ (= ١٠١٧ ـ ١٠٢٣ م) ٠

٢ ـ يحيى بن المنذر (المظفر) ٤١٤ ـ ٤٢٠ هـ (= ١٠٢٣ ـ ١٠٢٩ م) ٠

٣ ـ المنذر بن يحيى بن المنذر (معز الدولة) ٤٢٠ ـ ٤٣١ هـ (= ١٠٢٩ ـ ١٠٣٩ م) ٠

(ب) بنو هود

١ ـ سلمان بن محمد بن هود (المستعين) ٤٣١ ـ ٤٣٨ هـ (= ١٠٣٩ ـ ١٠٤٦ م) ٠

٢ ـ أحمد بن سليمان (المقتدر) ٤٣٨ ـ ٤٧٤ هـ (= ١٠٤٦ ـ ١٠٨١ م) ٠

٣ ـ يوسف بن أحمد (المؤتمن) ٤٧٤ ـ ٤٧٨ هـ (= ١٠٨١ ـ ١٠٨٥ م) ٠

٤ ـ أحمد بن يوسف (المستعين) ٤٧٨ ـ ٥٠٤ هـ (= ١٠٨٥ ـ ١١١٠ م) ٠

٥ ـ عبد الملك بن أحمد (عماد الدولة) ٥٠٤ هـ = ١١١٠ م ٠

واستولى المرابطون على سرقسطة سنة ١١١٠ م ثم انتقلت الى حوزة النصارى سنة ٥١٢ هـ (= ١١١٨ م) ٠

١٨ ـ مملكة السهلة

بنو رزين

١ ـ هذيل بن خلف بن رزين ٤٠٣ ـ ٤٣٧ هـ (= ١٠١٢ ـ ١٠٤٥ م) ٠

٢ ـ عبد الملك بن هذيل ٤٣٧ ـ ٤٩٧ هـ (= ١٠٤٥ ـ ١١٠٣ م) ٠

٣ ـ يحيى بن عبد الملك ٤٩٧ ـ ٤٩٨ هـ (= ١١٠٣ ـ ١١٠٤ م) ٠
ثم انتقلت السهلة الى حوزة المرابطين ٠

١٩ مملكة البونت

بنو قاسم

١ ـ عبد الله بن قاسم (نظام الدولة) وقد ظل فى الحكم حتى سنة ٤٢١ هـ (= ١٠٣٠ م) ٠

٢ ـ محمد بن عبد الله (يمين الدولة)

٣ ـ أحمد بن محمد (عضد الدولة)

وقد ظلا في الحكم من ٤٤٠ ـ ٤٤١ هـ (= ١٠٤٨ ـ ١٠٤٩ م)٠

٤ ـ عبد الله بن محمد (جناح الدولة)

وقد دخلت مملكة البونت تحت حكم المرابطين ٠

٢٠ ـ مملكة بلنسية

١ ـ ٢ مبارك والمظفر الصقلبيان :
٤٠٧ ـ ٤١٢ هـ (= ١٠١٦ ـ ١٠٢١ م) ٠

٣ ـ ٤ لبيب الصقلبي صاحب طرطوشة ٠

٥ ـ عبد العزيز بن أبى عامر (المنصور) ٤٠٧ ـ ٤١٢ هـ (= ١٠١٦ ـ ١٠٢١ م) ٠

٦ ـ عبد الملك بن عبد العزيز (نظام الدولة) ٤٥٣ ـ ٤٥٨ هـ (= ١٠٦١ـ ١٠٦٥ م) ٠

ثم ضمت بلنسية الى مملكة طليطلة واصبح المامون حاكما لطليطلة ٤٥٨ ـ ٤٦٩ هـ (= ١٠٦٥ ـ ١٠٧٦ م) ٠

ثم انفصلت بلنسية عن طليطلة ٠

٧ ـ أبو بكر بن عبد العزيز ٤٦٩ ـ ٤٧٨ هـ (= ١٠٧٦ ـ ١٠٨٥ م)٠

٨ ـ عثمان بن أبى بكر ٤٧٨ هـ (= ١٠٨٥ م) ٠

٩ ـ يحيى القادر : ملك طليطلة السابق ٤٧٦ ـ ٤٨٥ هـ (= ١٠٨٤ ـ ١٠٩٢ م) ٠

١٠ ـ جعفر بن جحاف ٤٨٥ ـ ٤٨٨ هـ (= ١٠٩٢ ـ ١٠٩٥ م) ٠

١١ ـ السيد ٤٨٨ ـ ٤٩٦ هـ (= ١٠٩٥ ـ ١١٠٢ م) ٠

ثم آلت بلنسية الى المرابطين ٠

٢١ ـ مملكة دانية وجزر البليار

١ ـ مجاهد (الموفق) ٤٠٠ ـ ٤٣٦ هـ (= ١٠٠٩ ـ ١٠٤٤ م) ٠

٢ ـ على بن مجاهد (اقبال الدولة) ٤٣٦ ـ ٤٦٩ هـ (١٠٤٤ ـ ١٠٧٦ م) ٠

ثم ضمت مملكة دانية الى مملكة سرقسطة فاصبح يحكمها :

٣ ـ المقتدر السرقسطى ٤٦٩ ـ ٤٧٤ هـ (= ١٠٧٦ ـ ١٠٨١ م) ٠

٤ ـ المنذر بن المقتدر ٤٧٤ ـ ٤٨٤ هـ (= ١٠٨١ ـ ١٠٩١ م) ٠

٢٢ ـ مملكة مرسية

١ ـ خيران صاحب المرية ٤٠٣ ـ ٤١٩ هـ (= ١٠١٢ ـ ١٠٢٨ م) ٠

٢ ـ زهير صاحب المرية ٤١٩ ـ ٤٣٠ هـ (= ١٠٢٨ ـ ١٠٣٨ م) ٠

٣ ـ عبد العزيز المنصور (من بلنسية) ٤٣٠ ـ ٤٥٣ هـ (= ١٠٦١ ـ ١٠٦٥ م) ٠

٤ ـ عبد الملك المظفر (من بلنسية) ٤٥٣ ـ ٤٥٨ هـ (= ١٠٦١ ـ ١٠٦٥ م) ٠

وفى أيام هؤلاء الثلاثة الحكام كان أبو بكر أحمد بن طاهر حاكم مرسية ثم مات سنة ١٠٦٣ م (= ٤٥٥ هـ) ٠

ثم خلفه ولده محمد ٤٥٥ ـ ٤٧١ هـ (= ١٠٦٣ ـ ١٠٧٨ م) ٠

ثم المعتمد الأشبيلى ووزيراه ابن عمار وابن رشيق حتى سنة ٤٨٣ هـ (= ١٠٩٠ م) ٠

٢٣ ـ مملكة المرية

١ ـ خيران : ٤٠٣ ـ ٤١٩ (= ١٠١٢ ـ ١٠٢٨ م) ٠

٢ ـ زهير ٤١٩ ـ ٤٣٠ هـ (= ١٠٢٨ ـ ١٠٣٨ م) ٠

٣ ـ عبد العزيز المنصور من بلنسية ٤٣٠ ـ ٤٣٣ هـ (= ١٠٣٨ ـ ١٠٤١ م) ٠

بنــو تجيب (بنو صمادح)

(بضم التاء وفتح الجيم وسكون الياء)

٤ ـ معن بن محمد بن صمادح ٤٣٣ ـ ٤٤٣ هـ (= ١٠٤١ ـ ١٠٥١ م)٠

٥ ـ محمد بن معن (المعتصم) ٤٣٣ ـ ٤٨٤ هـ (= ١٠٥١ ـ ١٠٩١ م)٠

٦ ـ أحمد بن محمد (معز الدولة) ٤٨٤ هـ (= ١٠٩١ م) ٠
ثم انتقلت المرية الى يد المرابطين ٠

ملحق بالرسمين العربى واللاتينى
للمدن والأعلام الواردة فى هذا الكتاب
باجزائه الثلاثة

ثبت باسماء الأعلام والأماكن حسب رسميها العربي واللاتيني

وادى البقاع	Acci
وقلة	Achila
اسكيل	Aciscle
ايرش	Airos
حصن الأخوين	Alafoens
قلعة الحنش	Alanje
البـة	Alava
السهلة • شنت مرية الشرق	Albarracin
قصر ابى دانس	Alacacer de Sol.
القلعة	Alcala
قلعة وادى ابره	Alcala de Guadaira
قلعة يحصب	Alcala la Real
قلعة وادى ايرة	Alcala de Guadaira
جزيرة شقر	Alcira
القبة	Alcoba
حصن القبيلة	Alcubilla
المليط ـ الليبط (حصن)	Aledo
الغرب (غرب الأندلس)	Algarve
الجزيرة الخضراء	Algeciras
الجزائر	Alger
حصن الحامة	Alhama
الخندق	Alhandega
الحمراء	Alhambra
القنيط ـ لقنت	Alicante

Aljarafe	الشرف (من أعلى اشبيلية)
Aila	أيلة
Almazare	المصارة ـ المعصرة
Alméria	المرية
Almodaver	حصن المدور
Almohades	الموحدون
Almoravides	المرابطون
Almunecar	المنكب
Alphonse	أنفونش (ألفونس)
Alpuente	البنت
Andujar	اندوشر
Angelino	بنو انجلين
Anzalcazar	حصن القصر
Aqua Portora	اقوة برطرة
Aragon	أرغونة
Archidoan	أرشذونة
Arcila	اصيلة
Arcos	اركش
Armilla	ارملة
Artavasdes	آرطباس
Arzila	أرزيلة
Asturias	اشتوريش
Atienza	انتسة
Aurore	صبح (أم السلطان هشام المعروف بالثانى)
Avempace	ابن باجة
Badajoz	بطليوس
Baena	بيانة
Baetica	باطقة
Baeza	بياسة
Bakdura	بقدورة (أو نقدورة)
Baléares	جزائر البليار ، الجزائر الشرقية
Baltana	بلتانة

Banos (los)	الحامة
Barbastro	حصن بَرْبشتر • (حصن بوبشترو)
Barcelona	برشلونة
Basques	البشكنس (البشقاوية)
Bayona	بونة
Baza	بازة
Beja	باجة
Belda	بلده
Bembuzar	بلنبسر (بكسر الباء واللام وسكون النون ثم باء وفتح السين ، وهى عند ابن أبى القوطية : نهر وادى قيس)
Benadalid	بنو خالد
Boabdil	أبو عبد الله (اخر ملوك غرناطة)
Babastro	بربشتر (أو بوبشترو البلد)
Bougie	بوجة
Brénes	البحريون
Burgos	برغش
Butr	البتر
Cabra	قبرة
Cadiz	قادس
Calabre	قلورية (أو قلهورية)
Calahorra	« (أو قلهورة أو قلهرة)
Calatayud	قلعة أيوب
Calatrava	قلعة رباح
Calle (la)	مرسى الخرز
Calsena	قلسانة
Campagne de la puissance suprême	غزوة القدرة
Campo de Calatrava	فحص البلوط
Campina	القنبانية
Canête	قنيط
Canête la Real	قلعة قنيط
Cantos	القنت

Carabolia	كركبولية
Carabuey	» »
Caracuel	كركى (عند صاحب مراصد الاطلاع ولكنها كركر عند ابن عذارى ، وكرافرى عند الادريسى) ٠
Carcassonne	قرقشونة
Carcastillo	قرقستال
Cormona	قرمونة
Carteya	قرطاجنة
Carthagène	قرطاجة
Cartagonova	قرطاجنة الجديدة
Castille	قشتالة
Castilla la Vieja	عقبة البقر (قشتالة القديمة)
Castille de Bachar	عقبة البقر
Castillon (el-)	حصن بويشترو
Castro Moros	قشترمورش
Castro de Santaver	قلعة شنت برية
Catalogne	قطالونيا
Cazlona	حصن قسطلونة
Cerdagne	سرطانيس أو سرطانية أو سردانية
Ceuta	سبتة
Le Cid	السيد ٠ القمبياطور
Clunia	قلونية
Chaboras	الخابور
Charlemagne	قارلة (شرلمان)
Chintila	شنتلة
Coimbra	قلمرية أو قلنبرية
Colombera	قلنبيرة ٠ قنبرة
Comares	قمارش
Coria	قورة
Cordove	قرطبة
Crête	جزيرة اقريطش (كريت)

Cuenca	كونكة ، قونكة
Cutelobera	قطلبرة
Dénia	دانية
Djarnacas	شرنكاس (جبل قرب طليطلة)
Djehane	جهان (المغنية)
Duero	نهر دويرة
Ebra	نهر ابرو
Egilona	ايلة
Ejea	شبة
Ecija	استجة
Ejea	شية
Eilo	اله
Elvira	البيرة
Emèse	حمص
Empedocles	امبيدوكليس
Espararaguera	حصن أشبرغرة
Estepa	اشتبيط
Euphrate	الفرات
Evora	يابرة (لاروة ؟)
Falces	فالجش
Favila	فافلة
Fuente de Cantos	لقنت
Finana	فنت طحنة
Fortunio	فرتون
Froila	فرويلة
Frontiére	بلاد الثغر
Funtin	الفونتين
Gabes	قابس
Gades	قادس
Galice	جليقية
Galicia	جليقية
Garcia	غرسية

Gaton	غثون
Génil	شنيل (نهر)
Gibraleon	جبل العيون
Gijon	حيجون
Guidad Rodrigo	نيودارو رودريجو
Gomez	قومس
Grenade	غرناطة
Guadal Bullon	وادى بلون
Guadacelet	وادى لكة
Guadaira	وادى ايره
Guadalete	وادى الفتح
Guadalquivir	الوادى الكبير
Guadarrama	وادى الرمل
Guadiana	الوادى اليانع
Quadiela	نهر اليه
Guadimellato	ارملاط
Guadalajara	وادى الحجارة
Guadix	وادى آشى
Guazalate	وادى السليط
Halaet	حصن ليط
Huebar	وبر
Huesca	وشقة
Huelva	ولبة (انية)
Hyacinthe	برلنت
Isle Verde	جزيرة أم حكيم
Iviza	يابسة
Iznájar	حصن اشر
Jaen	جيان
Janda	بحيرة جاندا
Jarama	وادى شرنبة

Jativa	شاطبة
Jean	جيان
Jerez	شريش
Jodar	شوذر
Jorge	بنو الجريح
Juviles	شبالس
Julian	خوليان (اوبوليان)
Kantis	قنتيش ، قنطيش
Lacant	لقنت
Lago de la Janda	بحيرة جاندا
Lebrija	نبريشة
Lerida	لاردة
Lisbonne	لشبونة
Loja	لوشة
Lorca	لورقة
Lucene	لاشانة
Luque	حصن أقوط
Lusitania	لشتانية
Mairena	مورة
Majorque	ميورقة
Malaga	مالقة
El-malo	الخبيث (أردون)
La Mancha	لامنشة
Margueritte	حصن مرغيطة
Martinez	بنو مردنيش ، حصن بنى مردنيش
Medellin	مدلين
Medinaceli	مدينة سالم
Menjibar	منجبار

Medina Sidonia	مدينة شذونة
Menteleon	حصن المنتلون
Mentesa	حصن منتشة
Merida	ماردة
Mertola	مارتلة
Minho	منهو (نهر)
Minorque	منورقة
Mola	حصن مولة
Monteaguido	حصن منت اقيط
Montefique	حصن منت فيق
Montemor	حصن منت ميور
Mula	مولة
Narbonne	اربونة
Noalejo	حصن نوالش
Niebla	لبلة
Osconoba	اكشونبة
Orihuela	اوريولة
Urraque	أراق (أو أوراك زوجة الفونس)
Pampluna	بنبلونة
Paterna	بطرنة
Pelayo	بلاى
Pelage	بلاى (زعيم عصبة الثوار ضد الفتح الاسلامى)
Peralta	بيطرة ألتة
Parcella	البراجلة
Pierre séche	عبد الله البطرشك
Poitier	تور أو بواتييه
Polei (Poley)	بلاى (حصن وبلد)
Recemundo	الربيع زيد بن (بريسيموندو)
Reigo	رية

Reuda	رويطة
Rodrigo	لذريق
Roncevaux	باب شيزروا
Ronda	رندة
Rotenda	سجن رندة
Rota	روطة
San Ascicio	كنيسة شنت اشكيل (أو أسكيل)
Sebarico	بنو شبرقة
Sacralias	وقعة زلاقة
Salado	وادى بكة
Salamanca	شلمنقة
Salamanque	« «
Saltés	جزيرة سلطيش
Sancho	شنجة · شانجة
Sanchol	عبد الرحمن بن المنصور
San Estevan de Gormez	شنت اشتبين (شنت موريش)
San Martin	شنت مرتين
San Payo	شنت بلاية
San Viceate	كنيسة شنت بنجنت
Sant Maria	شنت مرية
Santa Maria de Lugo	قلعة لك
Santa Maria d'Aljarav	شنت مرية الغرب
Santarem	شنترين
Santa Rufina	كنيسة شنت رافنية (او روبينة)
Santiago	شنت ياقب
Saragosse	سرقسطة
Sarambo	وادى شرمبة
Sarra la Gothe	سارة القوطية
Saül	شاول
Secuida	شقندة
Segura	شقندرة
Segoyuela	السواقى
Sened	شنده

Servando	شرنيد
Seville	اشبيلية
Sidona	شذونة
Sierra Morena	جبل الشارات
Sieta Filla	شنتفيلة
Silves	شلب
Simances	شنت مانكش (وقعة الخندق)
Sindola	شندلة
Slaves	الصقالبة
Somontin	جبل شنتمان
Sontebria	شنت برية
Sufetula	سبطيلة
Tage	نهر تاجه
Servando	شربند (بن حجاج القومس)
Takrunna	تاكرنا
Talavera	طلبيرة
Tanger	طنجة
Tarascon	طرسكونة
Tejiare	طليارة
Tocina	طشانة
Teodomiro Ben Ergobado	تدمير بن عبدوش
Tolede	طليطلة
Torre-Cardela	حصن قرنيرة
Torrox	طرش
Tortosa	طرطوشة
Tota	طوطة (ارملة شانجة الكبير)
Toulouse	طلوشة

الطرف الأغر	Trafalgar
ترجيلة	Trijillo
طريانة	Triana
تطيلة	Tudele
تدمير	Tudmir
أيلة	Ulla
أونبـة	Umba
وادى موسى	Valmuza
حصن بارو	Villabaruz
بلانة	Villena
غيطشة	Witiza

المصادر والمراجع المستعملة
فى الأصل والترجمة
للأجزاء الثلاثة

***

١ ـ المصادر العربية

— ابن الأبار : الحلة السيراء نشره دوزى فى

Notices sur quelques manuscrits arabes, Lyden, 1847-1851

— ابن الأبار : كتاب التكملة لكتاب الصلة ، حققه A. Bel ، ومحمد ابن شنب (ج ١) ، الجزائر ، وانظر بقيته ، ج ٥ ، ٦ ، تحقيق

F. CODERA (**Complementum libri Assilah**), **Bibl. Ar. Hisp.**, t. V-VI, Madrid, 1887; éd. M. ALARCON et A. GONZALEZ PALENCIA, (app. à l'éd. CODERA), dans **Miscelanea de estudios y textos arabes**, Madrid, 1915.

— ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (تحقيق ج • تورنبرج ، ليدن ١٨٦٧ ـ ١٨٧٦ ، وانظر القسم الخاص بالمغرب واسبانيا تحقيق وترجمة E. FAGNAN, **Annales de Maghreb et de l'Espagne**, Alger, 1901.

— الادريسى : نزهة المشتاق نشره دوزى ودى خويه بعنوان :

Nuzhat al-mustak, Description de l'Afrique et de l'Espagne, Lyden, 1866.

— أحمد بن أبى يعقوب : كتاب البلدان ، حققه ونشره دى خويه فى الجزء السابع من مجموعة Bibl. George, Arab.

— اخبار مجموعة ، نشر محققا ومترجما الى الاسبانية بقلم لافونت الكانترا ، مدريد ١٨٦٧.

— أبو اسماعيل البصرى : فتوح الشـام ، نشره Lees ، فى كلكتا بالهند ، ١٨٥٤ فى مجموعة Bibliotheca Indica

— الاصطخرى : كتاب مسالك الممالك ، تحقيق دى خويه ، منشور فى A.G.A., t. I.

— ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ، القاهرة ٠

— ابن بدرون : قصيدة ابن عبدون ، منشور بعنوان :

Commentaire historique sur le poème d'Ibn-Abdoun, pub. par R. Dozy, Leyde, 1846.

— ابن بسـام : الذخـيرة ، ج ١ مخطوط باريس ، و ج ٢ مخطوط اكسفورد ، ج ٣ مخطوط جوته ، ونشره بالعربية د٠ شوقى ضيف و د٠ عبد العزيز الأهوانى ٠

— ابن بطوطة : الرحلة حققت ونشرت بعنوان :

Voyages, ed. Defremery et Sanguinetti, Paris, 1853 et suiv.

— ابن بشكوال : كتاب الصلة ، حققه ونشره كوديرا بعنوان :

(Abenpascualis : Assila., Bibl. Ar. Hisp., t. I-II. Madrid, 1883.

— تاريخ ابن حبيب (مخطوط اكسفورد ، انظر فهرست مخطوطات de Nicoll رقم ١٢٧ ٠

ابن حزم : طوق الحمامة ، تحقيق Petrof ، ليدن ١٩١٤ ٠

— ابن حزم : كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، طبع بالقاهرة ، سنة ١٣١٧ ـ ١٣٢١ ٠

— الحميدى : معجم التراجم ، مخطوط رقم Hunt 464 باكسفورد ٠

— ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك ، طبعة دى خويه فى مجموعة B.G.A., t. II.

— ابن حيان : كتاب المقتبس فى أخبار الأندلس (مخطوط بمكتبة جامعة اكسفورد ، بودليان ، رقم ٥٠٩ ، نشره M. Antisna

— ابن خاقان : قلائد العقيان (طبعة باريس) ، ومطمح الأنفس ، طبعة القاهرة ٠

— الخشني : كتاب قضاة قرطبة ، نشره وترجمه الى الاسبانية J. Ribera ، مدريد ١٩١٤ ·

— ابن الخطيب : كتاب الاحاطة في تاريخ غرناطة (مخطوطة مكتبة الاسكوريال برقمي ١٦٧٣ ، ١٦٧٤) ، ونشر في القاهرة جزء منه بعنوان مركز الاحاطة ، ١٣٤٧ هـ ·

— ابن خلدون : كتاب العبر (حققه دي سلين ونشره بالجزائر بعنوان Hist. des Berberes ١٨٤٧ ـ ١٨٥١ ، ثم قام بترجمته الى الفرنسية ونشره بالجزائر سنة ١٨٥٢ ـ ١٨٥٦ ، وانظر طبعة القاهرة للمقدمة وترجمتها بقلم كاترمير ودي سلين ·

— ابن خلكان : وفيات الأعيان : (تحقيق فوستنفلد) طبعة جوتنجن ، ١٨٣٥ ـ ١٨٤٣ ·

— ابن خير : الفهرست ، نشره كوديرا وريبيرا في Index liborum de divers Scientiarum ordinabus. ج ٩ ، ١٠ ، مدريد ١٨٩٥ ·

— ديوان الحماسة ، حققه ونشره فريتاج في بون ١٨٢٨ بعنوان : Hamasae Carmina.

— الرازي : ترجمته الاسبانيه بعنوان Cronica del Moro Rasis (les memorias de la Academia de la Historia, t. VIII.

— ريحان الألباب (مخطوط بمكتبة ليدن) ، رقم ٤١٥ ، وانظر Dozy Catalogue, t. I., pp. 268-269.

— ابن أبي زرع : روض القرطاس ، نشره تورنبرج في أوبسالا سنة ١٨٤٣ بعنوان : Annales regnum mauritaniae

— سعيد الطليطلي : طبقات الأمم (تحقيق لويس شيخو) ، بيروت ١٩١٢ ·

— الشهرستاني : الملل والنحل ، حققه ونشره W. Cureton في لندن ١٨٤٢ بعنوان : Book of Religions and Philosophical Sects.

ـــ الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس حققه ونشره
F. CODERA et J. RIBERA (**Desiderium quaerentis historiam virorum populi Andalusiae), Bibl. Ar. Hisp.**, t. III, Madrid, 1885.

ـــ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق دى خويه ، ليدن ١٨٧٩ ـ ١٩٠١ ·

ـــ ابن عبد الحكم : تاريخ فتح الأندلس (النص العربى) ، وترجم قسما منه J. H. Jones لندن ، ١٨٥٨ ، وأتم ترجمته Torrey الى الانجليزية ·

ـــ عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق دوزى ، وانظر ترجمته الانجليزية بعنوان : The History of the Almohades. ، ليدن ١٨٤٥ ، وأيضا ترجمته الفرنسية :

E. Fagnan : Hist des Almohades, Algers, 1893.

ـــ ابن عذارى : كتاب البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، نشر دوزى الجزءين الأول والثانى منه بعنوان :

Hist. de l'Afrique et de l'Espagne intitulée al-Bayano' l'mogrib, Leyde, 1848-1851.

وترجمه الى الفرنسية فانيان ، (الجزائر ١٩٠١ ـ ١٩٠٤) ، أما الجزء الثـالث فقد حققه ونشره ليفى بروفنســـال ، وطبعه فى باريس ، ١٩٣٠ ·

ـــ الفاكهى : تاريخ مكة (مخطوط بمكتبة ليدن ، رقم ٤٦٣ ، وانظر
Dozy : Catalogue, t. II, p. 170.

ـــ فتح الأندلس : مع ترجمته الاسبانية بقلم J. Gonzalez ، طبعة الجزائر ١٨٨٩ ·

ـــ أبو الفرج الأصبهانى : كتاب الأغانى ، طبعة بولاق ·

ـــ ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس (حققه كوديرا) ونشره بعنوان
Historia vivorum doctorum Andalusiae (Bibl. Ar. Hist)., Vol. VII et VII. مدريد ١٨٩٢ ·

ـــ ابن قتيبة : المعارف (تحقيق ونشر فوستنفلد) ، طبعة جوتنجن ، ١٨٥٠ ·

— القزوينى : حققه فوستنفلد ونشره فى جوتنجن ١٨٤٨ ، بعنوان : Cosmographie .

— ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، نشره ريبيرا بالعربية مع ترجمة له بالفرنسية ، وطبع فى مدريد ١٩٢٦ ٠

— أبو المحاسن (ابن تغرى بردى) : حوادث الدهور ، طبعة جينبول ، ليدن ، ١٨٧٢ وما يليها ٠

— المسعودى : مروج الذهب ، (٩ أجزاء) ، نشره بالعربية وترجمه الى الفرنسية باربييه دى مينارد ، ودى كورتيل ، باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٧ ٠

— المقرى : نفح الطيب (تحقيق دوزى و Brell بريل ، و Wright رايت ، ونشروه بعنوان :
Analcctes sur l'Histoire de la litterature des Arabes d'Espagne.
ليدن ١٨٥٥ ـ ١٨٦١ ، وانظر طبعة بولاق ١٢٧٩ هـ ٠

— النووى : تحقيق فوستنفلد ، جوتنجن ، ١٨٤٢ ـ ١٨٤٧ ٠

— النويرى (القسم الخاص بتاريخ الأندلس) حققه وترجمه الى الاسبانية Gaspar Remiro ، غرناطة ، ١٩١٧ ـ ١٩١٩ ٠

— ياقوت الحموى : معجم البلدان (تحقيق ونشر فوستنفلد) ، ليبزج ، ١٨٦٦ ٠

٢ ـ المصادر المسيحية

ALVARO, **Vita Eulogii**, dans l'**Esp. sagr.**, t. X ; **Epistolae, Indiculus luminosus, ibid.**, t. XI.

Annales Complutenses, dans **l'Esp. sagr.**, t. XXIII.

Annales Compostellani, dans l'Esp. Sagr., t. XIII.

Annales Toledanos, dans **l'Esp. sagr.**, t. XXIII.

BERGANZA, **Antiguedades de Espana**, Madrid, 1719.

Chronicon Adefonsi Imperatoris, dans **l'Esp. sagr.**, t. XXI.

Chronicon Albeldense, ibid., t. XIII:.

Chronicon Burgense, ibid., t. XXIII.

Chronicon de Cardena, ibid., t. XXIII.

Chronicon Complutense, ibid., t. XXIII.

Chronicon Compostellanum, ibid., t. XXIII.

Chronicon Conimbricense, ibid., t., XXIII.

Chronicon Iriense, ibid., t. XX.

Chronicon Lusitannum, ibid., t. XIV.

Espana sagrada, éd. Flores, Risco, etc., Madrid, 1747-1879. 51 vol.

EULOGE **Opera**, in Schot, **Hispania illustrata**, t. IV, ed éd. A. DE MORALES, Francfort, 1603-08, Alcala de Henares, 1574.

Historia Compostellana, dans **l'Esp. sagr.**, t. XX.

IDATIUS, Chronicon, ibid., t. IV.

ISIDORE DE BEJA, **ibid.**, t. VIII, éd. TAILHAN, **L'Anonyme de Cordoue**, Paris, 1885.

SIODORE DE SEVILLE, **Historia Gothorum, ibid.**, t. VI.

LUCAS DE TUY, **Chronicon mundi**, in SCHOT, **Hispania illustrata**, t. IV.

Manuscrit de Meya, dans les **Memorias de la Academia de la Historia**, t. IV.

MOINE DE SILOS, Chronicon, dans l'Esp. sagr., t.XVII.
PAULUS EMERITENSIS, De vita P. P. Emeritensium, Ibid., t. XIII.
PELAGE D'OVIEDO, Chronicon regum legionensium, ibid., t. XIV.
RODRIGUE DE TOLEDE, De rebus hispanicis, in SCHOT, Hispania illustrate, t. II; Historia Arabum, in Elmacini Historia Saracenica ed. ERPENIUS.
Sampiro, Chronicon (dans l'Esp. Sagr., t. XIV).
SAMSON, Apologeticus, ibid., t. XI.
SEBASTIEN, Chronicon, ibid., t. XIII.
SOTA, Chronica de los principes de Asturias y Cantabria, Madrid, 1681.
Vita Beatae Virginis Argenteae, dans l'Esp. sagr., t. X.
Vita Johannis Gorziensis, dans Pertz, Monumenta Germaniae, t. IV des Scriptores.

المسلمون فى الأندلس

كشـــاف عام

للأجزاء الثـلاثة

من الترجمة العربية

كشاف عام للأجزاء الثلاثة

من كتاب المسلمون فى الأندلس

أعمال الأستاذ الدكتور حسن حبشي

- ★ نور الدين والصليبيون (حركة الافاقة الاسلامية فى القرن الثانى عشر) • (نشرته دار الفكر العربى) •
- ★ الحرب الصليبية الأولى (دار الفكر العربى) •
- ★ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس (الجستا) مترجم عن اللاتينية (دار الفكر العربى) •
- ★ الشرق العربى بين شقى الرحى (دراسة تاريخية عن حملة لويس التاسع على مصر والشام) • دار الفكر العربى •
- ★ أهل الذمة فى الاسـلام (لترتون) نشر دار المعارف ودار الفكر وهيئة الكتاب •
- ★ زنجبار (من ١٨٩٠ ـ ١٩١٣) • دار المعارف •
- ★ رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر (دار المعارف) •
- ★ مذكرات جوانفيل عن القديس لويس مع دراسة تاريخية مطولة بقلم المترجم (دار المعارف) •
- ★ تاريخ مسلمى أسبانيا لدوزى • العصبيات القبلية) دار المعارف •
- ★ الجزائر عبر التاريخ (مع أساتذة بعض الجامعات) نشره معهد الدراسات الاسلامية بالقاهرة •
- ★ فتح القسطنطينية لكلارى (مترجم عن الفرنسية القديمة) ، نشره مركز كتب الشرق الأوسـط •
- ★ حوليات دمشقية لمؤرخ شـامى مجهول • نشرته مكتبة الأنجلو المصرية •
- ★ الاحتكار فى العصر المملوكى (حوليات جامعة عين شمس) •
- ★ أنباء الهصر بأنباء العصر للجوهرى الصيرفى • دار الفكر العربى •
- ★ مضمار الحقائق لمحمد بن عمر بن شاهنشاه • نشره عالم الكتب •

★ نزهة النفوس والأبدان (أربع مجلدات) نشره مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية ·

★ الحروب الصليبية لوليم الصورى (أربع مجلدات) نشرته هيئة الكتـــاب ·

★ مذكرات فلهاردوان عن الحرب الصليبية الرابعة · نشرها المجلس العلمى بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ·

★ أنباء الغمر بأنباء العمر لابن حجر العسقلانى · أربع مجلدات · نشره المجلس الأعلى للشؤن الاسلامية بوزارة الأوقاف بمصر ·

★ جمال الدين الشيال : كلمة تأبين فى ذكراه ·

★ المســلمون فى الأندلس لدوزى (ثلاثة مجلدات) نشرته هيئة الكتــاب ·

★ A Fifteenth Century Crusade Against Egypt (1959) (B.A.S. UN.)

★ The Egyptian Expeditions Against Rhodes and Castellrosso (B.A.S. Un.)

تحت الطبع : للدكتور حسن حبشى :

★ الكسياد (عن الامبراطور الكســيوس كومنين) لابنته الأمــيرة أنا كومنينا ، مجلدان ·

★ فلسطين فى ظل الحكم الاسلامى لاى سترانج (مجلدان) ·

★ البقاعى (ابراهيم بن حسن) : عنوان الزمان فى تراجم الشيوخ والأقران (ست مجلدات) أعد مركز التراث بدار الكتب المصرية الجزء الأول منه ·

★ البقاعى : المعجم الصغير (فى مجلدين) ·

★ البقاعى : اظهار النصر لأسرار أهل العصر (ذيل على انباء الغمر) فى أربعة مجلدات (من المسودة بخط المؤلف) ·

★ ابن الحنبلى : در الحب فى تاريخ حلب (سبعة مجلدات والنسخة الأصلية بخط المؤلف مع مراجعتها على سبع نسخ أخرى ·

★ ابن حجر وتلاميذه (دراسة تاريخية له ولأربعة من تلاميذه) ·

★ أحداث صنعت التاريخ (عرض لتســعة أحداث كبرى فى الشرق والغرب كان كل منها نقطة تحول فى التاريخ المحلى والعــالمى) ·

★ العصر المملوكي : (دراسة اجتماعية) .

★ التاريخ بين المؤرخين المسلمين والصليبين .

A Transition Period in Antioch Between 1090 & 1118 A. D.

★ تطور الجريمة والعقاب في التاريخ .

★ الدبلوماسية البابوية .

★★★

المكتبة الاسلامية للدكتور حسن حبشي :

★ الرحمة المهداة (عرض جديد للسيرة النبوية العاطرة) : مجلدان .

★ سرايا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عرض وتحليل قائمان على الوثائق والمصادر الأولية والسيرة الطاهرة .

★ قرون الهجرة : دراسة عرضية للعالم منذ الهجرة الشريفة .

★ سير الصحابة (أو قصة اسلام صحابي) في أربعة مجلدات .

★ صحابيات عرفن الرسول عليه الصلاة والسلام وحدثن عنه (جزءان) .
وكلها تذاع من اذاعات الرياض وجدة ومكة المكرمة .

★ الفتح المبين (تمثيلية عن تاريخ مكة المكرمة حتى أنعم الله عليها بالاسلام) .

فهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب ٩٧٣٩ / ١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 4142 — 0

هذا هو ختام ترجمة ما كتبه المستشرق الهولندى دوزى من أسبانيا الإسلامية حتى دخول المرابطين اليها، وقد تناولها المؤلف من شتى النواحى، كما بسط ما كان هناك من خصومات عنيفة بين ملوك الطوائف، وعدم وجود الشخصية البارزة التى تستطيع أن تسيطر على الأمور، وتأخذ بزمامها فى يدها، فتنقذ الإسلام والمسلمين والحكام على السواء بدلا من هذه النهاية المأسوية التى انتهت اليها من تفتيت القوى الإسلامية، واستعانتها اخيرا بقوى خارجية.

ولقد كان من امانى الباحثين فى تاريخ الأندلس أن يروا ترجمة عربية أمينة لهذا الكتاب حتى تحقق ذلك على يدى مؤرخ وأستاذ قدير هو الدكتور حسن حبشى الذى لم يقف جهده عند حد النقل بل تعداه إلى التعليق والتصحيح.

ويسعد هيئة الكتاب أن تقدم هذه الترجمة بتعليقاتها وملاحقها وكشافها إلى القارئ العربى.

تصميم الغلاف
علياء ابوشادى